ألكسندر دوماس (الأب)

الكونت دي مونت كريستو

رواية

ترجمة

شفيق أسعد فريد

الكتاب: الكونت دي مونت كريستو (رواية)
الكاتب: ألكسندر دوماس (الأب)
ترجمة : شفيق أسعد فريد
الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
APA
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

دوماس ، ألكسندر
الكونت دي مونت كريستو (رواية) / ألكسندر دوماس (الأب),
ترجمة : شفيق أسعد فريد.
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٩٤ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٧ – ١٣٩ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٦٨٨ / ٢٠٢١

الكونت دي مونت كريستو

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الفصل الأول

أخذت السفينة "فرعون" تقترب من ميناء مرسيليا وهي تتهادى فوق صفحة الماء كالعروس. حتى إذا صارت على مسافة مائة متر من الشاطئ الفرنسي.. بدأ البحارة في جمع أشرعة السفينة في صمت ووجوم.

ودهش الذين هرعوا لاستقبالها لما يبدو على وجوه البحارة. فلم يكن ذلك العهد بهم وهم يعودون إلى وطنهم بعد غيبة طويلة.. وقد عزا المستقبلون هذا الطابع الحزين إلى أن حادثاً قد داهم السفينة خلال رحلتها،فترك في نفوس البحارة ذلك الأثر المؤلم الذي ارتسمت دلائله على صفحات وجوههم.

وفيما كانت السفينة تدنو من الشاطئ برز من بين المستقبلين رجل قفز إلى زورق صغير ما كاد يستقر به حتى أعمل مجذافيه في الماء وانطلق بالزورق كالسهم شطر السفينة.

* * *

وكان شاب في مقتبل العمر وسيم الطلعة، طويل القامة رفيعها، تتراوح سنه بين الثامنة عشرة والعشرين، واقفاً في مؤخر السفينة وهو يلقي الأوامر على بحارته. فلما رأى الزورق يدنو من السفينة ترك موقفه وخف لاستقبال القادم وقبعته في يده.

هتف القادم: أهذا أنت يا أدمون؟ ترى ماذا حدث حتى يرتسم الحزن على وجوهكم بأجلى معانيه؟

فأجاب الشاب: إنه حادث مؤلم يا مسيو موريل. فقد مات رباننا الشجاع لكلير ونحن في عرض البحر.

فأجهم وجه صاحب السفينة وسأل في لهفة: والشحنة؟

– وصلت سالمة يا مسيو موريل فلا تقلق.. ولكني متألم لما أصاب الربان المسكين.

فانفرجت أسارير موريل. وسأل:

– ولكن ماذا أصاب الربان الشجاع يا عزيزي أدمون؟

– عندما ألقت السفينة مرساها في نابلي ذهب الربان لمقابلة مدير المرفأ.. ولما عاد إلى السفينة كان بادي الانفعال. ولم يلبث أن أصيب بحمى مخية قضت عليه بعد ثلاثة أيام، فاضطررنا لإلقاء جثته في البحر، واحتفظنا بسيفه وأوسمته لنقدمها لأرملته المسكينة عقب عودتنا.

فغشيت وجه موريل سحابة من الحزن.. وهز رأسه ببطء.

واستأذن أدمون.. وانطلق عائداً إلى مركزه، وحينئذ اقترب بحار يدعى دنجلار من مسيو موريل. وقال:

– لا شك أنك سمعت الأنباء السيئة يا مسيو موريل؟

– نعم.. نعم.. مسكين لكلير.. لقد كان رجلاً شجاعاً أمينا.. ولعل من توفيق الله أن جعل لنا في أدمون خلفاً صالحاً للكلير.

فتلاعبت على شفتي دنجلار ابتسامة ماكرة. وألقى نظرة تنم عن الحقد والكراهية ناحية أدمون..

كان يرى في ترشيح الشاب لمنصب الربان ما يفوت عليه فرصة الحصول على هذا المنصب، ولذا كان ينظر إليه نظرة المنافس، بل الغريم الذي يعترض سبيله في تحقيق مطامعه.

قال: نعم.. أن أدمون شاب يعتد بنفسه، ويعتقد أنه كفء لمنصب الربان.. إذ لم يكد مسيو لكلير يعلم الروح، حتى نصب نفسه مكانه، ثم قضى يوماً ونصف يوم في جزيرة ألبا بدلا من العودة إلى مرسيليا مباشرة.

فابتسم موريل. وقال: أنه لم يفعل غير الواجب عليه. فهو مساعد لكلير، والوحيد الذي يصلح لهذا المنصب. وأما عن البقاء في جزيرة ألبا فهذا ما سأستوضحه بشأنه.

ونادى موريل أدمون، فأقبل هذا بعد أن أصدر أوامره لرجاله.

سأل موريل: هل أستطيع أن أعلم السبب في ذهابك إلى جزيرة ألبا؟

– إنني ذهبت إليها بناء على وصية مسيو لكلير. فقبل وفاته بلحظات دعاني إليه وعهد إلي بإيصال (حزمة) معينة إلى الماريشال برتران.

– وهل قابلت الماريشال؟

– نعم.

فأدار موريل بصره حوله.. ثم انتحى بأدمون ناحية. وسأل:

– وكيف حال الإمبراطور؟

– على خير حال يا سيدي.. لقد قابلته عند زيارتي للماريشال.. فأمطرني بأسئلته عن السفينة وعن الموعد الذي أبحرت فيه من مرسيليا، والطريق الذي سلكته، وشحنتها، ويغلب على ظني أنها لو لم تكن السفينة محملة وأنني صاحبها لما توانى في شرائها، ولما قلت له أنها ملك لشركة "موريل وأولاده"، هتف: آه.. أنني أعرفهم، فإن أحدهم كان في الفرقة التي كنت أنتمي إليها.

فصاح موريل متهللاً:

– يا إلهي! هذا صحيح.. أنه عمي بوليكار موريل الذي رقى إلى رتبة كابتن.. يجب أن تخبر عمي بأن الإمبراطور مازال يذكره..

ثم شد على يدي الشاب في حرارة.. واستطرد:

– لقد أحسنت صنعاً بإجابة لكلير إلى رغبته الأخيرة يا أدمون.. وكان رجال التفتيش الصحي قد صعدوا إلى ظهر السفينة في تلك اللحظة، فهرول أدمون

لاستقبالهم وانتهز دنجلار هذه الفرصة فاقترب من موريل وقال في صوت خافت:

– يلوح أنه ذكر لك من الأسباب ما يبرر تلكؤه حول جزيرة ألبا.

– نعم.. فقد قال أنه كان مدفوعاً إلى ذلك برغبة أبداها له لكلير قبل وفاته..

– آه.. وبهذه المناسبة، ألم يقدم لك أدمون رسالة من لكلير؟

– رسالة! كلا..

فقال دنجلار وعلى شفتيه ابتسامته الماكرة:

– هذا عجيب، فقد خيل إلى أن لكلير عهد إليه برسالة (وحزمة) صغيرة تركها أدمون فيما بعد في جزيرة ألبا منفى الإمبراطور.

فرفع موريل حاجبيه في دهشة.. وسأل:

– ولكن كيف عرفت بأمر تلك الحزمة؟

فاحمر وجه دنجلار خجلاً.. وأجاب:

– كان ذلك مصادفة.. إذ أتفق أنني كنت ماراً من أمام قمرة الربان حين رأيت هذا وهو يناول أدمون رسالة وحزمة، على أني أرجوك ألا تفاتحه في أمر الرسالة خشية أن أكون مخطئاً في اعتقادي.

وعاد أدمون في تلك اللحظة فأسرع دنجلار بالانسحاب.

قال موريل: ما رأيك في أن تتناول معي طعام الغداء يا أدمون؟

– هذا شرف عظيم يا سيدي، ولكني مضطر إلى الاعتذار إذ يجب أن أبادر إلى رؤية أبي وخطيبتي.

– على رسلك يا عزيزي.. بيد أني أريد أن أذكرك قبل أن تنصرف أن السفينة ستبحر بعد ثلاثة شهور، فاحذر من التخلف لأن بي رغبة في ترشيحك لمنصب الربان. فليس هناك من هو أجدر منك. وسأعمل على تحقيق تلك الرغبة لدى شركائي.

فقال أدمون ودموع الفرح تترقرق في عينيه:

– إنني عاجز عن شكرك يا مسيو موريل.

فربت موريل على كتف الشاب. وسأل:

– وبهذه المناسبة.. ألم يطلب إليك لكلير أن تبلغني شيئاً؟ أو تعطيني رسالة؟

– كلا يا سيدي.. فهو لم يكن يقوى على الكتابة..

– حسناً.. وما رأيك في دنجلار؟

– بئس الرفيق يا سيدي.. إنه حقود غير أمين، ولكنني مضطر إلى زمالته مادام ذلك يرضي رؤسائي.

وتصافح الرجلان. فانطلق أدمون إلى القارب وأسرع به إلى الشاطئ.

الفصل الثاني

كان مسيو دانت منهمكاً في تنميق شجيرة (لباب) قد غرسها في إناء من الفخار وضعه عند حافة النافذة، حين سمع فجأة صوت ولده وهو يناديه.

فتحول الشيخ مغتبطاً وألقى بنفسه بين ذراعي ولده وهو يرتجف. فقال أدمون في قلق: ماذا بك يا أبتي.. هل أنت مريض؟

– كلا.. كلا يا عزيزي.. فقط لم أكن أتوقع لقاءك اليوم. ومثل هذه المفاجأة السعيدة كافية لأن تهز الإنسان هزاً.

وربت الأب على كتف ابنه. واستطرد:

– والآن. حدثني بأمر رحلتك.

– الواقع أنها كانت رحلة موفقة يا أبتاه.. وأنا سعيد بالرغم مما حدث. ولكن أي شأن لي بحزن الآخرين. حسبي أنني مرشح لشغل منصب ربان السفينة فرعون خلفاً للمرحوم لكلير الشجاع.. فانظر يا ابتي.. كيف سأصبح ربانا لسفينة كبيرة ولما أعد العشرين من عمري بعد.

فانفرجت شفتا الأب عن ابتسامة سعيدة، ولكنه لم يستطع مغالبة الضعف الذي استولى عليه فترنح، فخف أدمون لنجدته وأجلسه فوق أحد المقاعد وهو يغمغم:

– يخيل إليّ أنك مريض يا أبتي.

– كلا يا ولدي.. ليس بي من شيء البتة.

– إذن سآتيك بزجاجة نبيذ يا أبتاه. فأين تضع نبيذك؟

– ليس لدي منه شيء يا بني.

فامتقع وجه الشاب. وقال:

– ليس لديك نبيذ.. كيف ذلك؟ هل كنت بحاجة إلى المال يا أبي؟

– كلا.. كلا.. إنني سعيد برؤيتك.. والواقع أنني اضطررت لأن أدفع المبلغ الصغير الذي كنت تدين به لجارنا (كادروس) عقب رحيلك.. وبذلك لم يتبق لي إلا القليل مما أعطيتني قبل سفرك.

فصاح أدمون: يالله.. إذن فأنت لم تنفق في الشهور الثلاثة أكثر من ستين فرنكا. إن ذلك مؤلم. مؤلم للغاية.

فقال الشيخ مبتسماً:

– دعنا من هذا. إني سعيد لأنك عدت سالماً. وسوف ننسى كل شيء.

وقبل أن يتمكن الشاب من التعليق على قول أبيه، سمع الاثنان وقع أقدام بالخارج.

فقال الشيخ: هذا وقع أقدام جارنا كادروس. ولابد أنه علم بأمر عودتك فجاء يهنئك.

– حقاً يا أبي. إن هؤلاء القوم ينطقون بغير ما يبطنون، ولكنه جارنا على كل حال، ولقد مد إلينا يد المعونة في ظروف خاصة. فليدخل على الرحب والسعة.

وما أتم أدمون كلامه، حتى فتح الباب، ودخل رجل في السادسة والعشرين من عمره، أسود اللحية. وكان يحمل بين يديه قطعة من القماش يحيكها. وتقدم وهو يقول باسماً:

– إذن فقد عدت يا أدمون؟

– هأنذا يا صديقي كادروس.. وفي خدمتك.

قال ذلك بصوت هادئ فيه رنة البرود. فقال الآخر بخبث:

– شكراً لك. أني أحمد الله لأني لست بحاجة إلى شيء. ولكن دعنا من ذلك يا

عزيزي، وحدثنا عن رحلتك.. فقد كنت الآن في الميناء وصادفت صديقي دنجلار ومنه علمت بعودتك فأسرعت للقائك.

فقال الشيخ: شكراً لك يا كادروس. أنك رجل طيب القلب تهتم بأمرنا كثيراً.

– في الحق أنني أفعل ذلك لأنكم قوم طيبون، ومما يزيد سروري أن سمعت بالعلاقة الطيبة التي بين أدمون ومسيو موريل.

فقال أدمون: لقد كانت علاقتي به أبداً طيبة.

– وإذن فأنت قد أخطأت بالاعتذار من تناول الطعام معه. لأن ذلك يؤلم بغير شك. وإن شخصاً يرجو أن يكون رباناً لابد له أن يتزلف رئيسه.

فقال أدمون: أني أرجو أن أكون رباناً بغير ما تقول.

– هذا جميل منك يا صديقي. وسوف يغتبط أصدقاؤك حين تصبح رباناً. وأنا أعرف شخصاً في القرية المجاورة سيكون أكثر الجميع سروراً بذلك.

فقال الشيخ: أنها مرسيدس بغير شك.

وهتف الشاب:

– نعم يا أبتي.. والآن وقد طابت نفسي برؤيتك. فأنا ذاهب لرؤيتها.

– اذهب يا بني وليباركك الله أنت وزوجتك.. نعم.. اذهب في حراسة الله.

فقال كادروس في ذهول:

– زوجته! كيف تقفز إلى النتيجة بهذه السرعة؟ فإنها ليست زوجته في الوقت الحاضر. ولو أني أنصحك يا أدمون أن تسرع جهد طاقتك. فإن مرسيدس فتاة حسناء. ومثلها يحوم حولها العشاق بكثرة.

فابتسم أدمون. ابتسامة ذات مغزى. ثم نهض فقبل أباه، وحيى كادروس. وانصرف.

وبقي كادروس في الغرفة قليلاً، ثم ترك الشيخ وانصرف ليلحق بدنجلار الذي

كان ينتظره في أحد أركان شارع سيناك..

وبادر دنجلار صاحبه قائلاً:

– هل حدثك عن رغبته في أن يكون رباناً؟

– بل إنه يتكلم كما لو كان رباناً بالفعل..

– ولكنه لم يصبح رباناً بعد. ولعله كان خيراً له أن يظل محتفظاً بعمله الأول كنوتي صغير. ولكن هل لا يزال يحب مرسيدس الحسناء؟

– لدرجة الجنون. وهو الآن في طريقه إليها، ولكني لا أعتقد أنه سيلقى في قرية (كاتالان) غير الخيبة، فطالما رأيت مرسيدس تجوب أنحاء المدينة في رفقة شاب طويل القامة أسود العينين. ولقد سمعتها تناديه بـ (يا ابن العم)، ويقيني أنه يحبها حباً جماً..

فبدا التفكير على وجه دنجلار. ثم سأل: تقول أن أدمون ذهب للقاء مرسيدس؟

– نعم..

– إذن هلم بنا إلى إحدى الحانات القريبة من منزل الفتاة، حتى يتيسر لنا أن نرى أدمون أثناء عودته. ونستطيع أن نقرأ ما تركته زيارته لحبيبته فوق صفحة وجهه.

الفصل الثالث

وهناك على قيد مائة خطوة من الحانة التي جلس ببابها الصديقان يحتسيان النبيذ، كانت قرية (كاتالان)، وهي شبه مستعمرة شيدها جماعة من المهاجرين الأسبانيين لهم عوائدهم ونظمهم الخاصة..

وفي أحد منازل المستعمرة الصغيرة وقفت بالداخل فتاة حسناء سوداء العينين والشعر.. وهي تعبث ببعض الزهور بين أصابعها..

وجلس أمامها على مقعد كبير شاب في الثانية والعشرين من عمره، وقد جعل يهتز تبعاً لاهتزازات المقعد، وهو لا يحول عينيه الوالهتين عن وجه الفتاة. وفي نظراته معنى الحيرة والقلق.. بينما كانت الفتاة تتحاشى نظراته الحادة على قدر المستطاع.

وبعد صمت طويل قال الشاب:

– عما قريب ستحتفل القرية بعيد (ايستر) يا مرسيدس.. وهذا الفصل هو فصل الزواج.. ولكني لم أعرف جوابك بعد.

– لقد أجبتك أكثر من مائة مرة يا فرناندو. فلا يجدر بك أن تسيء إلى نفسك بتكرار السؤال على هذا النحو.

– إذن أجيبيني مرة أخرى بالله عليك.. آه. يا لهول ما أنا فيه.. أأحلم عشر سنوات، وأسعد بحلمي، ثم أمني بعد ذلك بالفشل؟ إن ذلك كثير وشاق.

فأجابت مرسيدس في هدوء:

– ولكن تذكر يا صديقي أنني لم أشجعك على التمادي في عواطفك بل أإنني لم أكن لك في أي وقت مضى غير عاطفة الصداقة المجردة وأنت تعلم بعد كل هذا إن قلبي ليس لي.

– هذا صحيح.. وهو ما يهمني ويحز في صدري. ولكن هل فاتك أن قوانيننا المقدسة تقضي عليك بألا تقترني بغير أحد من شبان عشيرتك؟

– أنها ليست قوانين يا عزيزي فرناندو، ولكنه العرف اصطلح عليه أسلافنا. فلا تحاول عبثاً أن تثنيني عن عزمي.

فأتى الأسباني بحركة عنيفة. ثم نهض واقفاً وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا. وأخيراً توقف. وجابه مرسيدس وقال: أجيبي يا مرسيدس هل فكرت نهائياً؟

فقالت ببرود: أنني أحب أدمون دانت. ولن اتخذ زوجاً سواه.

فسقط رأس الشاب فوق صدره. وأفلتت من شفتيه آهة عميقة وسكت.

وفي هذه اللحظة ارتفع صوت عذب طروب يقول صاحبه: مرسيدس فقفزت الفتاة من مكانها، وقد اصطبغت وجنتاها بأرجوان الحياء ثم أسرعت إلى الباب ففتحته وهي تصيح في لهفة: أدمون.. أدمون.

فاصفر وجه فرناندو، وارتجفت أوصاله. وسقط فوق مقعده خائر القوى.. أما الفتاة فإنها ألقت بنفسها بين ذراعي أدمون. وكان عناق حار نسي الاثنان فيه نفسيهما.

وأخيراً لاحظ أدمون وجود فرناندو في الغرفة.. فأفاق من ذهوله ودهش إذ رأى الاسباني يضع يده على مقبض خنجره.

أحمر وجه أدمون.. وهتف معتذراً:

– آه.. عفواً.. ولكن من هذا السيد يا مرسيدس؟

– هذا صديقي.. ابن عمي.. بل إنه أخي فرناندو.. فيجب أن يكون كذلك أخاك يا أدمون.. فليس لي سواه من بعدك.

فمد دانت يده إلى فرناندو.. فلم يتحرك هذا لمصافحة الشاب.. فنظر أدمون إلى مرسيدس في قلق.. ثم إلى فرناندو في تجهم وغضب.

أحست الفتاة بفداحة الإهانة الموجهة إلى حبيبها.. فنظرت إلى فرناندو نظرة غريبة فيها معنى الأمر.. فمد يده إلى أدمون وصافحه وهو كالمأخوذ.. ولكنه لم يستطع كبح جماح عواطفه الثائرة فاندفع إلى خارج الغرفة وهو يغمغم:

– ويل لي.. ويل لي.. من ذا يخلصني من هذا الشيطان.

وانطلق في الطريقة كالمجنون.. حتى انتبه أخيراً إلى صوت يناديه قائلاً:

– هو ذا الأسباني.. فرناندو.. إلى أين أنت ذاهب؟

فوقف الشاب فجأة.. وأدار عينيه حوله.. فوقع بصره على دنجلار وكادروس وهما جالسان إلى مائدة الشراب في ظل شجرة باسقة.

ونهض كادروس إلى فرناندو وجذبه إلى المائدة.. وهو يقول:

– ماذا دهاك يا صديقي؟. اجلس وهدئ روعك.

فجفف فرناندو العرق المتصبب من جبينه، وهتف:

– طاب يومكما أيها السيدان.

وتهالك فوق أقرب مقعد إليه.. فقال كادروس ضاحكاً:

– عجباً لك يا فرناندو.. لقد كنت تعدو كالمجنون.. هون عليك يا صديقي.

ثم قدم له قدحاً من النبيذ.. واستطرد:

– يخيل إلى أنك عاشق قانط.. يا إلهي.. أنه يئن ويتأوه.. تشجع يا فتى وحدثني ببلواك.. إذ لا يجدر بك أن تلزم الصمت وأصدقاؤك يحاولون تعزيتك.

فقال فرناندو.. وهو يحاول إخفاء غضبه: ليس بي من شيء فقال كادروس لصديقه بخبث:

– آه، يخيل إلي أن المسألة تدور حول غرام وغيرة.. وليس ذلك بغريب على السيد فرناندو وهو شاب ذكي. واحذق من صاد الأسماك في كل مرسيليا. والمعروف أنه غارق في حب فتاة على جانب عظيم من الجمال تدعى مرسيدس. ويظهر. لسوء

الحظ. أن الفتاة تحب أحد بحارة السفينة فرعون.. ولما كانت تلك السفينة قد عادت اليوم. فأكبر الظن أن المسكين فرناندو قد أصيب الآن بصدمة مؤلمة.

لم يحر فرناندو جواباً.. فرأى كادروس أن يحمله على الكلام مستعيناً بالكاس والطاس، فراح يعب له منها عبا.

وأخيراً قال كادروس: وعلى كل حال فليس فرناندو هو الوحيد الذي سخر منه أدمون.. أليس كذلك يا دنجلار؟

إذن دعونا نشرب نخب سعادة أدمون الذي فاز بالحسناء مرسيدس..

قال ذلك وأرسل بصره إلى فرناندو الذي أحس كأنه أصيب بطعنة خنجر حاد.

ومضى كادروس في سخريته.. قال: وفي أي مكان سيتم هذا القران السعيد..؟

فأجاب فرناندو وهو يغالب غيظه: لم يحدد ذلك بعد..

– بلا سيتحدد حالاً.. كما تحدد أن يصير أدمون ربانا للسفينة فرعون...

فقفز دنجلار من مكانه كالملسوع. وألقى نظرة شك إلى وجه كادروس ولكن هذا كان قد بدأ يقع تحت سلطان الخمر.

ورفع كادروس كأسه ثانية.. وهتف:

– لنشرب أيضاً نخب القبطان دانت زوج الحسناء مرسيدس.. ولكن ما هذا الذي أرى أمام منزل الأسبانية الفاتنة. انظر يا فرناندو فإنك أحد مني بصرا.. انظر.. يخيل إلي أنني أرى عاشقين يسيران جنباً إلى جنب.

وكان دنجلار يراقب وجه فرناندو جيداً. فرأى التقلبات التي طرأت على سحنته وهو يوجه نظره شطر منزل مرسيدس.وكانت براكين الغيرة قد بدأت تثور في فؤاد فرناندو.. وخيل إليه أن يستل خنجره ويغمده في صدر غريمه، ولكنه تجلد وغالب يأسه في شجاعة..

وفجأة.. قفز كادروس واقفاً، وصاح بأعلا صوته:

– هالو أدمون.. ألا ترى أصدقاءك ؟ أو أن المنصب الجديد قد ملأك زهواً فنسيتهم؟

وكان أدمون ومرسيدس يسيران على قيد خطوات منهم، وسمع الشاب قول كادروس، فاقترب منه وهو يقول باسماً: كلا يا عزيزي كادروس.. ولكن السعادة الغامرة هي التي أنستني كل شيء حتى نفسي فقال كادروس:

– هذا عذر مقبول وأيم الحق.. آه.. طاب يومك يا مدام دانت!!

فأحنت مرسيدس رأسها باحترام.. وقالت: لم يصبح ذلك لقبي بعد يا سيدي.

فقال دنجلار: وهل سيتم القران قريباً يا مسيو أدمون؟

فأجاب دانت: نعم. وبعد غد على الأكثر..

فقال دنجلار: يالله.. يلوح لي أنك في عجلة من أمرك يا سيدي.. فإن السفينة فرعون لن تبرح الميناء ثانية قبل مضي ثلاثة شهور.!

فقال أدمون: أن الإنسان دائماً يسرع إلى حيث يجد السعادة. ويكون إسراعه بقدر انتظاره لها، وأنا قد انتظرت هذه السعادة طويلاً. ولذا فسأسرع إليها، ثم أني أرجو أن أقضي شهر العسل في باريس، كما أرجو أن أحقق آخر رغبة لرباننا المسكين (لكلير) هناك..

قال دنجلار: آه نعم.. نعم.. فهمت.

وغمغم قائلاً لنفسه: نعم.. فهمت.. أنك ذاهب إلى باريس لإيصال رسالة من الماريشال برتران.. يالله.. لقد خطرت لي فكرة.!! فكرة مدهشة يا عزيزي أدمون!! حقاً أنك لم تصبح بعد رباناً للباخرة فرعون.

* * *

وظل دنجلار يراقب العاشقين حتى اختفيا تماماً. ومن ثم حول بصره إلى فرناندو فوجده أشبه بالمحموم. فقال له:

– يخيل إلي يا عزيزي فرناندو أن هذا الزواج لا يسعد كل الناس.

فأجاب الأسباني في مرارة:

– أنه يخرجني عن حدود العقل. فأنا أحب مرسيدس إلى حد الجنون، وبودي لو أشفي غليلي من هذا الشيطان بخنجري. ولكنها صرحت أنها تقتل نفسها وتلحق به لو أصابه ضر.

أدرك دنجلار أن الفرصة سانحة أمامه للتخلص من منافسة أدمون فرأى أن ينتهزها باستخدام فرناندو في القضاء على الشاب حتى يخلو له الجو فوق السفينة فرعون.

قال: يخيل إلي أنك شاب طيب القلب، وبودي لو أنقذك مما أنت فيه.

فتحول إليه فرناندو. ونظر إليه متسائلاً. فاستطرد دنجلار:

– نعم. بودي أن أنقذك من آلامك. ولن يكون ذلك إلا بالحيلولة بين أدمون وحبيبتك. وفي الاستطاعة منع هذا القران دون موت أدمون، وبذلك تظفر بالفتاة دونه.

حملق الأسباني في وجه محدثه بدهشة. وسأل: وكيف ذلك؟

– إن المسألة على غاية البساطة يا عزيزي، فغياب أدمون غيبة طويلة لا تفترق في نتيجتها عن نتيجة قتله. أليس كذلك؟ فلنفرض إذن أن جدران السجن حالت بين أدمون ومرسيدس.

فقال كادروس: هذا صحيح ولكن الإنسان يستطيع أن يخرج من السجن أو يفر منه. وشخص كادمون لا يسكت عن الانتقام ممن تسببوا في بلائه.

وتجرع كأساً أخرى.

ولكن دنجلار لم يكترث لاعتراضه وتحول إلى فرناندو. وقال:

– أصغ إلي صديقي. أنني لا أريد غير مصلحتك. لأنه لا شأن لي في تدخلي

بينكما.

فنظر إليه فرناندو بارتياب؛ ولكنه قال:

– قد يكون ما تقول وقد لا يكون. فذلك لا يهمني في شيء بقدر ما يهمني الخلاص منه، لأنني أمقته وأحسده، فما هي الوسيلة التي تشير بها؟

فصمت دنجلار قليلاً، ولكنه أطال الفكير، وعندما تكلم دعا إليه صاحب الحانة، وأمره بإحضار قلم وورقة.. فلما جاءه بهما.. تحول دنجلار إلى الأسباني وقال:

– والآن.. لنفرض أن أدمون عرج على جزيرة ألبا في رحلته الأخيرة، فإذا وشى به إلى المدعي العمومي بأنه من حزب بونابرت ألقى به في غياهب السجن.

فهتف فرناندو في صوت منفعل: هذه فكرة مدهشة.. وأنا على استعداد لتنفيذها.

وأردف دنجلار: وليس من الضروري أن توقع هذا الخطاب.. كما وأني سأكتبه بيدي اليسرى. وبذلك تستحيل معرفة شخصية المرسل حتى على أدمون نفسه.

قال ذلك، ومد يده اليسرى، وغمس القلم في المداد.. ثم بدأ يكتب.

وأخيراً وضع القلم.. وقدم الرسالة لفرناندو.. فقرأ هذا ما يلي:

"سيدي المدعي العمومي.

"يحذرك شخص مخلص لفرنسا والعرش من شاب يدعى أدمون دانت ملحق بالسفينة فرعون التي وصلت إلى الميناء في صباح اليوم قادمة من أزمير، بعد أن عرجت على نابلي وألبا، لأنه ينقل الرسائل بين القائد (مورات) ونابليون المغتصب، ومن المغتصب إلى حزب بونابرت في باريس.. وتجدون الدليل على جرمه متى قبضتم عليه.. فإنكم تعثرون على رسالة خطيرة يحملها معه أو يخبئها مع والده أو في غرفته الخاصة في السفينة المذكورة".

* * *

قال دنجلار: والآن ضع الرسالة في غلافها وابعث بها إلى المدعي العمومي.

وكان كادروس يصغي إلى ما يقال بانتباه رغم سكره، فقال:

– نعم.. قد تم كل شيء.. وظهرتما بأوضح مظاهر النذالة.

ومد يده يريد اختطاف الرسالة فدفعه دنجلار بلطف وهو يقول:

– أننا نفعل ذلك على سبيل المزاح. وأؤكد لك أنني لا أكن لصديقي أدمون إلا كل حب وإخلاص.. انظر.

وفرك الرسالة بين أصابعه بعنف وألقاها في أحد الأركان. ثم نهض واقفاً وقال: هلم بنا يا كادروس..

فقال كادروس وهو ينهض متكئاً على ذراع صديقه: حسناً فعلت..

وتحول إلى فرناندو، الذي ظلت عيناه مستقرتين على الورقة الملقاة في الركن. وقال:

– ألا تعود معنا إلى مرسيليا يا فرناندو؟

فقال الشاب في تبلد: كلا. بل سأعود إلى القرية..

– على رسلك يا صديقي

وانطلق الرجلان في سبيلهما. ولكن دنجلار انتهز الفرصة وألقى نظرة إلى حيث كان يجلس فرناندو. فرآه يلتقط الورقة ويدسها في جيبه.

* * *

وكان اليوم الثاني صحواً جميلاً. فبرزت الشمس من خدرها. وألقت أشعتها القانية على أمواج البحر المزبدة.. وخلعت عليها ثوباً أرجوانياً جذاباً.

وكانت حانة (لارزيف) غاصة بالمدعوين الذي يحتفلون بزفاف أدمون وأغلبهم من البحارة والنوتية.. وعندما دخل مسيو موريل إلى الغرفة الرحبة التي أقيمت فيها المأدبة تلقاه البحارة بالتهليل. وكان حضوره في هذه الحفلة مؤيداً للإشاعة التي تدور

حول تعيين أدمون رباناً لأكبر سفن شركة موريل وأولاده.

وانطلق كادروس ودنجلار يبحثان عن أدمون. ولم يبتعدا كثيراً حتى رأياه قادماً برفقة مرسيدس. وكانت الأخيرة متكئة على ذراعه وقد سار على يمينهما الأب دانت الشيخ. ومشي خلفهما فرناندو وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة.

وقد انقبض صدر الأب الشيخ عندما أحس بالسكون الرهيب الذي يخيم على المدعوين وهم يتناولون الطعام ولم يتمالك أن قال:

– يالله! ما هذا السكون المقبض! إننا في عرس أيها السادة.

فقال كادروس وهو يرمق أدمون بنظرة تدل على الإخلاص:

– بل أن العريس كثير الحياء. طويل الصمت.

فقال أدمون: الواقع أنني سعيد جداً. وهذه السعادة هي التي تعقل لساني، وكم يثلج صدري أن أفكر في أنني أصبحت زوج مرسيدس الحسناء.

فضحك كادروس وقال: إنك لم تنل هذا اللقب بعد؟!

– صدقت يا كادروس.. ولكني سأنال هذا الفخر بعد ساعة ونصف ساعة.

ولم يكد أدمون يتم جملته حتى ارتفعت في الخارج أصوات جلبة وضوضاء، فساد السكون فجأة بين المدعوين.. وجرى الدم سريعاً في عروق فرناندو ودنجلار.. وفي تلك اللحظة سمع طرق عنيف على الباب وصوت متكلم يقول: افتحوا الباب باسم القانون.

باسم القانون!! يالله!! ماذا حدث؟

وجمد الجميع في أماكنهم.. وأخيراً فتح الباب ودخل منه ضابط يتبعه أربعة جنود.

سأل الضابط: من منكم يدعى أدمون أيها السادة؟

– هأنذا يا سيدي. ماذا تريد؟

– إني أقبض عليك يا أدمون دانت باسم القانون.

فاصفر وجه أدمون قليلاً.. وسأل: تقبض علي! ولكن لماذا؟

– هذا ما ستعلمه عند إجراء التحقيق.

ورأى مسيو موريل أن المقاومة والتوسل لا يجديان. وتقدم دانت الشيخ من الضابط وهو في أشد حالات الفزع والانزعاج. وحاول أن يقف على السبب في القبض على ابنه. ولكن الضابط لم يستطع أن يشفي غليله.

وأما كادروس فإنه غمغم قائلاً: ما معنى ذلك؟

وبحث بين المدعوين عن فرناندو ولكنه لم يجد له أثراً. وإذ ذاك ارتسمت أمام عينيه مؤامرة الأمس، وفهم كل شيء فتحول إلى دنجلار وقال:

– أهذه نتيجة المهزلة التي دبرتماها بالأمس.. يا للعار!!

فقال دنجلار: أنك مخطئ يا صديقي.. فأنت تعلم أنني مزقت الورقة التي كتبناها.

– أنك لم تمزقها.. ولكنك ألقيتها في أحد الأركان. ولكن أين فرناندو؟

– لست أدري. ربما ذهب لبعض شأنه.

وفي أثناء هذه المحادثة كان أدمون قد صافح جميع المدعوين وعلى شفتيه ابتسامة فاترة.. ثم سار بين الجنود إلى مركبة كانت في الانتظار فصعد إليها يتبعه الضابط والجنود وحينذاك أطلت مرسيدس من الشرفة.. وقالت بصوت يغص بالدموع وهي تلوح بيدها: وداعاً يا أدمون وداعاً أيها العزيز!

وسمع أدمون هذه الألفاظ المؤثرة. فقال في صوت مختلج:

– إلى اللقاء يا مرسيدس.

* * *

والتفت مسيو موريل إلى المدعوين. وقال:

– ابقوا كما أنتم أيها السادة.. وسأسرع إلى مرسيليا لآتيكم بالخبر اليقين..

وانطلق لا يلوي على شيء.

* * *

وبعد عشرين دقيقة صاح أحد المدعوين وكان يطل من الشرفة:

– ها قد وصلت مركبة مسيو موريل.

فأسرعت مرسيدس والأب دانت إلى الباب.. فقابلهما مسيو موريل وكان مصفر الوجه بادي التأثر.

قال: أيها الأصدقاء أن الأمر أخطر مما كنت أحسب، فإن أدمون متهم بأنه ينقل الرسائل بين نابليون وأعوانه.

وما إن أتم موريل قوله حتى أفلتت من شفتي مرسيدس صيحة يأس وجزع.. وألقى دانت الشيخ بنفسه على مقعد قريب محطم النفس والأمل.

واقترب كادروس من دنجلار وقال في حنق:

– كيف تستطيع الآن أن تبرر فعلتك المخجلة أيها الكذاب؟ لقد خدعتني. ولكن ثق أنني لن أدع اليأس والقنوط يستوليان على قلب الأب المسكين. أو فؤاد مرسيدس الحسناء.

فقبض دنجلار على ذراعه في عنف. وقال بصوت مضطرب:

– صه أيها التعس.. واحذر أن تتكلم وإلا فلا أكون مسئولاً عن سلامتك. إذ من يدري أن أدمون ليس مجرماً. وأنت تعلم أن السفينة ألقت مرساها في جزيرة (ألبا) حيث قضى أدمون يوماً كاملاً بعيداً عن أعين زملائه البحارة.. ثم إن السفينة لو فتشت وعثر فيها على أية رسالة من الفريقين المتآمرين لقبض البوليس علينا جميعاً بتهمة التستر على الخونة..

فأطرق كادروس برأسه.. وقد شعر بضعفه أمام منطق دنجلار القوي.وكان الجميع

قد بدأوا في الانصراف. وجاء فرناندو ورافق مرسيدس إلى منزلها..

وفي أثناء الطريق التفت موريل إلى دنجلار وقال:

– ما رأيك في ذلك يا دنجلار؟ أتصدق أن أدمون يرتكب هذه الخيانة؟

– الواقع أن أدمون قد أخطأ بالوقوف بالسفينة عند شاطئ جزيرة ألبا.. ولقد قلت لك قبل الآن أن وقوفه أثار ريبتي وشكوكي.

فهز موريل رأسه في حزن.. وقال:

– حسناً.. إنني ذاهب الآن لمقابلة مسيو دي فيلفور المدعي العام لأسأله رأيه في قضية أدمون.. فاذهب أنت في السفينة. وسألحق بك بعد ذلك.

الفصل الرابع

كان المدعي العام في أثناء هذه الحوادث منهمكا في إعداد حفلة عقد خطبته على الآنسة رينيه كريمة الماركيز سان ميران أحد الملكيين المتحمسين..

وكان المدعوون جميعاً من أنصار الملكية الذين ينقمون على نابليون.. ولذلك استقالوا من وظائفهم حينما تربع على عرش فرنسا. وكانوا يلقبونه بينهم (بالمغتصب).

وكان حديثهم وقتئذ يدور حول نابليون الذي فر إلى جزيرة ألبا وهم يعتقدون أن في فراره هذا الضربة القاضية على آماله ونفوذه.

قالت أم الخطيبة: آه.. لو رآنا البونابرتيون الآن لودعوا كل آمالهم في عودة القوة إلى أيديهم.. وهم الذين حيوا الشمس المشرقة.. بينا ظللنا نحن مخلصين للعرش الهاوي إلى الحضيض.. والآن وقد دارت الدائرة وفر المغتصب، فقد عاد العرش إلى صاحبه وأموالنا ردت إلينا فما رأيك في ذلك يا مسيو دي فيلفور وأبوك من كبار زعماء الثوريين؟

فقال المدعي العمومي: إنني لا أنكر حقاً أن والدي من زعماء الثوريين، ولكني لست على رأيه ولا من مبدئه، صحيح أنه خان لويس السادس عشر وانضم لنابليون فأعلى هذا شأن ومنحه لقب كونت. ونصبه في مجلس الشيوخ، فأصبح يدعى الكونت نورتييه، ولكن ليس معنى ذلك أن أدين بمبادئه وأنسخ معتقداتي.

وفي تلك اللحظة دخل أحد الخدم، وهمس في أذن دي فيلفور بضع كلمات، استأذن هذا على أثرها، وخرج من القاعة الكبيرة، ثم عاد بعد دقائق وعلى شفتيه ابتسامة عريضة واقترب من خطيبته، وقال:

– يؤسفني أنهم يستدعونني الآن، وفي مثل هذه الساعة التي هي من أسعد أوقاتي. ولكن لا شك أن المريض الذي يدعونني لفحصه مصاب بداء أعياهم برؤه.

فقالت الماركيزة: أحقاً تقول؟

– نعم.. وأن مرضه سيؤدي به حتماً إلى المشنقة..

فهتف أكثر المدعوين في صوت واحد: ماذا تعني؟

– أعني أنه اكتشفت مؤامرة بونابرتية جديدة.

قال ذلك. وأخذ رسالة دنجلار المشئومة بني أصابعه وتلاها على ذلك الجمع الحاشد..

ولما فرغ من القراءة، قال في صوت مرح:

– ولقد أصدر سكرتيري الأمر بالقبض على المتآمر المذكور.

* * *

خرج جيرار دي فيلفور المدعي العمومي، وهو يحاول أن يسترد سيماء الوقار والرزانة التي يقتضيها عمله الرسمي..

ورأى مدير البوليس بالباب.. فسأله:

– لقد أحسنت صنعاً بالقبض على المتهم.. فهلم بنا إليه. وعليك أن تحدثني في أثناء الطريق عن رأيك في الجريمة والمتهم. وما لديك من معلومات.

– إن الأوراق التي عثرنا عليها موضوعة فوق مكتبك يا سيدي ولم تفض بعد. أما المتهم فيدعى أدمون دانت وهو بحار في السفينة فرعون التي تتجر بالقطن بين الإسكندرية وأزمير.

وكان الرجلان قد وصلا في تلك اللحظة إلى باب منزل المدعي العمومي فرأيا رجلاً يذرع الطريق أمام الباب في قلق واضطراب.

وما إن وقع بصر الرجل على القادمين، حتى خف لاستقبالهما. وهتف:

– آه! لقد جئت أخيراً يا سيدي دي فيلفور. وكم أنا سعيد برؤيتك فقد قبضوا على ربان سفينتي فرعون. أنك لا تعرف هذا الشاب يا سيدي كما أعرفه أنا. فهو شاب مخلص. ومستقيم. لا يمكن أن يقدم على التآمر.

فقال دي فيلفور بفتور: إذا كان المتهم بريئاً فسيفرج عنه، أما إذا كان مجرماً فلن يحول شيء دون قيامي بواجبي.

ثم حياه ببرود، ودخل منزله الملاصق لدار الحقانية.

وسار دي فيلفور إلى قاعة متسعة تموج بالضباط والجنود وقد وقف المتهم بينهم خاشعاً صامتاً. ولكن نظراته كانت تنبئ عن القلق والجزع.

ألقى نظرة سريعة على ذلك السجين فأدرك من جبهته العريضة أنه ذكي. ومن عينيه السوداوين الرائعتين المشعتين أنه صادق لا يكذب. ومن انطباق شفته ودقة تقاطيع وجهه أنه صارم قوي الإرادة.

دخل دي فيلفور إحدى الغرف. ثم أمر بإحضار المتهم. فسار أدمون في أثر الحارس وكان لا يزال مصفر الوجه. ولكنه ظل محتفظاً بهدوئه وابتسامته.

وبعد أن سأله المدعي العام عن اسمه وصناعته قال:

– ماذا كنت تفعل عندما ألقي القبض عليك؟

فأجاب أدمون في صوت هادئ ولكنه مؤثر:

– كنت أحتفل بزفافي على فتاة أحبها منذ ثلاث سنوات.

فارتجف المدعي العمومي لهذه المصادفة العجيبة. تلك المصادفة التي يجتمع فيها كل من الشاب والمدعي العمومي على الاحتفال في هذه الليلة بالذات.. الأول بعقد قرانه. والثاني بعقد خطبته.

سأل دي فيلفور:

– إنهم يقولون أن ذلك رأياً مسموعاً في الشئون السياسية؟

فابتسم أدمون ابتسامة حزينة.. وقال في مرارة:

– آرائي السياسية.. للأسف يا سيدي.. إني شديد الخجل لأنه ليس لي رأي على الإطلاق. فأنا لازلت في مقتبل العمر ولم تتكون عندي عوامل الميل السياسي. وكل ما أعرفه عن عواطفي وميولي هو أنني أحب والدي، واحترم مسيو موريل وأعبد مرسيدس.

وكان يتكلم بلهجة تدل على الصدق.. ولم يفت ذلك دي فيلفور وهو الخبير بطبائع المجرمين ونفسياتهم.. فعول على مساعدة الشاب ما أمكن.

قال: هل تعلم أن لك أعداء.. أو على الأقل أن هناك من يحسدك لأنك مرشح لشغل منصب ربان لسفينة كبيرة.. ثم أنك على وشك الاقتران بفتاة حسناء تحبك. وهذان العاملان مجتمعان كافيان لأن يثيرا عليك الأحقاد والضغن.. والعمل على إلحاق الأذى بك.

– قد تكون مصيباً يا سيدي، ولكن إذا كان هناك من يحسدني فإني لا أميل إلى معرفته مخافة أن أحقد عليه وأمقته واجتلب عداوته.

– بل إنك مخطئ في ذلك.. وأنا أميل من أجلك إلى مخالفة القانون.. لأنك شاب نبيل.. وبذلك أعرض عليك الرسالة التي دفعتنا إلى القبض عليك، علك تهتدي إلى معرفة كاتبها.

وقدم إليه رسالة دنجلار فألقى عليها الشاب نظرة سريعة.. ثم أعادها وعلى شفتيه ابتسامة مريرة.. وقال: كلا يا سيدي.. لست أعرف كاتبها. وربما كان ماهراً في تبديل خطه كمهارته في تدبير المكائد. وأنا على كل حال سعيد لوقوعي بين يدي رجل كريم مثلك.. والآن فقط عرفت أن لي أعداء.

– إذن صارحني بجلية الأمر. وثق أنني سأكون لك خير عضد في إظهار براءتك.

فطفق الشاب يحدثه بالحمى التي استولت على (لكلير)، وكيف أنه سلمه حزمة وخطاباً طلب إليه تسليمهما إلى الماريشال برتران في جزيرة ألبا.. وكيف أنه نفذ وصية القبطان، وحاول مقابلة الماريشال؛ ففشل وعندئذ أرسل إليه خاتماً كان الربان الميت

قد زوده به لتسهيل مهمته.. فلم يلبث الماريشال أن استقبله مرحباً ثم عهد إليه بإيصال رسالة أخرى لبعض الأشخاص في باريس.. وكيف أنه كان يرجو أن يتم هذه المهمة عقب زفافه.

قال المدعي:

– عظيم. وإن كنت قد أجرمت فجريمتك أنك تصرفت بغير عقل مدفوعاً بأوامر قبطانك. ولكنني أعدك بأن أطلق سراحك لو أنك سلمتني رسالة الماريشال..

– لقد أخذوها مع أوراقي، وهي أمامك الآن يا سيدي.

فسأل مسيو دي فيلفور: ولمن تلك الرسالة؟

– إنها لمسيو نوراتييه– بشارع كوك هيرون رقم ١٣ بباريس.

ولو أن صاعقة انقضت على دي فيلفور لكان وقعها عليه أهون أثراً من وقع هذه الجملة..

مسيو نوراتييه والده! والده الثائر الجمهوري؟!

وامتدت أصابع المدعي العمومي في حركة عصبية إلى الأوراق التي أمامه وراح يبحث بينها في سرعة ولهفة، حتى عثر بالرسالة مقفلة لم تمتد إليها يد.

سأل في صوت مختلج: هل رأى هذه الرسالة أحد غيرك؟

–كلا يا سيدي.

وفض دي فيلفور الرسالة وقرأها بسرعة. فتجهم وجهه. ورفع عينيه الزائغتين إلى وجه أدمون المضطرب. وقال:

– لقد كنت أود أن أفرج عنك في الحال، ولكني لا أرى بعد هذا الدليل بدا من تأجيل ذلك إلى وقت آخر لن يطول أمده. ولكنك ستظل سجيناً خلاله..

وسترى الآن كيف سأتصرف في ذلك الدليل القوي الذي يبرهن على جرمك؟

قال هذا ونهض إلى الموقد فألقى الرسالة في النيران المتوهجة. وانتظر حتى أتت

عليها. وصيرتها رمادا. ثم قال:

– أصغ إلي يا صديقي. وضع نصيحتي نصب عينيك. أنك ستبقى الليلة في وزارة الحقانية. وقد يتولى أحد غيري التحقيق معك فلا تمسك لسانك عما حدثتني به برمته، ولكن لا تذكر شيئاً عن هذه الرسالة.

– أعدك بذلك يا سيدي. بل واقسم على ذلك..

فقرع دي فيلفور جرساً أمامه. فدخل مدير البوليس، وهمس المدعي في أذنه بضع كلمات. ثم قال لأدمون: اتبع هذا السيد .

فنظر إليه الشاب نظرة شكر ولم يكد يخرج من الغرفة حتى سقطت رأس دي فيلفور في حالة شبيهة بالإغماء. وتمتم قائلاً لنفسه:

– يالله! هل نجوت؟! لو أن مدير البوليس فض هذه الرسالة وعلم ما بها. إذن لأصبحت من الهالكين..

أبي.. أبي.. استظل هكذا عقبة كؤوداً في سبيل مستقبلي وسعادتي.

وفي لحظة برقت أسارير وجهه.. وقال:

– آه.. من يدري. ربما مهدت لي هذه الرسالة السبيل إلى المجد.

ونهض وقدماه لا تقويان على حمله. فاستدعى مركبة انطلقت به إلى منزل خطيبته.

* * *

كانت الساعة الرابعة بعد الظهر. وقد بدأ الظلام يخيم على الكون. وأشار مدير البوليس إلى جنديين فقادا أدمون إلى سجن رطب في بناء وزارة الحقانية.

وظل الشاب نهبة للقلق والعذاب، إلى أن فتح باب سجنه في الساعة العاشرة فتهال وجهه، وأمل في النجاة. ولكن أمله لم يلبث أن خبا حين دخل خمسة من الحراس وفي أيديهم المشاعل، ولم يتمالك شعوره من الذعر وهو يلاحظ ازدياد القوة المرسلة لحراسته.

وقادة الحراس إلى الخارج ثم أمروه بالصعود إلى مركبة كان تقف بالباب انطلقت بهم جميعاً في سرعة عظيمة.

وعندما وقفت المركبة أخيراً. وأمر بالهبوط، رأي أمامه عشرة جنود كانت أسلحتهم تلمع تحت أضواء المشاعل. فذهل واشتد ذعره.

قادوه في صمت إلى الميناء، ثم إلى قارب كان به أحد الضباط. فأشار إلى السجين أن ينزل. ففعل. وتبعه ثلاثة جنود.

وأفلت القارب من موقفه، وراحت المجاذيف تضرب وجه الماء بقوة فشعر أدمون لأول وهلة بسرور لا حد له.. فاستنشق النسيم العليل ملء رئتيه..

ولم يستطع الشاب أن يغالب شعور الفضول الذي استولى عليه في تلك اللحظة، فاقترب من الضابط وراح يتوسل إليه أن يخبره إلى أين هم ذاهبون به.

ولم يتمالك الضابط إزاء توسلاته إلا أن يشبع فضوله وقد أخذته الشفقة به.. فقال: اعلم أن ذلك مخالف للقانون.. ولكن إذا أقسمت بأن تلزم جانب الصمت أخبرتك إلى أين نحن ذاهبون بك.

– اقسم يا سيدي بكل ما هو مقدس.

– إذن فانظر حولك..

فنهض دمون واقفاً وأرسل بصره نحو الجهة التي يشق القارب طريقه إليها فرأى أمامه الصخرة السوداء القاتمة التي شيد فوقها قصر إيف.. فارتد إلى الخلف مذعوراً.. وهتف:

– ياللسماء.. إلى قصر ايف مقبرة الأحياء من المجرمين السياسيين العتاة.

فهز الضابط رأسه مؤمناً وسكت..

وكان اليأس قد استحوذ على قلب الشاب المسكين، وأدرك أنه من الهالكين، فتحفز كالنمر، ووثب إلى البحر، ولكن قبل أن تغادر قدماه حافة القارب أحاطت

بجسمه أربعة سواعد قوية اجتذبته إلى قاع القارب فهوى مغلوباً على أمره..

وسدد الضابط فوهة غدارته إلى جبهة الشاب التعس.. ونظر إليه نظرة صارمة فيها معنى الوعيد.

وهكذا قضي على آخر أمل له في النجاة..

ووصل القارب إلى الشاطئ. وسيق السجين إلى ردهة القصر، وهناك تلقاه أحد الضباط فقاده إلى غرفة صغيرة قذرة خيل لأدمون أن جدرانها مبللة بالدموع..

قال السجان: هنا ستقضي ليلتك حتى يبت المدير في أمرك في الصباح..والآن طاب مساؤك.

ثم وثب إلى الخارج، وأغلق الباب خلفه، فبقى أدمون جامداً في مكانه.

وفي فجر اليوم التالي جاء السجان إلى الغرفة فوجد الشاب واقفاً في نفس المكان الذي تركه فيه ليلة الأمس.. وكانت عيناه مخضلتين بالدمع، والإعياء بادياً على وجهه.

سأل السجان: هل أنت بحاجة إلى شيء؟

– أريد مقابلة المدير.

فهز السجان كتفيه استخفافاً.. وغادر الغرفة. فأتبعه أدمون بصره حتى غاب عن عينيه وحينئذ سقط على الأرض خائر القوى.

وهكذا مر النهار، ولم يتناول أدمون غير جرعة ماء..

وفي صباح اليوم التالي جاءه السجان وهو يقول:

– لعلك الآن أكثر تعقلاً. هلم يا رجل. واطلب ما في مقدوري أن أجيبك إليه..

– أريد مقابلة مدير السجن.

فقال السجان: هذا مستحيل؛ فلم يسبق أن جاء المدير لزيارة سجين ،ولكنك إن تصرفت تصرف العقلاء فإنهم يسمحون لك بالتنزه كل يوم في ساعة معينة، ومن الممكن أن تحين لك فرصة لمقابلة المدير فتعرض عليه شكواك.

– كم من الزمن ينبغي لي أن أنتظر هذه الفرصة؟

– من يدري؟ ربما شهر. أو ثلاثة شهور. وربما سنة..

فصاح أدمون: يا إلهي.! ولكني أريد أن أراه في الحال. أليس إلى ذلك من سبيل؟

– لا يجب أيها المسكين أن يتسلط عليك هذا الأمل المستحيل وإلا أصابك الجنون كما أصاب ذلك الراهب الذي ظل يعرض على المدير مليوناً من الجنيهات كيما يطلق سراحه، وبقي كذلك يحدثه عن المليون كما رآه حتى فقد عقله ونقل إلى قبو مظلم رطب..

فقال أدمون في ضراعة:

– إذن هل تريد أن تربح عشرة جنيهات نظير حمل رسالة معينة؟

فهز السجان رأسه نفياً. وقال:

– ولكني أفقد منصبي إذا افتضح أمري.

– إذن تذكر دائماً أنك رفضت إيصال هذه الرسالة الهامة. وقد أكمن لك يوماً وراء الباب، فإذا دخلت حطمت رأسك بوعاء الماء.

فصاح السجان وهم يرجع القهقرى:

– لا شك أنك معتوه... والأجدر تقييدك بالسلاسل الحديدية وإرسالك إلى القبو.

فتناول أدمون الإناء بسرعة ورفعه بساعده القوي. ففر السجان وصفق الباب بعنف.

وعاد السجان بعد عدة دقائق، ومعه جنديان. وأمر الشاب بأن يتبعهم إلى القبو.

الفصل الخامس

قصد المدعي العام بعد مغادرته دار الحقانية.. إلى منزل خطيبته فلما وصل، كان المدعوون قد انتقلوا إلى المقصف. وهم ينتظرونه بفارغ الصبر.

ولشد ما راعهم اصفرار وجهه، فراحوا يستوضحونه جلية الأمر. ولكنه لاذ بالصمت ولم يزد على قوله أن أمراً هاماً طارئاً قد استدعى رحيله السريع إلى باريس.

وانتحى الشاب بحميه ناحية منعزلة. وقال:

– أصغ إلي يا سيدي.. لقد وقعت أمور هامة.. ونصيحتي إليك إذا كنت تملك شيئاً من السندات المالية، أن تبادر إلى بيعها في الحال.

فرفع الماركيز حاجبيه بدهشة.. وأراد أن يسأل أو يعترض، ولكن دي فيلفور لم يترك له مجالاً للكلام.. فنهض الماركيز إلى منضدة قريبة وحرر رسالة إلى عميله بباريس يأمره ببيع جميع سنداته.. وسلم الرسالة إلى المدعي العام.. فوضعها في جيبه.. وقال:

– أما وقد فرغنا من مسألة السندات، فإني أطلب منك رسالة للملك.

– رسالة للملك؟ أنني لا أجرؤ على الكتابة إليه.. ثم أنني لا أدري ماذا أكتب.

– إذن اطلب إلى الكونت سالفيو أن يكب له هذه الرسالة فإن الأمر جد خطير.. أنني منطلق الآن إلى منزلي لأعد عدتي للسفر، ومن ثم سأعود لأخذ الرسالة.

ونهض دي فيلفور مسرعاً.. ثم ودع القوم وهرول إلى الشارع وانطلق إلى منزله.. وهناك وجد بالباب فتاة حسناء في انتظاره فأدرك أنها لابد أن تكون خطيبة الشاب السجين.. والواقع أنها كانت هي مرسيدس بعينها.. وأقبلت عليه الفتاة حين رأته.. وسألته بخشوع وخضوع عن التهمة المنسوبة إلى أدمون.. فكان يشعر وهي تحدثه كأنه هو المجرم وهي قاضيه.. أجاب:

– إن الشاب الذي تسألينني عنه مجرم.. ولا أستطيع أن أمد إليه يد المساعدة.

ثم قفز إلى الداخل وأغلق الباب في وجه الفتاة.

ولكن الضمير المثقل يفعل بجسم صاحبه فعل السهم المسموم.. فقد وصل دي فيلفور إلى غرفته خائر القوى، وتهالك فوق أقرب مقعد إليه وألقى ببصره حوله، وقد راعه أن تكون الفتاة قد تبعته.

جاءت تسأله عن فتاها ذلك الشاب المسكين البريء الذي قدمه كبش الفداء عن والده. وبذلك هدم سعادته وهناءه بعد أن كان منهما على قد شبر، حقاً.. أنه قام بمهمة الجلاد لا بمهمة القاضي العادل.

ومضت دقائق استعاد دي فيلفور خلالها هدوءه، فنهض إلى أمتعته فحزمها ثم غادر الدار إلى قصر الماركيز دي سان ميزان.

وعلى ذلك فقد وضعت خاتمة أدمون التعس.

* * *

عاد دي فيلفور إلى القصر ،حيث أخذ الرسالة وودع خطيبته ثم انطلق إلى باريس.

أما مرسيدس المسكينة فإنها عادت إلى منزلها وهي في حالة من اليأس القاتل.. وتركت لدموعها العنان.

ولم يقنط مسيو موريل، بل ولم يقعد عن السعي في سبيل إطلاق سراح أدمون المسكين. ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح.

أما كادروس فكان قلقاً مثقل النفس والضمير، فعمد إلى الخمر يذهب بها همومه وقلقه.

ودنجلار وحده هو الذي كان سعيداً. بعد أن تخلص من الشخص الوحيد الذي كان يزاحمه في منصبه. انتقم منه شر انتقام.

جلس لويس الثامن عشر ملك فرنسا في غرفة مكتبه الفاخرة. وبين يديه كتاب فلسفي وقد وقف أمامه رجل أشيب الشعر يناهز الخمسين من عمره ورفع الملك عينيه إلى ذلك الرجل. وسأل:

– ماذا يؤلمك يا دوق بلاكاس؟

– إني واثق يا مولاي أن العاصفة توشك على الهبوب من الجنوب ولكم يسرني لو أن مولاي تكرم بإرسال رجال أكفاء إلى مقاطعة لانجدوك وبروفنس وروفني لتحري الحقيقة.

فلم يجب الملك. وتناول القلم وراح يكتب بضع ملاحظات على هامش الكتاب. واستطرد الدوق: مولاي. إنني في شدة القلق لأن ما يصل إلى أذني ليس مجرد إشاعات. فإني أرسلت منذ أسابيع شخصاً أثق به الثقة كلها على المقاطعات الجنوبية، ولقد كتب إلي بالأمس يقول إن خطراً هائلاً يهدد مولاي وأن الحزب البونابرتي يعمل ليل نهار لعودة نابليون واغتصاب عرش جلالتكم.

فتلاعبت على شفتي الملك ابتسامة ساخرة. وقال:

– ولكن تقرير البارون داندري رئيس البوليس يقول إن كل شيء على ما يرام..

ولكن صبراً هوذا البارون قد حضر بنفسه.

وأحنى البارون رأسه باحترام حتى كادت جبهته تمس ركبتيه.

فقال الملك: يقول الدوق أن جزيرة (ألبا) قد ثارت براكينها فهل هذا صحيح؟ فتقدم البارون عدة خطوات.. وأجاب:

– لقد ضمنت تقريري الذي قدمته لجلالتكم بالأمس جميع ما لدي من المعلومات. وأزيد عليها ما بلغني اليوم من مصدر يوثق به أن المغتصب آخذ في التدهور التدريجي. وعلى وشك أن يجن فهو في بعض الأحيان إما يبكي بحرقة أو يضحك باستغراق شأن المجانين..

فوقف الدوق صامتاً مفكراً، بين رفيقيه الهازئين. فأردف الملك قائلاً:

– ماذا لديك كذلك يا داندري، فإن الدوق يلوح أنه لم يقتنع بعد؟

فقال الدوق بلاكاس: مولاي.. أن أحدنا لابد أن يكون مخطئاً ولما كان من المستحيل أن يخطئ مدير البوليس لأنه المسئول عن سلامة العرش. فإني أرغب في أن يسمح مولاي بمقابلة الشخص الذي أمدني بالمعلومات.

فقال الملك: بكل سرور.. أما أنت يا بارون فاذهب وتقص آخر الأخبار.

فانصرف البارون من الغرفة.. واستأذن الدوق لبضع دقائق عاد على أثرها يتبعه جيرار دي فيلفور المدعي العام..

وكان الشاب معفر الثياب. أشعث الهيئة. فصاح به الملك حالما رآه:

– تقدم يا فيلفور. تقدم.

فسار دي فيلفور ببطء مقترباً من الملك، ثم وقف في انتظار أسئلته.

قال الملك بعد صمت قصير:

– أبلغني الدوق بلاكاس أن لديك ما نقوله يا مسيو دي فيلفور. فتكلم يا سيدي، واسرد كل شيء.

فقال المدعي العمومي: لقد أقبلت يا مولاي إلى باريس على عجل لأني وقفت على مكيدة هائلة تهدد عرش جلالتكم! فإن المغتصب قد أعد ثلاث سفن. ولابد أنه غادر جزيرة ألبا الآن. ولكني لا أعلم أين أمسى. ولا إلى أي مكان وصل. بيد أنني واثق أنه لابد أن يرسو في نابلي أو عند شواطئ (تسكانيا) أو في فرنسا نفسها.

فتجهم وجه الملك وصاح:

– وكيف وقفت على كل هذه المعلومات؟.

– وقفت عليها من رجل من أهل مرسيليا عملت على مراقبته مدة طويلة، ولكني ألقيت القبض عليه في نفس اليوم الذي بدأت فيه رحلتي لمقابلة جلالتكم.

وهذا الرجل، وهو بحار بونابرتي. من المشايعين لنابليون مرخلسة، بسفينته بجزيرة ألبا وقابل الماريشال برتران فزوده هذا برسالة لأحد المغتصبين في باريس. ذهبت مساعي في معرفة شخصيته أو اسمه هباء. وقد أشار الماريشال إلى وجوب إعداد الرأي العام لاستقبال التغيير الخطير الذي سيحدث في القريب العاجل عقب عودة نابليون.

هز الملك رأسه.. وقال: يخيل إلي أن الأمر على غاية الأهمية.

فأردف دي فيلفور: نعم يا مولاي.. ولولا ذلك لما تركت حفلة خطوبتي وأسرعت إلى جلالتكم لأبرهن على إخلاصي لعرشكم السامي.

وفي هذه اللحظة ظهر البارون داندري عند عتبة الباب.. وكان مصفر الوجه، مرتجف الأوصال. فذعر الملك، وصاح في صوت جهوري:

– ماذا حدث يا داندري؟ هل ظهر ما يؤيد مخاوف بلاكاس وأقوال دي فيلفور؟

فقال داندري في صوت متقطع:

– آه يا مولاي.. إنهما على حق في مخاوفهما. فإن المغتصب قد غادر جزيرة ألبا في ٢٨ فبراير.. وووصل في ٣ مارس..

– وصل.. وإلى أين وصل؟

– إلى فرنسا عند خليج جوان على بعد مائتين وخمسين فرسخا من باريس.

فأتى الملك بحركة عنيفة، ونهض واقفاً وهو يقول:

– أبعد أن تتحد جيوش أوربا السبعة وتقهر هذا الشيطان الكورسيكي وأعود أنا فأرقى العرش الذي أبعدت عنه أكثر من خمسة وعشرين عاماً. أبعد ذلك كله. وبعد أن أصل إلى أقصى درجات المجد. أسقط مثل هذه السقطة فتدق عنقي.

وصمت قليلاً. ثم أردف في حنق:

– أيسقط الإنسان بهذه السرعة؟ إني أوثر ألف مرة أن أصعد باختيار سلم المقصلة التي أهرقت عليها دماء أخي عن أن أغادر قصر التويلري قسراً عني.

يجب أن نعمل، ويجب أيضاً أن نعلم ما لم يحدث بعد. تقدم يادي فيلفور وقل للبارون أن الإنسان كان باستطاعته أن يعلم منذ أمد ما غاب عن علمه..

فنظر البارون إلى دي فيلفور بحقد وكراهية، ولم يغب ذلك عن عيني الأخير. وخشي أن يجعل لنفسه عدواً قاهراً قد يدفعه الغيظ للتحقيق مع أدمون دانت ليعلم علاقته بنابليون، وإذ ذاك يفتضح سردي فيلفور وأبيه. ولذلك فإنه قال للملك:

– أرجو مولاي أن يذكر أنني وقفت على ما عرفت بطريق الصدفة ولم أبذل مجهوداً ما.

فنظر إليه البارون نظرة شكر. أثلج لها صدر دي فيلفور.

قال الملك: لست في حاجة إليكم الآن أيها السادة، فكل عملي متوقف على وزير الحربية.

فقال البارون: مولاي. لقد كنت قادماً لأدلي لجلالتكم بخبر حادث شارع سان جاك وما وصلنا بشأنه.

فقال الملك: آه. إذن قل ما عندك فإنه يخيل إلي أننا إذا أمعنا النظر في قضية مقتل الجنرال كويزنل فسنقف على مؤامرة جديدة.

وعند ذكر اسم الجنرال كويزنل، شعر دي فيلفور باضطراب عظيم.

قال البارون: كل الدلائل يا مولاي تذهب إلى أن الجنرال لم ينتحر. ولكنه قتل غدراً. فقد أخبرنا خادمه أن رجلاً مجهولاً جاءه وضرب له موعداً في شارع سان جاك. ولم يره أحد بعد الموعد إلا جثة هامدة. وقد وصف خادم الجنرال أن الرجل المجهول في نحو الخمسين من عمره، قمحي اللون. أسود العينين. قصير الشارب، وكان في صدره وسام اللجيون دونور.

واشتبه رجال البوليس في شخص تجتمع فيه هذه الصفات فتبعوه حتى شارع (لدجوسين) ثم شارع (كوك هيرون) وهناك اختفى الرجل فجأة.

وهنا تنفس دي فيلفور الصعداء.

قال الملك: يجب أن تبحث عن هذا الرجل وتجده يا بارون.

وتحول إلى دي فيلفور وقال:

– لقد برهنت على إخلاصك للعرش. ولن أنسى هذا الإخلاص حتى أجازيك عنه خير الجزاء. أما الآن فإني أقدم لك هذا على أمل أن يذكرني بك فيما بعد.

ومد يده إلى صدره. وأخذ وسام (اللجيون دونور) وقدمه لدى فيلفور. فتقبله هذا وهو دامع العينين لفرط سروره وفخره. وقبله. ثم انحنى ولثم يد الملك..

فقال لويس: والآن عد يا صديقي إلى مقر عملك.

وعندما غادر دي فيلفور القصر الملكي. قصد من فوره إلى فندق "مدريد" حيث تناول طعام الغداء. وكان على وشك الانصراف حين سمع جرس غرفته يقرع. ثم دخل الخادم. وقال: هنا رجل يريد مقابلتك يا سيدي.

فذعر دي فيلفور. وقد أدهشه أن يعلم أحد باسمه.. وهو لم يذكره لأحد قط.

صمت لحظة ثم قال: ما اسمه؟

– لم يذكر اسمه يا سيدي..

– صفه لي.

– أنه يناهز الخمسين من عمره قمحي اللون. أسود العينين. متوسط الشاربين. وفي صدره وسام (اللجيون دونور).

فاصفر وجه دي فيلفور وحاول أن يتكلم. ولكن الباب فتح في هذه اللحظة دخل رجل في الهيئة التي وصفها الخادم.

قال باسما: يالله! هل جرت العادة عندكم يا أهل مرسيليا أن يترك الأبناء آباءهم بالباب ولا يدعونهم للدخول؟

وجلس على مقعد قريب دون استئذان. فأشار جيرار إلى الخادم بالانصراف.

فانصرف.

* * *

صمت نوارتييه حتى رأى الباب يغلق.. ثم قال:

– يخيل إلي أن زيارتي لم تسرك يا عزيزي جيرار؟

– بل بالعكس يا أبي. فأنا شديد السرور. إنما هي المفاجأة التي أدهشتني.

– وأنا لم أكن أقل منك دهشة، فإني أعلم أنك احتفلت بعقد خطبتك في مرسيليا في ٢٨ فبراير، ولكني مع ذلك أراك في باريس في ٣ مارس.

– إني تكبدت مئونة الحضور لأجلك يا والدي. نعم لأجلك وحدك. فهل تعرف مكاناً في شارع سان جاك يجتمع فيه زعماء البونابرتيين؟

– نعم.. منزل نمرة ٥٣ وهذا النادي أنا رئيسه.

– يالله! إن شجاعتك ترعبني يا أبي.

– ولماذا ترتعب يا بني..؟ إن رجلاً فر من باريس إلى بوردو في عربة قش. ووقف وجهاً لوجه أمام روبسبير، ومست المقصلة شعر رأسه ثم خرج فائزاً من ذلك كله لا يمكن أن يقع بسهولة، ولكن تكلم، ماذا تعلم عن نادي سان جاك..؟

– إن الجنرال كويزنل ذهب إلى ذلك النادي.. ولكنه لم يخرج منه حياً. بل وجدت جثته في نهر السين بعد خروجه من منزله بساعة..

– يالله! وممن علمت ذلك؟

– من الملك..

– حسناً.. ثم ماذا؟

– لقد علمت بالخطة التي دبرها نابليون لفراره.. علمتها من رسالة كانت معنونة باسمك ومرسلة إليك من جزيرة ألبا.. ولو أن هذه الرسالة وقعت في يد أي شخص غيري إذن لكنت الآن مقبوضاً عليك.. ولصدر الحكم بإعدامك فوراً رمياً

بالرصاص..

فضحك نوارتييه.. وقال:

– إذن فأنت لم تخش إعدامي رمياً بالرصاص. وإنما خفت ضياع مستقبلك الزاهر..

ثم أردف ببرود وتهكم:

– نعم.. ولكني لم أعد أخشى شيئاً مادمت تظاهرني.. وأما عن حادث الجنرال كويزنل فإليك التفاصيل..

لقد كنا نعتقد أن الجنرال رجل بونابرتي مخلص. ثم أن أحدنا ذهب إليه في فجر ذلك اليوم وطلب إليه حضور اجتماع لنا في شارع سان جاك، وقد تبادلنا جميعاً الرأي في مسألة هامة تتعلق بنابليون إمبراطورنا المحبوب. وفي الطريقة التي نلقاه بها. ثم كيف نخرج الملك والحاشية من قصر التويلري..

وإذ ذاك نهض الجنرال غاضباً، وأعلن أنه مخلص للملك ولا يسمح لنا بالتداول في مثل هذه الشئون..

وهنا أدركنا أن الجنرال خائن، ويجب أن نتخلص منه بأسرع ما يمكن. ولكننا تركناه يخرج سالماً. ولكنه لم يصل إلى منزله، نعم. إنه خرج ولكن يبدو أنه ضل الطريق وذهب إلى نهر السين.

فهل تسمي ذلك قتلاً؟ حقاً إنك تدهشني يادي فيلفور. أرأيتني يوماً من الأيام أقف أمامك وأنت تحاكم رفاق وتحكم عليهم بالموت؟ ثم تقف لتراقب حد المقصلة وهو يهوي على أعناقهم وسمعتني أقول لك أنك ترتكب جريمة قتل؟ كلا. إني لم أقل شيئاً من هذا. ولكني كنت أقول: على رسلك يا سيدي، اقتل كما يحلو لك. ولكن ثق أن ساعتك قريبة وستكون أرهب مما تتصور.

– آه.. إنك تعتمد على عودة نابليون. ولكنه ليس لديه من الأعوان غير أفراد يعدون على الأصابع. وجيوشنا جرارة كما تعلم.

– يا لك من جاهل مغرور، فأنت تبني آمالك على مجرد إشاعات وأنت واثق من أنك واقف على كنه الحقيقة.

ولقد فاتك بعد أن علمت بوجود الإمبراطور في مدينة (كان) بعد نزوله فيها بثلاثة أيام، أين هو الآن؟ وماذا هو فاعل؟ ذلك ما ليس لك به علم.. أنك تقول أن الجنود سيطاردونه.. نعم.. ولكن دون أن يطلق طلق ناري واحد. وستفتح جرينويل وليون أبوابها على مصراعيها لتستقبل ذلك العاهل الكبير مهللة مرحبة. فماذا ترى سيكون في استطاعة جيوشكم أن تفعل وقتئذ؟

وهز كتفيه في استخفاف. ثم وقف وتأهب للانصراف. فأسرع دي فيلفور وحال دونه والباب. وقال: مهلاً يا أبي. ألا تعلم أن البوليس يتعقب قاتل الجنرال. وذلك الرجل أسود الشعر والعينين. قمحي اللون. ذو شارب قصير وعلى صدره وسام اللجيون دونور وفي عنقه رباط رقبة أسود ؟!

– آه. أيعلمون كل ذلك.. حسناً.

قال ذلك وابتسم. ثم نهض فخلع رداءه الأسود. وقلبه، ثم ارتداه وظهرت بطانته الصفراء.. وتقدم من أدوات الزينة التي أعدها فيلفور على إحدى الموائد، فأزال شاربه ثم غير رباط رقبته الأسود بآخر احمر ثم تناول قبعته المثلثة الأركان فغير معالمها.. وهكذا أصبح نوارتييه في أسرع من لمح البصر رجلاً غير الرجل الذي ساق الجنرال كويزنل إلى حتفه في صباح اليوم.

وكان فيلفور يشاهد والده وهو يفعل ذلك وفي عينيه بريق الدهشة والاستغراب.

فقال الأب في تهكم: ثق أنني لن أنسى لك هذا الصنيع، وعما قريب أرده إليك مضاعفاً. والآن عد إلى مرسيليا في سكون. وجزاء لاطاعتك هذا الأمر سنبقيك في منصبك.

ثم غادر المكان.

* * *

كان نوارتييه يتكلم الحق. وحدث ما قاله بسرعة لم يكن أحد يتوقعها، وفر الملك لويس الثامن عشر، ودخل نابليون قصر التويلري ظافراً منتصراً، وهكذا لم ينل دي فيلفور من خدمته للملك غير الشكر، وهو لا يجديه بالطبع شيئاً.. ووسام اللجيون دونور وكان يخفيه خشية أن يثير حوله الريبة والشكوك.

وكاد نابليون أن يفصل جيرار من منصبه لولا أن توسط والده نوارتييه في الأمر.

* * *

وتركت عودة نابليون لمسيو موريل فرصة لطلب الإفراج عن أدمون. فسار توا إلى دي فيلفور. وطلب مقابلته. وقد تصرف المدعي العمومي في تلك المقابلة تصرفاً يدل على الدهاء. وكان أمله عظيماً في عودة الملك، ولذلك فقد رأى ألا يفرج عن أدمون حتى لا يقال أنه تواطأ مع البونابرتيين وأفرج عن الخونة الذين تآمروا على عودة نابليون.

ذلك أنه تجاهل الغرض من زيارة موريل فلما ذكره هذا بأدمون، أطرق برأسه كأنما يستجمع شتات أفكاره، ولكنه كان يخشى التحديق على وجه ذلك الرجل النبيل.وسار إلى مكتبه وفتح أحد أدراجه، ثم أخرج دفتراً كبيراً جعل يقلب صفحاته بسرعة ولكن بحالة هادئة لا تدع مجالاً للريب، ثم قال وهو ينظر في أوراقه:

– ليست لدي معلومات عن هذا الشخص. وكل ما أذكره أنني بعد أن حققت معه أرسلت إلى باريس تقريراً عنه ضممته للأوراق التي عثرت عليها معه.. وبعد أن قبضوا عليه بثمانية أيام نقلوه إلى حيث لا أعلم. ولكني أرجو أن يفرج عنه قريباً ويعود إلى سفينته.

فقال موريل: إن منصبه خال في السفينة. ولكنهم لم يفرجوا عنه حتى الآن.. إن أول واجب على البونابرتيين أن يطلقوا سراح أولئك الذين اضطهدهم أنصار لويس الثامن عشر..

فقال دي فيلفور: إنني أرى أن هذه المسائل من اختصاص مدير البوليس. فلم لا

نقدم إليه التماساً؟ وسأرسل أنا الالتماس مشفوعاً بتوصيتي الخاصة. وحينئذ لابد أن يفرجوا عنه.

ثم تنحى عن مقعده لموريل، وأملي عليه رسالة مؤثرة.

وعندما انصرف موريل من منزل المدعي العمومي كان يعتقد أنه لم تمضي أيام معدودات حتى يطلق سراح أدمون التعس.. ولم يكن يدري أن دي فيلفور خدعه. وضحى بأدمون على مذبح أطماعه وأغراضه.

وتردد موريل على دي فيلفور أكثر من مرة وطالبه بإطلاق سراح أدمون فكان هذا يهدئ روعه ويطمئنه.. حتى جاء ذلك اليوم الذي انتظره دي فيلفور بفارغ الصبر. وهو يوم (ووترلو) الذي هزم فيه نابليون هزيمته المنكرة والتي لم يقم له بعدها قائمة. وقد استيق نابليون إلى جزيرة سانت هيلانه منفياً ذليلاً لا حول له ولا قوة.

أقبل ذلك اليوم المشهود الذي عاد العرش فيه نهائياً إلى وارثه الحقيقي لويس الثامن عشر.. وقد شعر دي فيلفور على الإثر أنه بات مكروهاً مرهوباً في مرسيليا فطلب نقله إلى باريس، فأجيب إلى طلبه، وهناك اقترن بالآنسة رينيه ابنة الماركيز دي سان ميران.

وكان دنجلار قد استقال من خدمة موريل حينما عاد نابليون إلى فرنسا، لأنه خشي أن يطلق سراح أدمون دانت، فيعود إليه ويقابله مقابلة المنتقم من الشخص الذي جلب عليه الخراب، ولذلك فإنه سارع والتحق بخدمة تاجر أسباني..

أما فرناندو فلم يكن يكترث لشيء بقدر ما كان يشعر باختفاء أدمون من سبيله وكان عازماً على قتله إذا خرج من سجنه، ثم يقتل نفسه، ولذلك تجرأ على التزلف لمرسيدس إلا أنها لم تعامله إلا معاملة الأخت المشفقة على أخيها المعتوه.

وكانت الحكومة قد جندت عدداً كبيراً من الشبان لإلحاقهم بالخدمة العسكرية للدفاع عن المملكة وقت الحاجة.. وكان فرناندو بين أولئك الشبان. وقد هاله أن يفارق مرسيدس. ولكنه لم يجد وسيلة للخلاص.

وعندما جاء يوم رحيله قالت له مرسيدس وهي تناوله بندقيته:

– يا صديقي. بل يا أخي الوحيد. يجب ألا تموت حتى لا تتركني بغير عضد في هذا العالم، إذ ماذا عساي أن أفعل إذا افتقدتك أيضاً؟

فاتقدت الحمية في صدر الفتى، وشعر أنه لابد فائز بالفتاة إذا طال غياب أدمون عنها ولذلك فإنه ترك القرية والآمال الكبار تجول في صدره.

واستيق كادروس أيضاً إلى الخدمة العسكرية ولكنه رأى أن يعجل بالزواج كيلا يرسل إلى مكان قصي.

أما الشيخ دانت والد أدمون فإنه عاش بأمل واحد هو قرب عودة وحيده وعزيزه. ولكنه فقد ذلك الأمل عندما نفي نابليون للمرة الأخيرة، ومات حسرة ويأساً وقنوطاً، ميتة تقطع نياط القلوب الرحيمة.. وكان ذلك بعد خمسة شهور من القبض على أدمون!. وفي مثل الساعة التي اعتقل فيها. وقد لفظ ذلك الشيخ المسكين أنفاسه بين ذراعي مرسيدس.

الفصل السادس

وقضى أدمون أيامه في عذاب وهم مقيم، حتى لقد داخلته الشكوك في براءته.وكان ينتهز فرصة مجيء الحارس ليتحدث إليه ملياً، لا لشيء إلا ليسمع صوته مخافة أن يكون قد فقد النطق.

وكان قد أنهك قواه في التفكير في تراحم بني الإنسان وتوادهم، ولكنه وجد أخيراً أن ذلك لا يجديه، فبدأ يبتهل إلى ربه. ولكنه تعب أخيراً من الصلاة والابتهال. ولم يعد يدري ماذا يفعل؟فعاد يفكر في سعادته التي تلاشت في أسرع من لمح البصر دون سبب أو علة واضحة. وكاد يفقد عقله.

وهنا تذكر أن الموت وحده هو الذي يضع حدا لآلامه. ففكر في الانتحار. وارتاح للتفكير فيه.كان ينظر إلى ماضيه بهدوء وإلى مستقبله برعب، فرأى أن يختار نقطة الاتصال بين السعادة والألم. ووجد أنها الموت. وكان قد مر عليه أكثر من أربعة أعوام وهو في السجن حتى مل البقاء، وأنفت نفسه الحياة. وأقسم ليهلكن نفسه بأن يلقي الطعام الذي يؤتى به إليه من النافذة.

وقد بر بقسمه. ومر عليه يومان وهو يلقي الطعام من النافذة. ثم بدأ ينظر إلى قطع الخبز السوداء التي كان يمقتها وتعافها نفسه فيما مضى وكأنها أشهى الأطعمة، وبلغ به الجوع حيناً. ويظل ينظر إلى الخبز ساعة أو أكثر قبل أن يلقيه من النافذة، وكان يدنيه من فمه أحياناً ولكنه يعود فيتذكر يمينه. ويحتقر نفسه لضعفها. ولا يلبث أن يقذف الطعام من النافذة.

وأخيراً جاء اليوم الذي أصبح فيه لفرط ضعفه لا يقوى على النهوض لإلقاء الطعام.

فهو يأكل، ويحنث بيمينه.؟كلا. وألف مرة كلا.

ومر عليه اليوم الثالث والحارس يحسبه قد أصيب بمرض خطير. وعند المساء شعر أدمون بغيبوبة انتقلت به إلى عالم لطيف لا يدرك كنهه.. ورقصت أمام عينيه أضواء تلك الأرض المجهولة التي يقطنها الموت.

وعلى حين فجأة سمع صوتاً غريباً خلف فراش القش الذي يرقد عليه فرفع رأسه لكي يسمع بوضوح. وهو لا يكاد يصدق أذنيه.

خيل إليه أنه صوت خدش قوي لابد ناجماً عن احتكاك أظفار قوية أو آلة حادة تعمل في أحجار الجدار.

وفي تلك اللحظة فقط قفزت إلى مخيلته لفظة (الحرية) وتساءل عما إذا كان هذا الشخص الذي يحفر الجدار صديقاً يسعى لإنقاذه.

وحاول أن يفكر، ولكن قوى التفكير كانت قد تلاشت بتأثير الضعف فرأى أن يعمل على استعادتها. فزحف حتى اقترب من الطعام الذي أتاه به الحارس منذ عدة دقائق. ثم مد يده وتناول وعاء الماء بيدين مرتجفتين ورفعه إلى فمه ولم يلبث أن شعر بالحياة تدب إلى أوصاله.

وهنالك أراد أن يتحقق من أمر الصوت.. فاقترب من الجدار. ودقه ثلاثاً بقوة. فانقطع الصوت في الحال بسرعة السحر..

ومرت بقية النهار. كما مر الليل دون أن يسمع أدمون صوتاً.. فانفرجت أسارير وجهه.. وارتد إليه الأمل قوياً مشرقاً. فقد لاح له أن هناك سجيناً يعمل على الفرار.

وفي صباح اليوم التالي جيء له بالطعام فالتهمه في شراهة ونهم. ثم نهض إلى الجدار فوضع أذنه فوقه.. فشعر به يهتز. وهنا علم أن السجين عدل عن الحفر ولجأ إلى دفع الأحجار وإخراجها بالقوة، فتشجع أدمون وعزم على مساعدة رفيقه السجين.

وعند ذلك وثبت إليه فكرة سريعة.. فنهض إلى الإناء النحاسي ذي المقبض الطويل الخاص بطعامه. واتخذه كسكين لإزالة الملاط، فلما تم له. استعمل المقبض

(كعتلة) لرفع إحدى صخور الجدار الذي يفصل بينه وبين رفيقه.

وفاز أخيراً بإخراج الصخرة بعد أن قضى ساعة ونصف ساعة في هذا العمل الشاق.. واكتفى أدمون بذلك فعاد وأرجع الصخرة كما كانت حتى لا يلاحظ الحارس شيئاً.

* * *

وفي مساء اليوم التالي استأنف أدمون عمله بنشاط ولكنه لم يلبث أن اصطدم بقضيب. وكان لاصطدامه بهذه العقبة أثر سيء في نفسه. صاح في يأس:

– يا إلهي.. رحمة بي.. لقد فتحت لي مصاريع الأمل فجأة.. وأنا ابتهل إليك ألا تحرمني منه في آخر لحظة من لحظاتي وبعد أن أبيت على الموت.

ولشد ما دهش عندما سمع صوتاً أجوف يجيبه بكلمات وكأنها آتية من الأعماق: من ذا الذي يتكلم عن الله وفي مثل هذه الساعة؟

وقف شعر رأس أدمون، ولم يلبث أن خر على ركبتيه، وهو يقول:

– آه.. إنني أسمع صوت إنسان، من أنت يا هذا، استحلفك بالله أن تتكلم.

– ومن تكون أنت؟

– إني سجين تعس. وأدعى أدمون دانت. اتهمت بالتآمر على عودة الإمبراطور وألقي بي في السجن منذ ٢٨ فبراير سنة ١٨١٥.

– عودة الإمبراطور؟ لماذا؟. أليس هو الحاكم في فرنسا الآن؟

– كلا. فهو قد فر إلى جزيرة ألبا، ولكن كم بقي لك هنا حتى أنك تجهل كل هذا؟

– أني هنا منذ سنة ١٨١١

فارتجف أدمون، إن هذا الرجل قضى في السجن أربعة أعوام فوق أعوامه.

وعاد المجهول يقول: أصغ إلي، لا فائدة ترجى من استمرار الحفر مادام ذلك لن

يهيئ لنا سبيل الفرار، فالأجدر بنا أن نكف عنه.

فهتف أدمون في يأس: كلا.. كلا. يجب ألا نقنط، فقد نستطيع بتكاتفنا معاً أن نستنبط وسيلة أخرى للهرب.

فقال الآخر: حسناً، إلى الغد إذن.

* * *

وفي صباح اليوم التالي. وبعد خروج الحارس من غرفة أدمون، سمع هذا دقات ثلاثاً، فحرك الفراش، وركع على الأرض، وقال:

– أهذا أنت؟

فسأل الصوت: هل انصرف الحارس من لدنك ؟

– نعم.. وهو لن يعود قبل المساء.

– إذن فسآتي إليك..

وفي طرفة عين سقط جزء من الجدار. وبرز رأس من ذلك الثقب الكبير..

ثم رأى أدمون كتفين. وظهر بعد ذلك جسم رجل.واحتضن أدمون ذلك الصديق الجديد. وسار به إلى النافذة التي كان ترسل إليه ضوءاً ضئيلاً فرأى أمامه رجلاً نحيلاً أبيض الشعر ينعكس عذابه وألمه فوق صفحة وجهه وفي عينيه المسلوبتي البريق، اللتين يظللهما حاجب كث وأهداب طويلة. ورأى لحيته تتدلى على صدره..

قال الرجل: أظن أنك لا تملك آلة ما؟

– وهل لديك أنت منها شيء؟

– نعم وقد صنعتها جميعاً بنفسي.. صنعت سكيناً ومبراة وقضيباً من الحديد يصلح لرفع الأحجار كالعتلة.. وإليك هذه الأخيرة.

قال هذا وأبرز قضيباً قوياً من الحديد فدهش أدمون ونظر إليه متسائلاً.. فقال الرجل:

– أنه كان مثبتاً في فراشي فانتزعته منه.. وبه استطعت أن أحفر الثغرة التي أمامك.. ولكن دعنا من ذلك.. وهلم بنا نرى المكان الذي تطل عليه النافذة.

وتقدم من النافذة، ثم حمل إليها المنضدة الخشبية، وأمر أدمون بارتقائها.. فلما فعل، وثب المجهول كالقط البري. وقفز إلى كتف أدمون. وأمسك بالقضبان الحديدية. وأطل برأسه من بينها.. ثم لم يلبث أن هز رأسه.. وهتف:

– آه.. هذا ما توقعت.

وعاد فقفز إلى المائدة.. ثم وثب إلى الأرض.. وهو يقول:

– إن هذا الجدار يقود إلى ممشى كبير يسير فيه الحراس الشاكي السلاح بالتناوب، وعلى ذلك فمن المستحيل علينا أن نفر من هنا لأنني رأيت أنبوبة بندقية أحد الحراس.

وتقلص وجه الرحل.. فرمقه أدمون باحترام وإعجاب.. ثم سأل:

– ألا تقول لي الآن من أنت؟

– أنا الراهب فاريا. وإنني هنا منذ سنة ١٨١١.. ولكني كنت في قلعة (فتسترل) قبل الآن. ولما نقلت إلى هذا السجن علمت أن نابليون رزق غلاماً فأسماه ملك روما، وهو لا يزال في مهده، ولم أكن قط انتظر أن أسمع ما قلته لي الآن. من أن نابليون الداهية قد سقط.

– ولكن لماذا سجنت؟

– لأني حلمت في سنة ١٨٠٧ بالخطة التي سيسير عليها نابليون في سنة ١٨١١. ولأني سعيت في توحيد قوة إيطاليا ضد الغازي المنتصر.والآن قد ضاعت إيطالي للأسف. وفشلت كل محاولة في سبيل إنقاذها..

قال الرجل ذلك وأطرق برأسه إلى الأرض.

ولم يفهم أدمون أن هناك من يضحي حياته ومستقبله في سبيل مثل هذه

الأغراض السياسية. فسأل: ألست أنت الراهب الذي يقول عنه الحراس أنه مريض؟

– بل يقولون إنه مجنون.. نعم إن الظهور بمظهر الجنون قد أفادني كثيراً.

– وهل عدلت عن فكرة الفرار؟

– إن الفرار مستحيل.

فغشيت وجه أدمون سحابة من اليأس.. وعاد يفكر.

وأخيراً رفع رأسه وقال:

– لقد خطر لي خاطر.. أن الجدار الذي يفصلنا عن الممشى الذي يسير فيه الحراس لا يزيد في سمكه على الخمسة أمتار. ففي استطاعتنا إذن أن نعود إلى العمل. ونحفر ثغرة في الجدار.. ثم ننتهز غفلة من الحارس فننقض عليه ونقتله ونولي هاربين.

فقال الراهب:

– صبراً يا بني. إنك لا تعلم من أنا.. أن جدران السجن جميعها لا تحول دوني وثقبها.. ولكني لا أستطيع أن أثقب صدر إنسان..

إنك يا بني مازلت صغير السن، تعوزك تجارب الحياة.. أما أنا فقد قرأت خمسة آلاف مجلد كانت في مكتبي في روما. وحفظتها عن ظهر قلب. وخرجت من جميع قراءاتي أن الإنسان مسير وليس بمخير.

فنظر أدمون إلى محدثه نظرة غريبة وقد بدأ يشعر بالإعجاب لهذا الرجل المدهش المقتدر.

واستطرد الراهب:

– لقد صنعت قلما من قطعة عظم استخرجتها من اللحوم التي يقدمونها إلينا، وأما المداد فقد صنعته من (هباب) المدخنة بعد أن أذبته في الماء، وهكذا تراني كتبت مؤلفاً عن طبائع الجنس البشري فوق قميصي، وأودعته خلف المدخنة في انتظار يوم الإفراج لأنشره على الناس.

– يالله! وهل أستطيع أن أرى أعمالك المدهشة؟

– نعم.. وتستطيع أن تراها الآن، فهلم معي.

وسار الراهب متجهاً نحو الثغرة التي حفرها، فتبعه أدمون وهو مأخوذ.

* * *

وأدار أدمون بصره حوله فاحصا مدققاً، فقال الراهب:

– إن الساعة الآن الثانية عشرة والنصف، ولدينا عدة ساعات نقضيها معاً.

فعجب أدمون، وبحث عن الساعة التي عرف منها الراهب الوقت، ولكنه لم يجد شيئاً. فسأل: وكيف عرفت الوقت؟

– أنظر إلى هذا الشعاع المتساقط من النافذة على الأرض والجدران، إني بواسطته أستطيع أن أحدد الوقت بالضبط، والآن تعال معي لأريك مؤلفي.

ومد الراهب يده خلف المدخنة، فأخرج بضعة ملفات من الأقمشة، وكانت كبيرة الحجم، وأشار إلى كتاباته عليها، ثم قال:

– لم أكتب خاتمة المؤلف إلا منذ أسبوع فقط، وقد استغرق الكتاب كل قمصاني ومناديلي، ولو أنهم أطلقوا سراحي لكان لي فيه خير ثمرة، وأوسع شهرة.

لم يكن أدمون يفكر في الكتاب وقتئذ، وإنما كان يفكر في شيء واحد: هل يستطيع هذا الرجل الداهية أن يميط اللثام عن سر الشقاء الذي حاق به واقتاده إلى السجن؟

ولاحظ الراهب استغراق صاحبه.. فقال: فيم تفكر؟

– كنت أفكر أولاً في هذا العقل الكبير الذي أخرج كل هذا.

فقال الراهب: إنك كنت تفكر في شيئين، وقد قلت أولهما فما هو الثاني؟

– نعم كنت أفكر في تاريخ حياتي الحافل.. وسوء الحظ الذي صادفني.. وإنني لا أدري أكان ذلك من فعل القدر أم من فعل البشر وأنا على استعداد للنزول عن

نصف عمري لأعلم ذلك.

– ولكنك قلت أنك بريء مما نسب إليك.

– نعم. وأقسم على ذلك بحياة والدي ومرسيدس اللذين أحبهما من دون العالم جميعاً.

ثم قص أدمون على الراهب قصته منذ عودته إلى مرسيليا.

فقال الراهب: إننا نستطيع أن نفسر حادثتك على ضوء الأطماع البشرية.. ففكر قليلاً.. وانظر من يستفيد من اختفائك؟

فبدأ التفكير على وجه أدمون،ولم يلبث أن قال:

– إن زملائي البحارة لا يحملون لي غير الحب والتقدير. ولو أنهم خيروا لاختاروني رئيساً.. ولكن هناك واحداً اسمه دنجلار. وهو كاتب حسابات السفينة. هذا الرجل يكرهني لأنني تشاجرت معه.. وطلبت إليه أن يبارزني فرفض..

– ولو أنك نصبت قبطاناً.. هل كنت تستبقيه في منصبه؟

– كلا. لأني لاحظت خطأ في حساباته أكثر من مرة.

– هذا حسن. وهل حضر أحد حديثك مع القبطان لكلير عندما عهد إليك بهذه المهمة التي جلبت عليك كل هذا الشقاء.؟ أو انتهى إلى سمع أحد؟

– كلا.. كان باب غرفة القبطان مفتوحا.. ولكن.. آه.. تذكرت أني لاحظت أن دنجلار مر أمام الباب في اللحظة عينها التي سلمني فيها لكلير الرسالة..

– عظيم.. لقد وقعنا على مفتاح السر. وهل رأى أحد الرسالة التي سلمها إليك الماريشال برتران؟

– ربما.. لأنها كانت من كبر الحجم بحيث لبثت محتفظاً بها في يدي حتى عدت إلى السفينة.

– وهل قرأت الرسالة التي سببت القبض عليك؟

– نعم. فقد عرضت علي أثناء التحقيق.

وطفق أدمون يعيد على مسامع الراهب ألفاظ الرسالة التي بعث بها دنجلار وفرناندو إلى النائب العمومي. فلما انتهى من ذلك هز الراهب كتفيه. وقال:

– إذن فالأمر واضح كالشمس.

ونهض الراهب، فأتى بالقلم. وكتب الرسالة التي أعادها عليه أدمون بيده اليسرى على قطعة من القماش..

فاقشعر جسم أدمون ونظر إلى الراهب في هلع وهول وهتف:

– يالله! إن هذا الخط يشبه خط الرسالة. ويكاد أن يكون هو.

– ذلك لأن الرسالة كتبت بيد يسرى. ولقد لاحظت من تجاربي أن الكتابة باليد اليمنى تختلف باختلاف الأشخاص، ولكن الكتابة باليد اليسرى تتشابه تشابهاً يكاد أن يكون تاماً.. والآن لننتقل إلى النقطة الأخرى. فهل هناك من يرى في اقترانك بمرسيدس ضرراً له؟

– نعم شاب كاتالاني يحبها ويدعى فرناندو..

– وهل هناك أية علاقة بين دنجلار وفرناندو؟

– نعم. لقد رأيتهما يحتسيان الخمر معاً يوم أن قدمت إلى مرسيليا ولاحظت أن دنجلار كان يهزل ويضحك بينما كان فرناندو عابساً مقطب الجبين.

– إذن أصغ إلي. لقد دبر لك دنجلار هذه المكيدة ليقصيك عن منصب الربان واتخذ من غيرة فرناندو سبيلاً إلى إشراكه معه في الجريمة.

امتقع وجه أدمون، وارتجفت أوصاله إزاء ذلك الاكتشاف الخطير...

فابتسم الراهب. وسأل: هل لديك ما تريد إماطة اللثام عنه غير ذلك؟

– نعم. أخبرني. لماذا لم يحققوا معي غير مرة واحدة تحقيقاً بسيطاً ثم زجوا بي في السجن؟

فأطرق الراهب قليلاً. ثم عاد فرفع رأسه وسأل:

– هل تعرف اسم المدعي العمومي الذي حقق معك. وهل كان شاباً أم شيخاً؟

– بل شاباً.. واسمه دي فيلفور.

– وهل تغيرت معاملته لك أثناء التحقيق؟

– نعم. عندما قرأ الرسالة التي أحملها من الماريشال برتران.. وبدا عليه إذ ذاك أنه يشفق علي..

– هل أنت واثق أنه تأثر لمصابك؟

– نعم. وقد برهن على ذلك بأن نهض وأحرق أمام عيني تلك الرسالة التي هي الدليل الوحيد على جرمي.

فقال الراهب: هذا عجيب وخارق للعادة، ولكن لمن كانت الرسالة؟

– كان عليها اسم مسيو نوراتييه بباريس شارع كوك هيرون رقم ١٣ فانفجر الراهب ضاحكاً.. ثم قال:

– هل ترى ضوء الشمس؟ إن مسألتك أصبحت أمام عيني أوضح من هذا الضوء.. إذن فأنت تعتقد أيها المسكين أن المدعي قد أخذته الشفقة بك.ألا فاعلم أن نوارتييه هذا هو أبو جيرار دي فيلفور.

ولو أن صاعقة انقضت عند قدمي أدمون لما انتفض كما انتفض عند وقع هذه الكلمات في أذنيه، فطفق يردد وهو كالحالم: أبوه! أبوه!

ثم برقت عيناه، لقد عرف الآن كل شيء، وأدرك لماذا توسل إليه جيرار دي فيلفور ألا يذكر شيئاً عن الرسالة.

* * *

وعندما عاد أدمون إلى سجنه ألقى بنفسه على الأرض، وظل في مكانه غارقاً في ذهوله مستسلماً لخواطره.وبقى كذلك حتى سمع صوت الراهب وهو يدعوه لتناول

طعام العشاء معه.

قال الراهب: إني لشديد الأسف لأني حدثتك فيما أثار حفيظتك وحرك في نفسك عوامل الانتقام.

وكأنما أدرك الرجل أن حديثه يؤلم أدمون، فحول دفة الحديث وانتقل إلى أفق جديد يدل على علو كعبه وسعة إطلاعه، وولد في نفس أدمون شعوراً جديداً من الرغبة في التعليم وزيادة محصوله من الثقافة؛ وصارح الراهب برغبته، فلم يبخل هذا عليه مما أوتي وأجاب رجاءه.

وفي نفس المساء اتفق السجينان على خطة الدرس، فلم تمض ستة شهور حتى أتقن أدمون الانكليزية والاسبانية والألمانية وفي نهاية العام كان أدمون قد صار رجلاً غير الرجل.

وبعد ثلاثة شهور عاد الراهب يتحدث إلى أدمون عن ضرورة الهرب وجلسا يتشاوران في الخطة المثلى.. ولكنهما لم يجدا سبيلاً إلى نيل مأربهما إلا بإحداث فجوة في الجدار المطل على ممشى الحراس.

وأخيراً استقر رأيهما على العمل، ولكن بشرط ألا يلجأ إلى قتل أحد من الحراس إلا للضرورة القصوى.

ومر عام قبل أن يتم المشرع. وانقضت ثلاثة شهور أخرى كان الممر في نهايتها قد حفر تماماً.. ولم يعد أمامهما إلا أن يدفعا الحجر الأخير ويلوذا بالهرب.. ولكنهما أرجأ ذلك إلى ليلة مظلمة عاصفة.

وأقبلت الليلة المنشودة أخيراً وتهيأ أدمون لدفع الحجر.. ولكنه سمع في تلك اللحظة صيحة مؤلمة صادرة من قلب الغرفة. فدار على عقبيه ورأى الراهب يستند إلى أحد الجدران. ووجهه في اصفرار وجوه الموتى.. ذعر أدمون.. وهاله تغير سحنته.

قال الراهب بصوت خافت:

– إني أموت. فأصغ إلي. لقد فاجأني مرض خطير. وستأخذني نوبة بعد دقائق،

فعليك وقتئذ أن ترفع قائمة فراشي الخلفية الملتصقة بالجدار حيث تجد في فراغها المجوف قنينة مملوءة إلى نصفها بسائل أحمر اللون..

ومتى رأيتني جثة هامدة وفي حالة موت طبيعي، ضع السكين بين فكي، وافتح فمي واسكب فيه ثماني أو عشر قطرات من القنينة.

فأسرع أدمون وحمل الراهب بين يديه، وزحف به إلى غرفته حيث مدده فوق الفراش. ولم يكد يفعل ذلك حتى فاجأت النوبة الراهب.. فصاح:

– النجدة.. إني أموت.. إني..

وغشيت وجهه سحابة مظلمة. وخبا بريق عينيه، وذهب لون وجهه وتشنجت أطرافه. وأزبد فمه. فأسرع أدمون وكتم صيحاته بوضع الغطاء فوق فمه. فلما سكنت حركة جسم الراهب، وظهرت عليه جميع دلائل الموت، نفذ أدمون وصية الرجل بحذافيرها.

ومرت ساعة أخرى تمشي الدم بعدها في وجه الراهب وتحركت أهدابه.. ثم فتح عينيه.

قال في صوت خافت: لقد أخبرني الطبيب أن هذه النوبة ستأتيني ثلاث مرات، وأنني قد أموت في المرة الثالثة، وقد أعطاني هذا الدواء لينقذني من النوبتين الأوليين، ولو أنه يشك في فائدته إذا هاجمتني النوبة الثالثة، وها قد انتابتني النوبة الثانية، وبذا أصبح عمري محدوداً، أما أنت فشاب في مقتبل العمر، ومن الظلم الفادح أن أستبقيك إلى جواري، فسارع يا بني بالهرب وليعاونك الله.

ولكن الشاب أبى أن يصغى إلى نصيحته إلا أن يفصل بينهما الموت.

* * *

وفي صباح اليوم التالي عاد أدمون إلى غرفة صديقه، فوجده جالساً في فراشه وفي يده قصاصة ورق كبيرة، وعندما اقترب دانت من الفراش دفع إليه الراهب تلك القصاصة، وقال: اقرأ هذه الرسالة يا صديقي واعلم أنها تحوي كنزي الذي أهبك

الآن نصفه، وإذا مت فهو لك كله، لأنني سأتخذك ابناً لي.

والآن اقرأ هذه الورقة.

وتناول منه أدمون القصاصة تتنازعه عوامل شتى من الشك والحيرة والقلق وألقى عليها نظرة سريعة فرأى نصفها محترقاً، فنشرها بين أصابعه ووجد بها هذه الكلمات:

"يربى على..."

"جنيه إيطالي..."

"الثغرة الثانية..."

"أقدمها له بصفته...

"٢٥ ابريل سنة..."

وعندما رفع أدمون رأسه.. قال الراهب:

– بالطبع. أنت لا تستطيع أن تفهم شيئاً من هذه الكلمات المبتورة، أما أنا فقد قضيت الليالي الطوال أفتش عن الكلمات الضائعة وأبحث عن المعاني الخفية حتى عثرت عليها.

وإليك القصة بحذافيرها.

إنك بلا ريب لا تعلم أنني كنت صديق وكاتم سر الكونت سبادا آخر أمراء العائلة الملقبة بهذا اللقب.

ولم يكن الأمير مثريا، بعكس ما كان يشاع عنه، وكان قصره أشبه بجنة الخلد، فأقمت معه فيه، وكان الأمير يقضي أغلب وقته في مطالعة الكتب والمذكرات العائلية القديمة، حتى أنهك قواه.

وفي أحد الأيام دخلت عليه مكتبه فرأيت بين يديه مجلداً كبيراً عن تاريخ (روما)، وكان يطالع في الفصل الثاني عشر منه وعنوانه (حياة البابا اسكندر السادس أو رودريج بورجيا) فأشار بأصبعه إلى هذا الفصل، وطلب إلي أن أقرأه، ففعلت، وهذا

نصه:

"انتهت حروب روما، وأتم سيزار بورجيا ابن البابا اسكندر السادس فتوحاته العظيمة، ولكنه شعر بالحاجة إلى المال لشراء إيطاليا وضمها إليه، كما شعر بنفس الحاجة ليبرم اتفاقاً مع لويس الثاني عشر ملك فرنسا الذي لا يزال في أوج مجده وعظمته، فرأى البابا أن خير طريقة لهذا الغرض هي أن يعين كردينالين جديدين يكونان من أهل الغنى والثروة ليستطيع أن يبتز منهما المال.

"وبحث البابا وابنه عن الرجلين المنشودين. وأخيراً عثر على ضالته في جان سيجلوري. وسيزار سبادا وهما من ذوي الثراء العريض والغنى الواسع.

"ودفع الرجلان ثلثمائة ألف جنيه ثمناً لمركزيهما عن طيب خاطر".

ذلك يا عزيزي أدمون ما طالعته في ذلك الفصل.. وأظنك استنتجت أن الكونت سبادا لم يكن غير أحد أحفاد سيزار سبادا الذي مر ذكره.

وأقول لك الحق أنني لم أفهم شيئاً مما قرأت. فتطوع الكونت وذكر لي بقية القصة.

قال:

– كان لابد للكردينالين الجديدين من الحضور إلى روما لتسلم زمام عملهما، وليقدما شكرهما للبابا. وقد استقر رأي البابا وابنه على أن يقدما للكردينالين طعاماً مسموماً أثناء وليمة يقيمانها احتفالاً بالكردينالين الجديدين حتى يخلو مكانهما ويعينا فيه آخرين يدفعان مبلغاً جديداً.

ولم يكن سيزار سبادا جاهلاً بدسائس آل بورجيا.. ولذا كتب وصيته قبل الذهاب إلى الوليمة. ثم انطلق إليها بجنان ثابت.

وكم كانت دهشته عندما وجد ابن أخيه جيدو مدعوا معهما. فأدرك أن البابا يريد القضاء عليه وعلى وارثه الوحيد ليستولي على الثروة.ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً.. وبعد أن تناول الجميع الطعام شعر الثلاثة المساكين بالسم يسري في أجسامهم

ولم تنقض ساعة حتى كانوا جثثاً هامدة. وأسرع البابا وابنه إلى قصر الكردينال ولكنهما لم يجدا به غير ألف جنيه ذهبا. وعدة عقود خاصة بالحقول والدور، لا تفيدهما في شيء وإنما أفادت ورثة جيدو. وأما ثروة سيزار سبادا الحقيقية فلم يعثر لها أحد على أثر.

وصمت الراهب قليلاً ريثما يلتقط أنفاسه. ثم عاد يقول:

– ذلك ما سمعته من الكونت، ولم يزد على ذلك حرفاً واحداً لأنه لم يكن يعرف شيئاً عن الكنز الذي تركه سيزار سبادا.

وقد توفي الكونت بعد أسبوع، فترك لي جميع مجلداته وكتبه وأوراقه العائلية وأملاكه.

وحدث سنة ١٨٠٧ أي قبل إلقاء القبض علي ببضعة شهور أنني كنت أقلب في أوراق عائلة سبادا. فصرعني النوم فجأة لكثرة إنهاكي قواي.. وعندما استيقظت كانت الساعة تدق التاسعة والظلام يضرب أطنابه، فنهضت أبحث عن المصباح، ولما لم اهتد إليه مددت أصابعي بين صفحات مجلد كبير كان في يدي، وتناولت ورقة صفراء خالية من الكتابة وأشعلت عود ثقاب أدنيته من الورقة كيما أرى على نورها موضع المصباح.

ولشد ما دهشت عندما وقع بصري على تلك الورقة الصفراء، وكنت أراقب اللهو وهو يبتلعها حين رأيت كتابة خفية قد برزت فيها. فأخمدت اللهب في الحال وقد تأكدت أنها كتبت بذلك المداد السري الذي لا يظهر إلا بفعل الحرارة.

وكانت النار قد التهمت نصفها، وبقي النصف الآخر بين أصابعي وكان ممزقاً إلى شطرين، قرأت أنت أحدهما الآن.. وإليك الآخر فاقرأه..

ودفع إلى أدمون بقصاصة مماثلة للأولى، فتلقفها هذا في دهشة وقرأ:

"اليوم ٢٥ ابريل سنة ١٤٩٨ قد..."

"اسكندر السادس وخوفاً من..."

"اغتصاب ثروتي..."

"و "كاجارا" اللذين توفيا بالسم..."

"وارثي الوحيد أنني..."

"إذ أنه ذهب معي.."

"جزيرة مونت كريستو ففيها جميع ما.."

"وجواهر وأحجار كريمة.."

"والذي.."

"عندما يرفع الصخرة الثانية عشرة.."

"بحافة الجدول المتجه إلى الشرق.."

"وستجد ثغرتين.."

"في نهايته.."

"الوارث الوحيد.."

"٢٥ ابريل سنة .... سيز.."

* * *

قرأ أدمون تلك الورقة بلهفة وفضول. ثم رفع عينيه إلى الراهب متسائلاً.. فقال هذا: بالطبع أنت لم تفهم شيئاً من ذلك، كما لم تفهم حرفاً مما قرأته أولاً. ولكني استطعت أن أتوصل بعد مجهود جبار متواصل إلى معرفة الكلمات التي احترقت.. وإليك هذه الورقة.

وقدم إلى أدمون ورقة ثالثة. وطلب إليه أن يضمها إلى الورقة الثانية ويقرأ. ففعل أدمون كما أشار الراهب، وقرأ ما يلي:

"اليوم ٢٥ ابريل سنة ١٤٩٨ قد دعيت لتناول طعام الغداء عند" "البابا

اسكندر السادس، وخوفاً من أن يكون البابا راغباً في اغتصاب" "ثروتي فيفعل بي مثل ما فعل بالكردينالين (ببنجليو) و(كابارا)" "اللذين توفيا بالسم، لذلك أخبر جيد وسبادا وارثي الوحيد أنني خبأت" "أموالي في مكان أمين يعرفه بنفسه إذ أنه ذهب معي إليه وذلك المكان" "هو جزيرة مونت كريستو ففيها جميع ما أمتلكه من ذهب وفضة" "وجواهر وأحجار كريمة. وهذا الكنز لا يعلم بوجوده أحد سواي" "والذي يربي على مليوني جنيه إيطالي، يجده عندما يرفع الصخرة" "الثانية عشرة من الصخور الكثيرة المحيطة بحافة الجدول المتجه نحو" "الشرق ويسير في سرداب خفي يقود إلى مغارة في الجبل وسيجد" "ثغرتين في هذه المغارة والكنز، موجود في نهاية الثغرة الثانية وتلك" "الأموال أقدمها له بصفته الوارث الوحيد لجميع ما أترك".

٢٥ ابريل سنة ١٤٩٨ "سيزار سبادا"

قال الراهب: ما أيك في هذا يا أدمون؟

– الواقع أنها أغرب قصة سمعتها في حياتي..

– وبوفاة الكونت سبادا انقرضت هذه العائلة الكبيرة من الوجود.

– وتقول أن قيمة الكنز تربى على..

– على المليونين من الجنيهات الإيطالية القديمة.. أو أنها بمعنى آخر تبلغ الثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات الحالية. سواءاً كانت إيطالية أم فرنسية.

فذعر أدمون من فداحة المبلغ..

وهز الراهب رأسه. وبدت على وجهه إمارات الارتياح لإباحته بسره لهذا الشاب المخلص الذي اتخذه لنفسه ولداً.

* * *

وكأنما أرادت الأقدار أن تحرم السجينين كل أمل في النجاة والحياة، لأن الجدار الذي حفراه وعولا على الفرار منه كان بطبيعته متخاذلاً متداعياً فأمر مدير السجن

بإقامة جدار خلفه سنداً له. وبالفعل أقيم ذلك الجدار وبات من المستحيل على أدون اختراقه.

ومرت الأيام واليأس قد تطرق إلى قلب السجينين.

وفي إحدى الليالي نهض أدمون من فراشه، وأرسل بصره الحاد حوله وكأنه يبغي اختراق حجب الظلام.. ثم تصبب العرق فوق جبينه.سمع أنينا عميقاً، وشخصاً يردد اسمه في خفوت وضعف شديد فغمغم مرعوباً: يالله! إنه صديقي الراهب.. ترى ماذا حدث؟

ورفع الصخرة التي تسد الثغرة، وزحف إلى غرفة الراهب. وهناك رآه على ضوء المصباح وهو ممسك بقوائم فراشه، وقد تملكته نوبة تشنج هائلة.

ورأى أدون على سحنة الرجل اصفرار الموت. فطاش عقله واندفع نحو الباب يطلب المعونة فمنعه الراهب. وصاح: صه.. وإلا هلكنا.

أصغ إلي يا بني. لقد بت على شفا الموت. وعما قريب أنفصل عنك إلى الأبد.. وحسبي الآن أن أباركك يا ولدي. وأدعو لك بالنجاح لأموت قرير العين.

إن كنز سبادا موجود وقد رفع الله كل غشاء عن عيني وألهمني قوة التبصر فاستطعت معرفة مكانه، فإذا قدر لك وهربت من هذا السجن اللعين فسارع إلى جزيرة مونت كريستو واستول على الكنز لنفسك فهو لك لأنك أهل لامتلاكه.

وفتح أدمون شفتيه ليتكلم. ولكن الكلمات انحبست في حلقه عندما رأى الراهب يرتجف في شدة. ثم انطفأ على حين غرة البريق الذي كان منبعثاً من عينيه، وتعاقب تردد أنفسه القصيرة المتلاحقة. فصاح بصوت مؤلم وهو يضغط على كف أدمون: الوداع.. الوداع.ثم سقط رأسه..

وكاد الجنون يستولي على أدمون فأسرع بإخراج القنينة من مكانها وفتح فكي الراهب بالسكين ثم سكب بقية السائل في حلقه. وجلس ينتظر.

ومضت الساعات دون أن يتحرك الراهب.. كان قد قضى نحبه وأصبح جثة

باردة هامدة..وكانت الساعة قد بلغت إذ ذاك السادسة صباحاً، وبدأ نور الفجر يبدد ظلام الليل. فخشي أدمون أن يفاجئه الحارس فأطفأ المصباح وعاد إلى غرفته حزيناً مهموماً.

وجاءه الحارس بطعامه. وكان عليه أن يدخل إلى غرفة الراهب بعد مروره بغرفة أدمون، وما هي إلا لحظات حتى سمع أدمون صوت الحارس وهو يستغيث.وبأسرع من لمح البصر امتلأت القاعة بالحراس والجنود. ثم جاء مدير السجن.

وأنصت أدمون لما يدور داخل الغرفة فسمع المدير يأمر الحراس بالذهاب لاستدعاء طبيب السجن.. وساد الصمت فترة طويلة، ثم لم يلبث الطبيب أن حضر. فقال المدير:

– أرجو أن تفحص هذه الجثة.

ففحص الطبيب الجثة. ثم قرر الوفاة.

ولما وثق المدير من موت الراهب قال لأحد الحراس:

– والآن اذهب واحضر "زكيبة".

فهرول الحارس إلى الخارج، وعاد بعد قليل يحمل "الزكيبة".

وتعاون بعض الجنود على إيداع الجثة داخلها، ثم انصرف الجميع من الغرفة ريثما يحين الوقت المناسب لدفنها.

* * *

ورفع أدمون الحجر وأطل بسكون وحذر داخل غرفة الراهب. فلما وثق من خلوها زحف حتى وصل إليها.. رأى جثة الراهب ممددة في وسط الغرفة داخل الزكيبة ووجد أدمون نفسه بعد كل هذا وحيداً كما كان وحيداً من قبل وسيظل كذلك إلى الأبد.

وفجأة لمعت عيناه، وجمد في مكانه كأنما خطر له خاطر سريع. رفع يده إلى

جبهته وضغط عليها بعنف كمن أصيب فجأة بصداع شديد.. ثم تقدم خطوتين. ووقف بالقرب من الفراش.. وغمغم:

– يا إلهي! كيف طرأ على هذا الخاطر؟ من الذي أرسل إلي هذه الفكرة؟ إنك أنت يا إلهي.. ومادام لا يخرج من هذا السجن غير الأموات! فلماذا لا أضع نفسي في مكان الميت؟

وقبل أن يترك لنفسه مجالاً للتفكير، انحنى فوق (الزكيبة) وحل أربطتها بالخنجر الذي صنعه الراهب ضمن ما صنع من أدوات، وأخرج الجثة وحملها إلى غرفته، ووضعها على فراشه.. ثم سحب عليها الغطاء. وقبل أن يغادر المكان طبع على جبهة الراهب قبلة الوداع.

وعاد إلى غرفة الراهب، بعد أن سد الثغرة، ثم خلع ملابسه وألقاها في الموقد وأخفاها تحت حجر كبير. ثم وضع نفسه داخل (الزكيبة). ومعه الخنجر. وربط (الزكيبة) من الداخل.

وانتظر..

ودقت الساعة الثامنة. وسمع أدمون وقع أقدام في الردهة. فكتم أنفاسه، وحاول أن يهدئ من ضربات قلبه الثائر.

وفتح الباب وغمر المكان نور ساطع، ثم اقترب رجلان ببطء ورفعا "الزكيبة" من طرفيها. بينما وقف ثالث يحمل لهما المصباح.

قال أحد الرجلين: هل ربط الثقل؟

– كلا. سأربطه فيما بعد.

فقال أدمون لنفسه: الثقل؟ ترى ماذا يعنيان بذلك؟

ودفع الرجلان "بالزكيبة" إلى النقالة. وشعر بها أدمون تحمل وتتحرك.. وعلى حين فجأة اشتم النسيم البارد العليل الذي حرم منه سنوات طوالا.

وسار الرجلان نحو عشرين متراً، ثم وقفاً.. ووضعا النقالة على الأرض وانحنى أحد الرجلين وطوق قدمي أدمون برباط محكم.

فقال زميله: هل ربط الثقل جيداً؟

– نعم. فهلم بنا.

ولم يفهم أدمون شيئاً من حديث الرجلين، ولكنه اعتصم بالصمت.

وسار الرجلان نحو عشرة أمتار أخرى.. ثم شعر أدمون كأنما يطوحانه يمنة ويسرة.. وإذا به يقذف في القضاء، ويسقط في الهواء كالطائر الجريح.

وفجأة، ارتطم جسمه بالماء، وأحدث صوتاً مزعجاً ثم مرقت الزكيبة نحو القاع بسرعة السهم المنطلق. وشعر أدمون بالماء المثلج يجمد أطرافه.

ذلك البحر هو مقبرة قصر إيف!

* * *

ورغم تلك المفاجأة المخيفة فقد استطاع أدمون أن يحتفظ بثباته وحضور ذهنه. فمد يده اليمنى وشق "الزكيبة" بالخنجر، وأبرز رأسه وذراعيه؛ ثم حرك قدميه بعنف، ولكنه لم يستطع التخلص من الحبل الذي يشد قدميه إلى الحجر الكبير، فقوس ظهره وتناوله بخنجره فقطعه في الوقت الذي كاد فيه أن يختنق ويفقد الرشد. ثم ضرب الماء بقدميه بقوة وظهر فوق السطح، فتنفس ملء رئتيه، ثم غاص مرة أخرى حتى لا يراه الحارسان.

وعند ما عاد إلى سطح الماء كان من الشاطئ على بعد خمسين مترا أو أكثر، فأرسل بصره أمامه فرأى البحر الزاخر المزبد.

ورأى بجانبه قصر إيف منتصباً في لفضاء كشبح أسود يهم بالانقضاض على فريسة جديدة.

ضرب وجه الماء بذراعيه، وسبح بقوة ومهارة.

كان يعرف أن جزيرتي تيبولان ولامير قريبتان من قصر إيف.. فولى وجهه شطريهما، وقد ضاعف قوته حتى اختفى شبح السجن المخيف عن عينيه. وخيل إليه على حين فجأة كأن السماء تزداد حلكة وشعر في الوقت نفسه بشيء يرتطم بركبته، فمد يده يستشعره، ووجد أنه مس الشاطئ.

رفع أدمون رأسه، وسار مترنحاً، ثم ألقى بنفسه فوق أول صخرة صادفها.ولم يلبث أن غرق في نوم عميق. واستيقظ بعد ساعة على صوت انقضاض صاعقة. وكان البرق يخترق الظلام ويمزق الحجب.عاد فاختبأ بين الصخور. وعصفت الريح، فشعر بالجزيرة تهتز تحت قدميه.

وسكنت الرياح أخيراً، فأخذت السحب تتقشع شيئاً فشيئاً، وبرزت النجوم مصفرة ضئيلة فاقدة البريق. وظهر في الأفق من جهة الشرق خط أرجواني أخذ يتزايد شيئاً فشيئاً، ويطارد ظلام السحب، وهب نسيم الفجر عليلاً بليلاً.

كان الصبح قد تنفس وبدأ ضوء النهار يمزق أستار الليل.ارتجف أدمون. كان معنى طلوع النهار، اكتشاف أمره. والبحث عن رجل عار هارب. فكيف السبيل إلى الفرار؟

رفع عينيه إلى السماء يدعو الله أن ينقذه من ورطته. فلما ألقى بهما إلى البحر ثانية رأى سفينة صغيرة تشق طريقها بين أمواجه بهدوء. وقد أدرك من طول خبرته أنها سفينة إيطالية. وعزم على أن يسبح إليها. ولعله لا يعدم وسيلة يذر بها الرماد في عيون راكبيها، وبذلك يستطيع أن يبتعد إلى حيث لا تمتد إليه يد العدالة الظالمة.

واستحسن ذلك الخاطر، فألقى بنفسه في اليم وأخذ يسبح شطر السفينة وكانت تسير في منتصف الطريق بين قصر إيف ومنار بلانييه. فسبح أدمون بكل قواه حتى إذا صار منها على مسافة قريبة رفع نفسه فوق الأمواج وصاح صيحة الاستنجاد التي يطلقها البحارة وقت الكوارث وحينئذ رأى بحارة السفينة يدلون إلى الماء قارباً، وقفز في القارب رجلان.

وكانت قوى أدمون قد تضعضعت وخيل إليه أنه على وشك الإغماء عندما أحس بيد قوية تجتذبه من شعره، ولم يشعر بشيء بعد ذلك. وعندما فتح أدمون عينيه، رفع رأسه ليرى في أي اتجاه تسير السفينة، وعلى أي بعد أصبح قصر غيف.

وكان ربان السفينة يمسك بزجاجة من النبيذ في يده، فسكب جزءاً منها في فم أدمون. ففعل النبيذ بجسمه فعل السحر..

قال الربان بصوت هادئ، وبالفرنسية الرديئة: من أنت؟

فأجاب أدمون بالإيطالية:

– إني بحار من جزيرة مالطا وكنت على ظهر سفينة تحمل نبيذاً وحنطة فحملتنا عاصفة الأمس إلى رأس مورجيون حيث تحطمت سفينتنا على صخور الشاطئ النائية. وأكبر ظني أن بقية رفاقي قد لاقوا حتفهم أما أنا فقد لفظتني الأمواج إلى الشاطئ.

– وهل نستطيع أن نقدم لك أية خدمة؟

– نعم تستطيع أن تتركني في أول ميناء تصل إليها وإن شئت أبقيتني في خدمتك. فأنا بحار حاذق. وبوسعي أن أبرهن لك على أنني لم أكذبك القول.

– إذن إليك الدفة عني، وسر بالسفينة إلى ليجهورن كي تريني مقدرتك.

وكانت السفينة تسير بسرعة نحو جزيرة ريون. ولم يعد بينها وبين الارتطام بصخورها إلا دقائق.. فخف أدمون إلى الدفة، وحولها في مهارة. وحاد بالسفينة عن الصخور.

وأمر الربان بحاراً عجوزاً اسمه جاكومو أن يأتي أدمون بشيء من الطعام والخمر فلما عاد البحار بهما.. ورفع أدمون الكأس إلى شفتيه لم يلبث أن سمع القبطان وهو يصيح: يالله! ترى ماذا حدث في قصر إيف.

فذعر أدمون، وحول بصره إلى قصر إيف. فرأى سحباً كثيفة بيضاء فوق قمته. وفي بضع ثوان دوي صوت طلق مدفع، فتبادل البحارة نظرة استفسار ودهشة.

قال القبطان: ترى ما معنى كل هذا؟

فقال أدمون: لابد أن بعض المسجونين قد هربوا.. وهذا الطلق علامة التحذير.

فنظر إليه القبطان نظرة شك.. غير أن أدمون رفع الكأس إلى شفتيه بهدوء غريب. فتلاشت للحال نظرة الارتياب التي حدجه بها الربان.

وبعد أن تناول أدمون طعامه عاد إلى الدفة.. ولكنه انتهز أول فرصة انفرد بها بجاكومو.. وسأله: في أي عام نحن؟

فنظر إليه البحار في دهشة.. وقال: نحن في سنة ١٨٢٩.

سنة ١٨٢٩ يالله! إذن قد مرت أربعة عشر عاماً منذ ألقي القبض على أدمون. وقد كان إذ ذاك في التاسعة عشرة من عمره، وأصبح الآن في الثالثة والثلاثين.

مرت على شفتيه ابتسامة مريرة. ,ترى ماذا فعلت مرسيدس في كل هذه المدة الطويلة التي اعتقدت بلا ريب أنه مات خلالها؟

وتذكر أعداءه الثلاثة: فرناندو. ودنجلار. ودي فيلفور. ولمعت عيناه بحقد وموجدة.

كان قد هيأ لهم انتقاماً تقشعر منه الأبدان.

* * *

ولم يغب عن أدمون أن السفينة أماليا إنما كانت معدة لتهريب البضائع ولكنه لم يفه بحرف واحد يشير إلى اكتشافه سرها حتى لا يرتاب رفاقه في أمره.ووصلت السفينة أخيراً إلى ليجهورن فرأى أدمون أن يبدل من هيئته ومعالم وجهه كيلا يعرفه أحد. وقصد إلى حانوت حلاق كان يعرفه في شارع سان فرديناند.

وقد نظر الحلاق إلى تلك اللحية الطويلة وذلك الشعر الكثيف بدهشة.. ولكنه بدأ عمله دون أن ينبس ببنت شفة.وبعد أن تمت عملية الحلاقة.. طلب أدمون مرآة.

حين دخل سجن إيف كان شاباً باسم الثغر مستدير الوجه جميل الطلعة ولكن

ملامحه تغيرت الآن تغيرا كلياً، فاستطال وجهه. وتغضنت بشرته وتقوس حاجباه.

ابتسم أدمون حين رأى صورته مطبوعة في المرآة. إن أقرب أصدقائه إليه –إذا كان له أصدقاء مقربون– من الصعب عليه، بل من المستحيل أن يعرفه. كيف لا وهو نفسه لم يعرف صورته.

* * *

وفي إحدى الليالي بينما كان أدمون يتجول مع الربان في شوارع ليجهورن إذ عثرا بربان سفينة أخرى يريد أن ينقل شحنة من السجاجيد والأبسطة التي تحملها سفينته إلى فرنسا.. ليعود من ليجهورن بنبيذ وتبغ.. فقبل قبطان (أماليا) أن يقوم بهذه المهمة واتفقا على أن يتم نقل الشحنة إلى سفينة أدمون في جزيرة مونت كريستو.

* * *

قر الرأي على ذلك فكان أدمون أن ينفجر ضاحكاً لفرط سروره لهذه المصادفة الغريبة. وقد عزم القبطان على أن يسير في مساء اليوم التالي. فقضى الشاب ليلته الأولى في قلق وانتظار.

وفي الصباح وضع أدمون خطته. وكان له من السلطان على رفاقه كأنه هو صاحب السفينة. فعول على استخدام هذا السلطان لتحقيق مآربه.

* * *

وتحركت السفينة أخيراً باسم الله مجراها ومرساها. فعرض أدمون على زملائه أن يذهبوا للنوم ويبقى هو لإدارة السفينة.وكان له من ذلك مآرب.

وظهرت جزيرة مونت كريستو في الأفق أخيراً فرقص قلب أدمون بين ضلوعه.. فإذا انتصف الليل رست السفينة بشاطئ الجزيرة. وكان الليل مظلماً حالكاً. ولكن القمر ما لبث أن توسط قبة السماء وأرسل أشعته الفضية على الكون. وأقبلت السفينة الثانية بعد قليل. وأفرغت شحنتها في السفينة إماليا.

وفي صباح اليوم التالي أخذ أدمون بندقيته وقفز إلى صخور الجزيرة بعد أن أعرب عن رغبته في اصطياد الماعز البري. وقد أصر جاكومو على مرافقة أدمون فلم يجرؤ هذا على الرفض مخافة أن يثير حوله الشكوك والريب.

وتصادف لحسن حظ الشاب أن اصطاد حيواناً برياً. فأرسل جاكومو به إلى السفينة وبقي هو وحيداً، فتقدم إلى الأمام. وهو يتلفت حوله بين الفينة والفينة على سبيل الحذر والحرص. وأخذ الطريق في الارتفاع فتسلقه بمهارة حتى بات من الأرض على ارتفاع ألف قدم.. وعند ذلك استطاع أن يرى جاكومو ورفاقه وهم منهمكون في شي الشاة البرية في السفينة.

ووجد أدمون لنفسه بين الصخور طريقاً ضيقاً حفرته السيول الجارفة فسار به وهو يعتقد أنه سيقوده إلى المغائر.

وظلت عيناه تتفحصان ما حوله.. فرأى فجأة على بعض الصخور علامات كأنها تشير إلى طريق خاص.

ولكن تلك العلامات اختفت فجأة كما ظهرت. وقد تخلل الطريق بعض العشب والأغصان. فجعل أدمون يزيلها وهو جاد في تقدمه حتى عاد فرأى تلك العلامات مرة أخرى فتبعها.. وكانت تلك الإشارات محفورة بطريقة خاصة متساوقة وعلى مسافات متناسبة. فخفق قلبه..

تساءل: هل من الممكن أن يكون الكردينال سبادا هو الذي حفر تلك العلامات بنفسه حتى تقيد وارثه الوحيد. وتدله على الطريق المؤدي إلى الكنز؟

وتابع أدمون طريقه ولكنه لم يكد يتقدم نحو عشرين خطوة حتى ارتطم بصخور شم وفقد كل أثر للعلامات. فخطر له أنه وصل إلى أول الطريق وليس إلى آخره.

وفي هذه اللحظة دوى طلق ناري. فأدرك أدمون أن زملاءه يدعونه لتناول الطعام إذ كان ذلك هو العلامة المتفق عليها بينه وبينهم.

عاد أدراجه وراح يقفز بين الصخور في الطريق المؤدي إلى الشاطئ وكان زملاؤه

يرقبونه وهو يثب بقوة وسرعة، ثم رأوه فجأة يفقد توازنه ويسقط ثم يختفي. هبوا جميعاً لنجدته. وكان جاكومو أول من وصل إليه. فوجده ملقى بين الصخور والدم يسيل من جرح في رأسه وهو في حالة شبيهة بالإغماء. وكان قد سقط من علو خمس عشرة قدماً. سكبوا في فمه بعض النبيذ فأفاق.. وعندما حاول كاكومو أن يساعده على النهوض صاحب وتأوه من فرط الألم.

ولما لم يستطع النهوض عرض عليهم أن يتركوه ويرحلوا.. على أن يعودوا إليه بعد أول رحلة فيكون قد استرد قوته.. وشفي من آلامه. فيرافقهم.

بيد أن القبطان أبى أن يتركه. وقرر تأجيل رحيلهم إلى اليوم التالي ولكن أدمون أصر على رأيه وقال أنه يجب أن يقاسي وحده جزاء تهوره.. ورجاهم في أن يتركوا له بعض المؤن وبندقية وشيئاً من البارود يدفع بها عن نفسه، ضد الوحوش والهوام كما طلب فأسا لاقتطاع الأشجار وبناء كوخ صغير يقيم فيه متى شفى. وريثما يعودون.

فساد الصمت بين البحارة وأخيراً تكلم جاكومو.. فعرض على الشاب أن يبقى إلى جانبه للاعتناء به. ولكن أدمون رفض هذا العرض أيضاً شاكراً.

ولما رأى القراصنة أن الشاب مصر على البقاء وحده، نقلوا إليه ما طلب، ثم ودعوه آسفين وعادوا إلى سفينتهم.وظل أدمون يرقبهم حتى أقلعت السفينة.. وغابت عن عينيه.. فوثب واقفاً وأسرع إلى الصخرة التي فقد عندها أثر العلامات الخفية.

الفصل السابع

ارتفعت الشمس في كبد السماء، وخرجت الهوام من جحورها.. والطيور من أوكارها.. تستمتع بالطبيعة الساحرة وبدأ النسيم يداعب أوراق الكافور وأغصان الزيتون، ونشط الماعز البري.. وابتدأ يشارك الطبيعة مرحها. فراح يقفز هنا وهناك.

وجعل أدمون ينتقل فوق الصخور بحذر خيفة أن تقع له في هذه المرة حادثة حقيقية غير التي دبرها. وخدع بها القوم ليبقى وحيداً في الجزيرة. وبحث عن الطريق الذي فقد عنده أثر العلامات حتى اهتدى إليه. وجعل يتأثر العلامات من جديد.

استمر أدمون في سيره حتى انتهى إلى صخرة كبيرة حالت دون استمراره في السير.. وقد لاحظ في الوقت نفسه أن الإشارات الخفية قد انتهت عند حافة تلك الصخرة.

إذن فهذه الصخرة هي مفتاح السير بغير شك. وتناول الفأس وضرب به الحجر بكل قوته.. فدوي لتلك الصدمة رنين عجيب برقت لدى سماعه عينا أدمون.

كان الحجر أجوف.. ولكنه أدرك أن من العبث أن يحاول تحطيمه أو زحزحته من مكانه.. فكيف السبيل إلى إزالته؟

أجال الطرف حوله فوقع بصره على الإناء المملوء بالبارود، فابتسم.خطرت له فكرة جهنمية، فنهض لفوره، واعمل فأسه في حافة الصخرة. ثم أفرغ البارود في الثغرة التي أحدثها.. ثم صنع من منديله خطياً مستطيلاً رش عليه بعض البارود. وأوصل طرفه بالثغرة ثم أشعل الطرف الآخر ووثب إلى الخلف.

وجعلت النار تلتهم الخيط بسرعة مدهشة. وفي لمح البصر بلغت البارود، فانفجر انفجاراً هائلاً اهتزت له جوانب الجزيرة.. وتفتت الصخرة الكبيرة، وأصبحت

أثراً بعد عين.

وظهرت هوة مظلمة سحيقة اندفعت منها طائفة من الهوام الصغيرة خرج في إثرها ثعبان هائل انساب بسرعة المياه المتدفقة ولم يلبث أن اختفى في الدغل.

وأطل أدمون داخل الهوة. فوجد في نهايتها صخرة ثانية. فوثب إليها. ووقع بصره على حلقة في وسطها. فلمعت عيناه وبدرت من شفتيه صيحة تدل على الفوز اجتذب الحلقة. فوثبت الصخرة معه بسرعة. وبدت ثغرة أخرى مستديرة عميقة تقود إلى أسفل الهوة بسلم صخري..ونزل السلم بسكون وتؤدة. فلفح وجهه هواء بارد مثقل بالرطوبة.

ووصل إلى أرض المغارة. وكانت عيناه قد الفتا الظلام. فتبين الجدران على الضوء الضعيف الذي سقط من الثغرة المفتوحة.

وهنا تذكر صيغة الوصية التي حفظها عن ظهر قلب. قال في نفسه:

"من أقصى الركن الكائن في الفتحة الثانية".

إنه مر فقط من الفتحة الأولى. إذن يجب أن تكون هناك فتحة ثانية..

نظر حوله. وجعل يطرق الجدران الجرانيتية بفأسه، حتى وقف لدى جزء منها دل رنينه على أن ما وراءه أجوف. رفع فأسه بيديه القويتين. وهوى على الجدار بعنف. فغاصت الفأس.اطمأن. فجلس القرفصاء ليجفف العرق عن جبينه. ثم نهض واقفاً وأعمل فأسه في الجدار من جديد من تداعي باب الثغرة بأجمعه.

ودخل. كان الظلام حالكاً. ولكنه تبين أن المغارة خالية، قال لنفسه "إذا كان للكنز وجود حقاً فلابد أنه مدفون في جوف الأرض. وفي ذلك الركن المظلم بالذات..".

ضرب الأرض بفأسه بقوة. وعند الضربة الخامسة أو السادسة اصطدم الفأس بجسم صلب كالحديد. وكان لذلك الرنين الجديد في قلب أدمون ما لا يمكن أن يحدثه رنين أجراس الخطر أو الموت من التأثير في قلبه. وأسرع إلى الخارج واقتلع غصنا

يابساً، وأشعله ثم عاد به إلى القبو الثاني. وغرس مشعله في الأرض. وعاد إلى الحفر..

وأخيراً.. أخرج الصندوق المخبأ..

كان في وسط الصندوق قفل قد نهشه الصدأ. وفي غطائه قطعة فضية رأى عليها أدمون رسم سيفين متقاطعين هما شعار آل سبادا كما أنبأه بذلك الراهب. ونهض أدمون إلى بندقيته وحشاها. ووضعها بجانبه استعداداً للطوارئ. ثم أغمض عينيه ليستجمع أفكاره المشتتة.. وعاد إلى عمله فوضع مقبض الفأس بين حافة الصندوق وغطائه. وضغط على مقبض الفأس فانفتح الصندوق.

وترنح أدمون كالثمل حالماً وقع بصره على الأصفر الرنان. كان الصندوق مقسماً إلى ثلاثة أقسام. بالأول كمية هائلة من النقود الذهبية. وبالثاني سبائك من الذهب الخام. وبالثالث طائفة من المجوهرات والأحجار الكريمة من ماس وياقوت ولؤلؤ.

انقض على الأحجار الكريمة كالمجنون، وطفق يقلبها بين أصابعه. وقد أذهله بريقها. ومن ثم اندفع إلى الخارج كالمعتوه. وجلس على صخرة كبيرة وأجال بصره حوله. كان وحيداً مع ذلك الكنز العظيم الذي أصبح له وحده بلا شريك أو منافس.

جثا على ركبتيه. وضم يديه أمام صدره. ورفع عينيه إلى السماء. وردد صلاة حارة قصيرة. شعر على أثرها بهدوء نفسي.

إنه أصبح ذا ثروة كبيرة.

ونهض إلى الصندوق فملأ قبضته عشر مرات من الجواهر وأودعها جيوبه حتى انتفخت.

* * *

وأقبل الليل، وخشي أدمون أن يفاجأ وهو داخل المغارة، فصعد إلى سطح الجزيرة وبندقيته في يده.

والتهم بعض قطع البسكويت. ثم دحرج حجراً كبيراً فأوصد به مدخل القبو..

وتمدد فوق هذا الحجر. فغطاه بجسده ونام نوماً هادئاً.

وفي اليوم السادس عاد القرصان.. فزحف أدمون نحوهم وعندما سألوه عن حاله أجاب بأنه على خير حال ولو أن الألم لم يفارقه.وقد سارت السفينة (أماليا) عائدة ببحارتها وبينهم أدمون إلى ميناء ليجهورن.

وفي اليوم التالي ابتاع أدمون قارباً كبيراً قدمه للبحار جاكومو، ونفحه عشرين فرنكا وأخبره أن القارب والمبلغ المذكور من نصيبه إذا هو ذهب إلى مرسيليا وسأل عن شيخ كهل يدعى لويس دانت يقطن حي (بلهان) وعن فتاة تدعى مرسيدس تقطن قرية (الكاتالانيين).

وفي اليوم التالي أبحر جاكومو قاصداً مرسيليا بعد أن تواعد مع أدمون على اللقاء في جزيرة مونت كريستو.. وفي اليوم نفسه رحل أدمون بعد أن ودع رفاقه. وانصرف دون أن يعلم أحد بمقصده.

ولكنه سافر إلى جنوا، وهناك رأى يختاً جميلاً صنع خصيصاً لأحد أغنياء الانجليز. وقد أعجب أدمون بذلك اليخت فدفع لصاحبه ضعف ثمنه، واستولى عليه.وطلب أدمون من صانع اليخت أن يشيد له فيه غرفة سرية تفتح بزر خاص.. فلما تم له ذلك. استقل اليخت في مساء اليوم التالي وأقلع به بمفرده.

وقد وصل أدمون إلى جزيرة مونت كريستو في مساء اليوم التالي. فبدأ في الحال بنقل كنزه إلى الغرفة السرية التي صنعها في اليخت خصيصاً لهذا الغرض.ومكث أدمون في الجزيرة أسبوعاً عرف في خلاله كل مسالك الجزيرة ومفاوزها.

وفي اليوم الثامن أقبل جاكومو يحمل أخباراً سيئة عن الشخصين العزيزين اللذين تساءل عنهما أدمون.. فلويس دانت قد مات.. ومرسيدس قد اختفت.

وقد استمع أدمون إلى الخبر بقلب ثابت ووجه هادئ ونفس ساكنة.

ورحل أدمون في اليوم التالي إلى مرسيليا. وسار في تلك المدينة العظيمة وقلبه يخفق بشدة عند كل خطوة يخطوها، وقد عادت إليه كل ذكريات الطفولة والشباب.

ووصل أخيراً إلى المنزل الذي كان يقطنه والده.. ورفع بصره فرأى آثار شجيرات (اللبلاب) قد امحت.

استند أدمون على جذع شجرة في مواجهة الباب وطفق يحدق البصر في المنزل الحقير. وتدحرجت على خديه دمعتان.وكر راجعاً من حيث أتى.. ولكنه مر بالمنزل الذي كان كادروس يقطنه فطرقه وسأل عن صديقه القديم.. فأنبأه البواب بأن الرجل قد ساءت حاله، وذهب عنه غناه. وافتتح لنفسه حانة حقيرة في طريق (بوكير).

وسأل أدمون أيضاً عن اسم صاحب المنزل.. ولما دله البواب عليه تقدم إليه باسم اللورد ويلمور وعرض عليه أن يشتري المنزل بمبلغ ٢٥ ألف فرنك.وكان من الطبيعي أن يقبل الرجل العرض، فالمنزل لا يساوي نصف هذه القيمة.

وفي نفس اليوم صعد البواب إلى العروسين الشابين اللذين يحتلان غرفة لويس دانت وأبلغهما أن ملكية المنزل قد انتقلت إلى اللورد ويلمور، وأنه يخيرهما بين ترك الغرفة التي يقطنانها إلى بيت آخر يستأجره لهما. أو ينتقلان إلى أي قسم آخر في المنزل وليس عليهما في كلا الحالين أن يدفعا أكثر مما اعتادا دفعه..

وقد دهش العروسان لذلك.. ولكنهما لم يجدا بدا من النزول على رغبة المالك الجديد.

الفصل الثامن

وقف جسبار كادروس أمام باب حانته الحقيرة في طريق اكس بين بوكير وبلجارد، بقلب مثقل.. ونفس مهمومة. كانت قد مضت عليه أيام لم يزر حانته خلالها زائر ،وكان ينظر بحزن إلى دجاجاته وهي تلتقط الحشائش.. وإذ ذاك وصل إلى أذنيه صوت زوجته وهي تدعوه إليها. فترك موقفه واخترق الحانة وذهب ملبياً نداءها.

ولو أن كادروس بقي دقيقة أخرى لرأى فارساً ينهب الأرض بجواده قاصداً إليه.وكان الجواد بدينا يدل على اعتناء صاحبه به.. وراكبه قسيسا يرتدي ثوبا أسود وقبعة مثلثة الأركان.

وترجل القسيس عند باب الحانة. وشد عنان الجواد إلى النافذة ثم تقدم إلى الحانة وهو يجفف العرق المتصبب على جبينه بمنديل أحمر.

وطرق القسيس الباب بمقبض السوط. وإذ ذاك سمع وقع أقدام ثقيلة ثم فتح الباب. وبرز رأس كادروس.

قال كادروس وهو ينحني احتراماً للزائر:

– تفضل يا مولاي على الرحب والسعة..

حدق القسيس ببصره في وجه كادروس وظل لحظة كذلك.. ثم قال في صوت هادئ:

– هل أنت مسيو جسبار كادروس الذي كان يعمل خائطا ويقيم في شارع بلهان بالمنزل رقم ٤.

فذعر كادروس. وقد أدهشه هذا السؤال، وأجاب بصوت أجوف:

– نعم يا سيدي.. هو ما تقول، ولكنني اضطرت إلى الخروج من مرسيليا بعد أن ضاقت في وجهي سبل الرزق، وكأنما أراد أهلها أن يقتصدوا في الثياب فأضربوا عن اللبس.

فسأل القسيس وهو يجلس فوق أحد المقاعد: هل تقيم وحدك في هذا المكان؟

– نعم يا سيدي.. أو أكاد أكون كذلك، مع أني متزوج.

– آه.. إذن أنت متزوج؟

فتأوه كادروس وقال: نعم يا سيدي، ولكني فقير، واحسرتاه، والإنسان لا يشعر بالسعادة إلا إذا كان ذا ضمير حي، ونفس طيبة، إلى جانب ثروة كبيرة موفورة.

فرفع إليه القسيس عينين حادتي البصر.. ثم هز رأسه مؤمناً. وقال:

– أصغ إلي.. إنني إنما قدمت إليك لأمر هام.. ولكني أريد أولاً أن استوثق من أنك عين الشخص الذي أبحث عنه.

وصمت القسيس لحظة.. ثم استطرد:

– هل تعرف بحاراً شاباً يدعى أدمون دانت؟

– دانت؟ كيف لا أعرفه؟ مسكين أدمون.. إنه كان من خيرة أصدقائي.. ولكن ماذا حدث لهذا المسكين؟ هل لا يزال على قيد الحياة؟

– إنه مات في السجن ميتة شنيعة. مات كما يموت أشقى المجرمين.

فاصفر وجه كادروس وبدا عليه التأثر الشديد.. ورأى القسيس دمعة تتدحرج فوق وجنة الرجل.

وغمغم كادروس قائلاً: مسكين ذلك الشاب.. حقاً يا سيدي.. إن العالم مملوء بالشرور.. ومن نكد الدنيا أن يجني ذو الخلق الكريم والنفس الطيبة الآبية ما يزرعه المفسدون.. في حين أن هؤلاء يجنون أطيب الثمر وتنهال عليهم الطيبات والخيرات. ولو أنصفت السماء لأرسلت إلى الأرض مطراً من لهيب متفجر.. أو شواظاً من نار

لتضع حداً لهذه الدار المنحوسة المشئومة.

فقال الراهب:

– يخيل إلي أنك كنت صديقاً لذلك الشاب التعس بالمعنى الصحيح.. والآن أصغ إلي.. لقد دعاني مدير السجن لأتلقى اعترافه الأخير وهو على فراش الموت.. ومن الغريب أن يقسم المسكين في آخر لحظاته على أنه يجهل حتى الظروف التي من أجلها ألقى به في أعماق السجن.

فغمغم كادروس: ذلك هو الواقع. فقد كان من المستحيل أن يعرف السبب الحقيقي.

فقال الراهب وهو لا يزال يحدق في وجه كادروس المصفر:

– ولقد طلب إلى ذلك الشاب بعد اعترافه أن أحقق قضيته وأزيل التهم والشكوك التي أحاطت باسمه.

وصمت لحظة.. ثم أردف:

– كان لادمون رفيق في سجنه، وهو رجل انجليزي غني. وكان ذلك الانجليزي شديد العطف على أدمون لأنه عنى به في وقت مرض فيه في السجن.. وعندما حان الوقت لإطلاق سراح ذلك الانجليزي طلب إلى مدير السجن أن يسمح له بتوديع رفيقه، فأجابه المدير إلى طلبه. ولما اجتمع الرفيقان، قدم الانجليزي المذكور ولأدمون ماسة كبيرة تعد ثروة، كدليل على شكره وإخلاصه، فتقبلها أدمون شاكراً.

قال القس ذلك وأخرج من جيبه علبة صغيرة مكسوة بالجلد الأسود فلما رفع غطاءها لمع بداخلها خاتم ذهبي ثمين تحليه ماسة كبيرة يخطف سناها الأبصار.

قال كادروس وهو يغص بريقه: إن ثمن هذه الماسة يربي على الخمسين ألف فرنك.

واستطرد القس: كان أدمون يحتضر عندما دفع إلي بهذه الماسة وأوصاني بتحقيق

رجائه في بيعها.. وتوزيع ثمنها على خمسة أشخاص قال أنهم أحب الناس إليه. وسوف يحزنهم موته أشد الحزن. وأحد هؤلاء الخمسة يدعى كادروس. والثاني دنجلار والثالث اسمه فرناندو ولو أنه كان يزاحمه في حب فتاة تدعى مرسيدس كان أدمون قد خطبها لنفسه.. والخامس توفي وهو والد أدمون.

فقال كادروس بصوت يرتجف من التأثر:

– وا أسفاه يا سيدي. حقاً أن هذا الشيخ البائس قد توفي. وإن شئت حدثتك بقصته إذ كنت أقيم معه في منزل واحد.مسكين ذلك الوالد التعس أنه قضى بعد ذهاب ولده بخمسة شهور. وقد قرر الأطباء أنه مات بالحمى القرمزية. ولكني أؤكد لك أنه مات جوعاً.

فصاح القس وهو يهتز في مقعده بعنف:

– جوعاً!! يالله!! إن أشر الحيوانات لا تموت جوعاً.

– لقد هجره الجميع. وتنكر له الأصدقاء. إلا مسيو موريل ومرسيدس.. وصديقها فرناندو. ولو أن نفس الشيخ العجوز لم تكن لتطيب لهذا الأخير الذي كان يعتبره أدموه صديقاً له.

– إذن ففرناندو لم يكن مخلصاً.

وقبل أن يتمكن كادروس من الإجابة. سمع الرجلان صوتاً ضعيفاً أشبه بالأنين يقول:

–لم هذا اللجاج!!

فرفع القسيس رأسه ورأى على الدرج امرأة هزيلة مصفرة الوجه قد جلست تنصت في سكون. فصاح بها كادروس:

– كفى عن ثرثرتك أيتها المرأة العليلة.

وأخرج القسيس الماسة من جيبه ثانية. وقال:

– إذن فثمن هذه الماسة سيقسم بينكم أنتم الأربعة.. أنت وفرناندو ودنجلار ومرسيدس.

فقال كادروس وقد لعب به الجشع:

– إن فرناندو ودنجلار من كبار الأغنياء يا سيدي، وثمن هذه الماسة لا يوازي قطرة من محيط ثروتهما.. أضف إلى هذا..

وكف عن الكلام.. فغمغمت كاركونيت زوجة كادروس:

– أولئك الذين يوقعون بالإنسان لا يجب أن يسميهم أصدقاء.

وتشجع كادروس. وقال:

– نعم.. نعم.. ومن الجهل الفاضح أن تقدم لهم ثمن الجريمة.

فقال القسيس: وكيف يكون جهلاً مني وأنت الذي تدعني أقدم لهم ثمن الجريمة. إنك لا تريد أن تتكلم.

ونهض واقفاً، وتهيأ للانصراف. فذعر جسبار وزوجته.. وأسرعا بالحيلولة دون الراهب والباب. وقال كادروس:

– سأذكر لك الحقيقة بحذافيرها يا سيدي.

– ذلك خير لك.

وجلس القسيس في ركن يستطيع منه بسهولة أن يراقب حركات محدثه ثم ضم يديه إلى صدره بعنف، وأرهف السمع.

* * *

قال كادروس مستهلاً حديثه:

– قبل أن أبدأ في سرد القصة، أرجو أن تعدني أن يكون ما سأفضي به إليك سراً بيني وبينك، لأن الأبطال جميعاً أصبحوا أغنياء وذوي حول وطول، وهم بإشارة واحدة يستطيعون أن يضعوا حدا لسعادتي وراحة ضميري.

فقال القس:

– يجب أن تكون مطمئناً من هذه الناحية أيها الصديق، لأنني راهب ووظيفتي تحتم علي الكتمان.

فاطمأن كادروس.. وأردف:

– عندما قبض علي أدمون التعس، عاد أبوه إلى منزله مكتئباً، وقضى ليلته وهو يذرع غرفته جيئة وذهاباً في خطوات قلقة، وكانت تنهداته وأنينه تصل إلى مسامعي فيكاد قلبي يتفجر حزناً على ذلك الرجل البائس.

ومرت الأيام تباعاً والشيخ دانت معتكف بمنزله لا يزور ولا يزار إلا من مسيو موريل والآنسة مرسيدس اللذين كانا يكثران من زيارته والتردد عليه.. بيد أنه كان يوصد بابه ويلزم جانب الصمت، موهماً أنه بالخارج.

وفي أحد الأيام سمح لمرسيدس بالدخول.. ورغم أن اليأس كان قد نال منها كل منال، فإنها طفقت تعزيه بأعذب الألفاظ.. غير أنه قال لها: "صدقيني يا ابنتي. أن أدمون قد مات. ومن الخطأ أن ننتظره لأنه في الحقيقة هو الذي ينتظرنا، ولحسن حظي أنني أكبر منك سناً ولذلك فسأراه قبلك".

ولا أستطيع أن أصف لك الحالة التي وصل إليها الرجل. وبحسبك أن تعلم أنه اضطر إلى بيع حاجياته، ليحصل على طعامه. كما اضطر آخر الأمر أن يتخلى عن ثيابه في سبيل الخبز.

ومضت أيام، والرجل المنكود يلازم غرفته ولا يغادرها فخشيت أن يكون قد حل به مكروه فأسرعت إلى الغرفة ونظرت من ثقب القفل فرأيته مصفر الوجه. منهوك القوى؛ وفي حالة قريبة من الإغماء.. ففزعت إلى مسيو موريل ومرسيدس فأقبلا على عجل.. ولما تبينا سوء حالة الشيخ استدعيا طبيباً، قرر أن الرجل المسكين مصاب بالحمى القرمزية.

وأصرت مرسيدس على نقل الشيخ إلى منزلها للعناية به. ولكنه رفض في شدة.

فرأت الفتاة مكرهة أن تلازمه ريثما يبرأ.. وانصرف مسيو موريل بعد أن ترك على المائدة كيساً من النقود.. ولكن الشيخ رفض بتاتاً أن يأخذ منه شيئاً بدعوى أن الطبيب أمره ألا يأكل كثيراً.

وبعد تسعة أيام أخرى كانت جميعها دموعا وأنينا، لفظ الشيخ المسكين أنفاسه الأخيرة وهو يلعن أولئك الذين جروا عليه ذيول الشقاء والألم وكان آخر ما قاله لمرسيدس:

"إذا رأيت أدمون ثانية فلا تنسى أن تخبريه أنني مت وأنا أباركه".

وهنا قفز القس من مكانه فجأة.. وجعل يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يضغط على فمه بكفه، وكأنه يمنع صيحة غضب تكاد أن تنفجر من صدره.. وسأل:

– وأنت تعتقد أنه مات..

– مات جوعاً يا سيدي.

فاختطف القس قدح ماء، تجرعه دفعة واحدة، ثم قال بصوت أجش: هذا حادث مؤلم!

– نعم يا سيدي، ولكنه لم يكن من فعل القدر، بل من فعل الإنسان فسأل القسيس: وكيف ذلك؟

فقص عليه كادروس تفاصيل المؤامرة التي دبرها دنجلار وفرناندو وكيف أنه –أي كادروس– كان حاضراً وقت كتابة خطاب الاتهام، وكيف أن المتآمرين زعما له أن المسألة أن هي إلا مجون.. وكيف أنه لم يرتب في نواياهما وقتئذ لأنه كان ثملاً.

فقال القس: ولكن نواياهما الشريرة تبلجت على حقيقتها في اليوم التالي. وقد رأيت بعينيك نتيجة مجونهما، ومع ذلك فإنك لم تتكلم حين ألقى القبض على أدمون التعس.

– بل حاولت أن أتكلم فمنعني دنجلار، وقال لي: "إذا وجد أدمون مجرماً ثم

اتضح أنه نزل بجزيرة ألبا وحمل رسالة ما من الإمبراطور أو من أحد رفاقه، ثم ضبطت تلك الرسالة في حوزته فإن كل من يتعرض لإغاثته يعتبر شريكاً له".

فسكت على مضض، وكان سكوتي جبنا مني، وليس جريمة.

فهز القس رأسه مؤمناً وقال: لقد فهمت، إنك لم ترتكب جريمة ولكنك تركتها ترتكب، ولا شك أن اعترافك هذا يؤيد توبتك ويجلب إليك عفو الله ومغفرته.

ثم صمت قليلاً.. واستطرد: سمعتك أكثر من مرة تذكر اسم رجل يدعى موريل، فمن عساه يكون، وأي دور لعبه في هذه المأساة؟

– إنه صاحب السفينة فرعون التي كان يشتغل بها أدمون.. ولقد لعب دور الرجل الشجاع الأمين المخلص الطيب القلب. ولم يقعد به اليأس عن السعي في إطلاق سراح أدمون؛ وطرق كل باب يستشف منه الأمل فتوسل وتوعد وتهدد. ثم إنه تردد على الشيخ دانت أكثر من عشرين مرة وعرض عليه مراراً أن ينقله من غرفته. وترك في آخر مرة كيس نقود دفعت منها جميع ديون والد أدمون ومصاريف دفنه. ولا زلت احتفظ بهذا الكيس.

– وهل لا يزال موريل هذا على قيد الحياة؟

فابتسم كادروس بمرارة. وقال:

– نعم، إنه حي. وتكاد الفاقة أن تأخذ بخناقه، فقد فقد خمس سفن في سنتين وأفلس ثلاث مرات، وأمله الآن متوقف على عودة السفينة فرعون من البلاد الهندية، فإذا قدر وغرقت هذه السفينة أيضاً فإن موريل المسكين لابد أن يموت يأساً وقنوطاً..

– مسكين ذلك الرجل. هل لديه زوجة وأولاد؟

نعم. إنه اقترن بسيدة في طهارة الملائكة. وله فتاة على وشك الاقتران بشاب تحبه. وله ابن ملازم في الجيش الفرنسي..

فغمغم القسيس قائلاً: هذا محزن للغاية. ولكن ماذا حدث لدنجلار وزميله فرناندو؟

– لقد ترك دنجلار مرسيليا. وساعده مسيو موريل، ولم يكن يعلم بجريمته، فتوسط له والحقه بخدمة مليونير أسباني. وفي أثناء الحرب تعهد بتوريد بعض الحاجيات العسكرية، وكون لنفسه ثروة عظيمة. اشترى بها فيما بعد أسهماً وسندات. وما زال يبتسم له الحظ حتى تضاعفت ثروته، وبعد أن ماتت زوجته الأولى وهي ابنة المليونير الذي كان في خدمته، اقترن بمدام دي نارجون ابنة مسيو سرفيو كاتم سر الملك. وهو رجل ذو شخصية بارزة. وأصبح الآن البارون دنجلار وهو يقيم في منزل فخم في شارع مونت بلان. ولديه عشرون جواداً في حظائره. وبمنزله كثير من الخدم والحشم ولا أدري كم في خزانته من الملايين.

وصمت كادروس.. فسأل القسيس: وفرناندو؟

– وقد عرف فرناندو أيضاً كيف يجد السبيل إلى المجد، فإنه طلب لأداء الخدمة العسكرية بعد عودة الإمبراطور مباشرة. فاضطر إلى مغادرة قرية الكاتالان. والحق بفرقة محاربة. ولم يكد يصل إلى الحدود حتى اشترك في موقعة (ليني) وفي الليلة التي تلت الموقعة. نصب حارساً لباب أحد كبار رجال الجيش. برتبة جنرال اتضح فيما بعد أنه كان على اتصال بالأعداء.. وفي هذه الليلة بالذات كان الجنرال على موعد مع الانجليز أعداء البلاد.. فطلب من فرناندو أن يصحبه. ووافق هذا وترك موقفه وتبع الجنرال. ومثل هذا العمل يؤدي حتماً إلى محاكمة عسكرية. ولكن لحسن حظه أن نابليون خسر المعركة مع الانجليز ففاز لويس الثامن عشر بالعرش.. ولما كانت خيانة فرناندو من الأسباب التي أدت إلى إنكسار نابليون فإن لويس الثامن عشر رقاه إلى رتبة ملازم في الجيش مكافأة له..

وفي أثناء الحرب الفرنسية الأسبانية رقي فرناندو إلى رتبة (كابتن) ولما كان فرناندو أسبانيا فقد أرسلته الحكومة الفرنسية إلى مدريد كيما يسبر غور الحالة

السياسية والاجتماعية والمالية هناك..

وفي مدريد تقابل فرناندو بدنجلار ولا أدري علام اتفقا.. وأي مساعدة قدمها الثاني للأول، حتى أنه لم تمض عدة أيام حتى قام فرناندو مع فرقته بهجوم عام قبل أن تصدر إليه أوامر بهذا الشأن، فهو بذلك خاطر لحسابه، وقد خدمه الحظ فربح موقعة (تروكاديرو) من الأسبانيين وكان لانتصاره رنة سرور عظيم في فرنسا عامة وفي البلاط الملكي خاصة فانعم عليه الملك برتبة (كولونيل) وقدم إليه وسام اللجيون دونور مع لقب كونت.

فدهش القس.. وأردف كادروس:

– ووقف نبوغ فرناندو عند حد عندما انتهت الحرب بين أسبانيا وفرنسا.. فلما نهضت بلاد اليونان تطالب باستقلالها وانسلاخها من تركيا، وجد فرناندو الفرصة سانحة وطلب من الحكومة أن توافق على أن يتطوع لخدمة الجيش التركي مع إبقائها له على مركزه في الجيش الفرنسي فأجيب إلى طلبه.. ثم أنه أشيع على إثر ذلك أن الكونت دي مرسرف (وهو لقب فرناندو) قد التحق بخدمة علي باشا القائد التركي المعروف. وحدث أن قتل علي باشا في أول موقعة ولكنه قدم لفرناندو قبل موته مبلغاً كبيراً جزءاً خدماته العديدة للجيش العثماني.. فعاد فرناندو إلى فرنسا مثقلا بمغانم كثيرة وثروة طائلة.. وازداد إعجاب الملك به فرفعه إلى رتبة ماريشال.

وهكذا أصبح فرناندو من نبلاء فرنسا. وهو الآن يقطن قصراً مشيداً في شارع (دي هلور) بباريس.

وصمت كادروس.. وفتح الراهب شفتيه ليتكلم ولكن لسانه اختلج في حلقه.. فغمغم قائلاً: ومرسيدس.. ماذا حدث لها.. هل أصبحت أيضاً من ربات الدل وصاحبات الثروة؟!

– إن مرسيدس الآن تشغل مركزاً ممتازاً بين ربات الخدور في أرقى الطبقات الباريسية.. وقد كانت من قبل تنزع إلى الوحدة بسبب ما حل بخطيبها أدمون.. ولم

يكن لها في وحدتها غير دانت الشيخ تفزع إليه لتفرغ عليه من حنانها وحبها وإخلاصها ما يعزيها عن فقد خطيبها وغير ابن عمها فرناندو الذي كانت تجهل اتصاله بالجريمة التي ارتكبها وسمم بها حياتها كل الجهل. فكان لها من بعد أدمون خير رفيق وصديق تفرغ عليه من عطفها ومودتها ما تفرغه الأخت على أخيها.

وفجأة اختفى فرناندو كذلك من حياتها بسبب انخراطه في سلك الجندية.. وبقى مختفيا ثلاثة شهور كانت في خلالها على أشد ما تكون يأساً.. وأكثر ما تكون قنوطاً. واشتد عليها اليأس. وأثقلها الحزن عندما رأت كذلك أنها تنتظر عودة أدمون عبثاً.

وفي أحد الأيام. طرق بابها فجأة. ففتحته، فإذا هي ترى فرناندو أمامها وهو في زي ملازم في الجيش.. وكانت مفاجأة سارة.. فارتاحت إليه.. واطمأنت إلى حبه. ومرت أيام أخرى، وفاتحها في أمر زواجه بها.. ولكنها طلبت إليه أن يمهلها ستة شهور، فإذا لم يعد أدمون خلالها تزوجته.

وهنا قال القس وهو يبتسم في مرارة:

– معنى هذا أنها انتظرت أدمون سنة ونصف سنة. ذلك كثير بل وأكثر مما يتوهمه أدمون نفسه.

وأردف كادروس: وانقضت الستة شهور فاقترن فرناندو بمرسيدس وقد رأى الزوج أن يرحل بزوجته من هذه القرية مباشرة. ولعله خشي أن يعود أدمون فيجني شر ما زرع.

وقد رأيت مرسيدس فيما بعد في (بربنيان) حيث كانت بمفردها تعلم ابنها البرت.وكان يخيل إلى أنها رغم مركزها الاجتماعي الرفيع، وثرائها العريض لا تشعر بشيء من السعادة. فقد حدث أنني ذهبت إلى قصر فرناندو عندما أحاطت بي المحن وتملكني اليأس. وطلبت مقابلة رب الدار فرفض وفيما أنا خارج أجر أذيال الخيبة. رأتني مدام دي مرسرف (مرسيدس) فألقت عند قدمي كيساً به خمسة وعشرون جنيهاً ذهبياً. وعندما رفعت بصري إلى النافذة لأرى ذلك الملاك الكريم، لمحتها تبتسم لي

بلطف وسكون لا يخلو من الألم.

فسأل القس: وماذ حدث لمسيو دي فيلفور؟

– لا أعرف عنه إلا أنه اقترن بالمدموازيل دي سان ميران ابنة الماركيز دي سان ميزان ثم رحل إلى مرسيليا بعد ذلك بقليل. ولابد أنه أصاب حظاً كما حدث للآخرين.

فهتف القس: لقد أوضحت لي قصتك الغموض والشك اللذين اكتنفا القبض على أدمون المسكين، ولما كان الباقون ليسوا بحاجة إلى أنصبتهم فإن العدل يقضي بأن أعطيك الماسة وحدك.

– ماذا؟ الماسة لي؟ آه يا سيدي.. لا ريب أنك تهزل!

– كلا. إليك الماسة، إنما أعطني كيس النقود الذي قدمه مسيو موريل للشيخ دانت.

فنهض كادروس إلى دولاب صغير في الجدار، وأخرج منه كيساً طويلاً أحمر. دفعه إلى الراهب. وتناول منه الماسة. قال الراهب:

– ليبارك الله لك في ثمنها يا سيدي.. الوداع..

وانطلق من الحانة لا يلوي على شيء.

الفصل التاسع

وفي اليوم التالي كان رجل في نحو الثلاثين من عمره. مهيب الطلعة يرتدي ثيابا انجليزية تدل على جنسيته، يقدم نفسه لمسيو بوفيل مفتش السجون في مكتبه. على أنه مدير شركة (تومسون وفرنش) وأنه جاء رجاء أن يمده مسيو بوفيل بشيء من المعلومات عن شركة موريل وأولاده، لأنهم سمعوا أن الرجل على وشك الإفلاس والشركة تدين لهم بملغ مائة ألف فرنك.

وقد أنصت مسيو بوفيل لمحدثه في لهفة وفضول.. فلما فرغ الانجليزي من حديثه قال مدير السجن:

– إن مخاوفك يا سيدي في محلها.. فإن لي مثل مبلغكم وضعته في الشركة لحساب ابنتي ليكون لها بائنة.. وأستطيع أن أقول لك مما علمته اليوم من مسيو موريل نفسه أنني أعد هذا المبلغ في حكم الضائع.

فقال الانجليزي: إذن فأنت تعتقد ذلك. لا بأس. أنني أستطيع أن اشتري نصيبك من الشركة.

– أنت؟!

– نعم.. أنا.

قال ذلك وأخرج من جيبه حزمة من الأوراق المالية يربي عددها على ضعف هذا المبلغ الذي يخشى بوفيل من ضياعه. ودفعه إليه.. وتمت الصفقة.

* * *

وانصرف الانجليزي عقب ذلك.. وذهب إلى إدارة شركة موريل وأولاده. واستقبله موظف يدعى أمانويل رايموند.

وكان أمانويل هذا خطيب جوليا ابنة موريل.. فذهب بالشاب (الانجليزي) إلى غرفة موريل في الطابق الثاني..وكان هذا الأخير جالساً إلى مكتبه وهو مصفر الوجه. بادي القلق. وكان توالي الكوارث قد هدت من قوى الرجل وناءت بكاهله.. فبدأ أكثر سناً رغم أنه لم يتجاوز الخمسين من العمر. وقد تجعد وجهه وتغضن جبينه..

وقد ألقى عليه الانجليزي نظرة تروح بين الإعجاب والدهشة والسرور.

قال موريل: تفضل يا سيدي لقد أخبرني أمانويل أن حضرات (تومسون وفرنش) أرسلوك إلي..

– نعم يا سيدي.. لقد أرسلوني لتحصيل ديون الشركة في أقرب وقت ممكن..

فقال موريل بصوت مرتجف حاول أن يجعله ثابتاً:

– وكم تريدون مني؟

– مبلغ ٢٨٧٥٠٠ فرنك.. فقد باعنا مسيو بوفيل حصته في الشركة، وتحولت إلينا سندات أخرى من بعض عملائكم.

ومن المتعذر أن نصف حالة الحزن التي بدت على وجه موريل في هذه اللحظة.. ولكنه فتح فمه كالأبله وغمغم في ذهول: ٢٨٧٥٠٠ فرنك؟!

وازداد اصفرار وجهه. إلا أنه قال في أنفة:

– كونوا مطمئنين يا سيدي.. فإن كل تحويل عليه توقيع موريل وأولاده لابد أن يدفع كاملاً.. وأعدك بالدفع مباشرة لو وصلت السفينة فرعون إلى مرسيليا سالمة. أما إذا حدث لها لا قدر الله ما لم يكن في الحسبان فإني سأضطر إلى تأجيل الدفع لوقت ما..

وسمع الرجلان في تلك اللحظة ضوضاء وجلبة. ووقع أقدام كثيرة بالخارج. ثم عدة ألفاظ مبتورة. تبعتها صيحة مكتومة.

فتبادل الرجلان نظرة دهشة وقلق وامتقع وجه موريل.. ورمقه الانجليزي بعين

الإشفاق والرثاء.

وفتح الباب فجأة، وظهرت على عتبته فتاة حسناء، مصفرة السحنة، دامعة العينين.

وصاحت وهي تضم يديها إلى صدرها بعطف وإشفاق:

– أبي.. عفوك يا أبي.. أن ابنتك تحمل إليك نبأ سيئاً مشئوماً.

قالت ذلك وألقت بنفسها بين ذراعي والدها. فتلقاها هذا بيديه المرتجفتين وقال بصوت أجش مخيف: إذن فقد غرقت فرعون؟

فم تجب الفتاة. ولكنها هزت رأسها مؤمنة. فسأل موريل:

– والبحارة؟

– نجوا جميعاً.

فرفع الرجل القانط ذراعيه نحو السماء شاكراً. وقال بصوت مختلج:

– شكراً لك يا إلهي. إن الكارثة لم تصب أحداً غيري.

لم يتمالك الانجليزي أن ضغط بأسنانه على شفتيه لفرط تأثره. وجفف دمعة كبيرة فرت من عينه.

وبعد لحظة.. قال موريل بصوت مرتفع كأنه يحدث بحارة السفينة التي غقت: ادخلوا جميعاً.. أني لأحسبكم واقفين بالباب.

ففتح الباب على الأثر ودخلت مدام موريل، وكانت تبكي بحرقة ووراءها أمانويل ثم تبعهما سبعة رجلا مشعثي الهيئة وكأنهم قائمون من بين الأموات.

وأجال موريل بصره في البحارة. ثم قال في رفق:

– إني أشكركم كثيراً أيها الأصدقاء.

ثم تحول إلى رجل متوسط العمر.. وقال:

– كوكليس.. ادفع لكل من هؤلاء الشجعان مبلغ مائتي فرنك فتبادل البحارة نظرة سريعة.. ثم تقدم أحدهم من موريل. وقال:

– الواقع يا سيدي أن زملائي يقدرون الظروف الحاضرة حق قدرها. لذلك لا يطلبون أكثر من خمسين فرنكا لكل منهم.

فبدا التأثر على وجه موريل.. وقال:

– شكراً لكم أيها الأبطال.. إذهب يا كوكليس واصرف لهم ما يريدون.

فانصرف الجميع من الغرفة.

* * *

ومال موريل في مقعده وقد أثقلته الهموم. قال لزائره:

– ها أنت قد رأيت يا سيدي بنفسك كل شيء.. وليس لدي بعد ذلك ما أقوله لك.

فأجاب الانجليزي:

–نعم يا سيدي. وفيما رأيت ما يحملني على أن أسدي إليك يدا. إن السندات التي أحملها تستحق الدفع في يوم ٥ يونيه، ولكنني سأمهلك ثلاثة شهور وسأعود يوم ٥ سبتمبر القادم في الساعة الحادية عشرة صباحاً..

فقال موريل: وستجدني في انتظارك يا سيدي.. ولن أنسى لك هذا الصنيع.

وعندما غادر الانجليز الغرفة التقى بالآنسة جوليا ابنة موريل على الدرج..

هتفت في يأس: آه يا سيدي.. علام اتفقتما؟

فقال الانجليزي في صوت خافت:

– أصغي إلى يا آنسة.. ستتلقين في أحد الأيام رسالة بتوقيع (السندباد البحري) فاقرأيها جيداً ونفذي مضمونها بالدقة، مهما كان هذا المضمون.

ففغرت الفتاة فاها دهشة، ولكن الانجليزي أسرع إلى مغادرة الدار قبل أن تستوضحه الأمر.. وفي فناء المنزل صادف الانجليزي (تبلون) وزملاءه البحارة، فاقترب من (تبلون) وقال له وهو يتأبط ذراعه:

– هلم معي أيها الرفيق إذ لدي ما أقوله لك.

* * *

وجاء يوم ٥ سبتمبر أخيراً.. وكان مسيو موريل قد رحل إلى باريس منذ بضعة أيام ينشد معونة صديقه دنجلار الذي يدين له بمكانته وما وصل إليه ، ولكن نفس دنجلار الوضيعة أبت أن تعترف بهذا الدين.. فكان أن خرج موريل من لدن دنجلار وهو صفر اليدين..وعاد الرجل القانط إلى مرسيليا، ولم ينبس بكلمة شكوى واحدة. بل سار توا إلى غرفته الخاصة. وأشار إلى أحد الخدم بأن يستدعي الصراف كوكليس.

وحالما رأت مدام موريل حالة زوجها قالت لأمانويل:

– لقد ضاع كل أمل.

ورأت المرأة الطيبة أن تسارع باستدعاء ابنها مكسمليان الضابط بالجيش ليقف بجانب أبيه وقت محنته..ولم تخطئ المرأة في تقدير حرج الحالة، لأن موريل بعد أن دخل غرفته واستدعى كوكليس إليه.. رؤى هذا الأخير بعد برهة وهو يخرج من الغرفة مصفر الوجه. مضعضع الحواس بادي التأثر والارتباك والذهول.

ووصل مكسمليان في الصباح الباكر من اليوم المحدد للدفع.. واستقبلته أمه وأخته في شوق ولهفة.. وقالت الأم لابنتها:

– اذهبي إلى والدك يا جوليا وزفي إليه نبأ عودة مكسمليان.

فخرجت جوليا مسرعة.. وعندما بلغت منتصف الدرج التقت رجلا غريبا يحمل رسالة وبادرها بالفرنسية في لهجة إيطالية:

– أظنك الآنسة جوليا.. أليس كذلك؟

– نعم يا سيدي..

– إليك هذه الرسالة فاقرأيها بإمعان.. فعليها تتوقف سلامة أبيك.

فاختطفت الفتاة الرسالة من يد الرجل، ونشرتها بين أصابعها المرتجفة. وقرأتها بسرعة.. وكان هذا ما جاء بها:–

اذهبي في الحال إلى شارع دي ملهان وادخلي المنزل رقم **١٥** ثم اطلبي من البواب مفتاح الغرفة التي في الطابق الخامس.. وستجدين فوق موقد في تلك الغرفة كيس نقود مصنوع من الحرير الأحمر.. فخذيه إلى والدك.. ومن الضروري أن يصل ذلك الكيس إلى يديه قبل الساعة الحادية عشرة.

"أنت وعدت بأن تنفذي ما بالرسالة بدقة. فاذكري وعدك. وبري به."

(السندباد البحري)

أفلتت من فم الفتاة صيحة فرح.. ورفعت عينيها إلى الرسول لتسأله عمن يكون منقذهم.. ولكنها لم تجد له أثراً.

* * *

وفي هذه الأثناء كانت مدام موريل قد قصت على ولدها مكسمليان كل شيء، وصورت له حالة والده على حقيقتها.. فذعر الشاب وهرول إلى مكتب والده. فطرق بابه. ثم فتحه ودخل.ولم يكن مسيو موريل ينتظر عودة ابنه. فنهض واقفاً وقد أذهله حضوره الفجائي. وألقى الشاب بنفسه بين ذراعي والده وضمه إلى صدره غير أنه عندما رفع رأسه كان مصفر الوجه بادي الاضطراب.

وقال لأبيه بصوت مرتجف: لماذا تحمل غدارتين في جيبك يا أبي؟

فحدج الرجل القانط ولده بنظرة طويلة.. وقال:

– مكسمليان.. أنا رجل شريف.. ولابد أن أمك حدثتك بكل شيء.. وأظنك توافقني على أن الدم يمحو العار يا ولدي.

فقال الشاب وقد فهم قصد أبيه: صدقت يا أبي.

ثم مد يده إلى إحدى الغدارتين.. ثم أردف:

– غدارة لك، وغدارة لي.. فشكرا لك يا أبي.

غير أن موريل قبض على ذراع ولده وقال له بلهجة المؤنب:

– وأمك وأختك.. من ذا الذي يسهر عليهما؟

فتردد الشاب لحظة. ثم بدت في عينيه دلائل العزم. وعاد فسحب يده وركع عند قدمي أبيه.. فهمس هذا بصوت مختلج:

– إني أباركك يا بني باسم ثلاثة أجيال كرام من أسلافنا.. ولعل ما حرمه على سوء الحظ يهبه لك ربك. فاعمل بجد يا ولدي. وقاتل في ميدان الحياة بجلد وشجاعة من أجل أمك وأختك. والآن انهض يا بني.. واذهب إليهما وحطهما بحنانك.

وتأهب الشاب للانصراف، ولكنه لم يستطع، فترنح مكانه.. وقد خانته قواه. فخف إليه أبوه وضمه إلى صدره بقوة.. وصاح: تشجع يا ولدي.

فاندفع الشاب إلى الخارج.

وسقط موريل في مقعده. وأرسل بصره الزائغ إلى الساعة المعلقة بالجدار، فوجد أنه لم يبق لديه غير سبع دقائق.. ولاح كأن عقرب الساعة يتحرك بسرعة خارقة.. ومن المستحيل علينا أن نعرف ما دار في خلد ذلك الرجل في هذه اللحظات الهائلة.. وهو على حافة الأبدية.على أن وجهه وإن كان مبللاً بالعرق. إلا أنه ظل ساكناً هادئاً.. وعينيه المبللتان بالدموع كانتا تنظران إلى السماء في خشوع.

وتحرك عقرب الدقائق.. ودنت اللحظة الرهيبة.مد يده وتناول إحدى الغدارتين.. وفجأة سمع صيحة داوية كانت صيحة ابنته جوليا..

التفت وراءه. ورأى الفتاة. فارتجفت يده. وسقطت الغدارة من قضبته.صاحت جوليا بأنفاس لاهثة. وصوت يذهب بين البكاء والضحك:

– أبي.. أبي.. أشكر الله! لقد نجوت!

وألقت بنفسها بين ذراعيه. ورفعت أمام عينيه كيساً من الحرير الأحمر.

وتناول موريل الكيس وقد تولته الدهشة.. تذكر أنه كان يملك ذلك المتاع في يوم من الأيام.

وفتح الكيس فوجد به السند الذي كتبه لمدير الشركة بمبلغ ٢٨٧٥٠٠ فرنك وعلليه كلمة "دفع".

ووجد أيضاً شيئاً دقيقاً ملفوفاً في قصاصة ورق متوسطة الحجم.. فنشر الورقة.. ووجد بها ماسة كبيرة خلابة.. وقرأ بالورقة كلمة (بائنة جوليا) ودقت الساعة في تلك اللحظة آخر دقة.

ودوى صوت مرتفع يصيح صاحبه: مسيو موريل.. مسيو موريل.

فنهض موريل مندهشاً. ودخل أمانويل الغرفة، وكان محمر الوجه بادي الغبطة.. راح يصيح: السفينة فرعون!! السفينة فرعون!!

– ماذا تقول؟ السفينة فرعون؟! لا ريب أنك مجنون فأنت تعلم أنها غرقت.

– بل إنها السفينة فرعون بعينها وهي تتأهب لدخول الميناء.

فسقط موريل في مقعده خائر القوى.. كانت المفاجآت السارة المتوالية أكثر من أن تحتملها أعصابه في آخر لحظة.. غمغم:

– إذا كان حقاً ما تقول، فإني أعتقد أن الله كان أرحم بنا من أن يتركنا للهزيمة والعار.. فشكراً لله.. هلموا بنا يا أولادي لنرى بأنفسنا.

قال ذلك ونهض..ولم يمض طويل حتى كانت عائلة موريل جميعها في الميناء.. وظهرت السفينة بعلمها الخفاق. وقد كتب على أحد جوانبها (فرعون. شركة موريل وأولاده بمرسيليا)، وكانت تشبه السفينة فرعون الحقيقية كل الشبه. بل وكانت محملة بالبضائع التي انتظرها موريل بفارغ الصبر وهو مأخوذ بين الأمل واليأس.

لم يعد بالطبع هناك شك أو ارتياب، وقد رأى موريل ومن معه تلك المعجزة المدهشة.

* * *

وبينما كان موريل وولده يتعانقان عناق الحمد والغبطة خرج من بين الناس رجل له لحية سوداء كثيفة تخفي أكثر من نصف وجهه. وبقي يراقب الأب وابنه.. وفي عينيه أبلغ نظرات الإشفاق والعطف.. ولم يلبث أن غمغم بصوت خافت:

– ألا فلتهنأ أيها الرجل بما قدمت من خير.

ونزل بضع درجات من سلم الميناء.. ثم صاح:

– جاكومو.. جاكومو..

وفي الحال برز قارب صغير من أحد المنحنيات. فقفز إليه الرجل المجهول. وسار ذلك القارب ميمما شطر يخت بديع على قيد بضعة أمتار.ولما التصق القارب باليخت.. قفز المجهول إليه بخفة. وألقى ببصره مرة أخرى نحو موريل. فرأى الابتسامة السعيدة تعلو وجهه، وهو رافع عينيه إلى أعلا وكأنه يبحث في السماء عن المحسن إليه.

غمغم الرجل المجهول قائلاً: الآن.. وداعاً أيتها المروءة. وداعاً أيتها الإنسانية.. وداعاً لجميع العواطف الشريفة.. والمشاعر السامية.

لقد جئت لكي أدفع ثمن المعروف. ففعلت. وبقي أمامي أن أدفع ثمن الشر لمن زرع الشر. وأكيل له بمثل كيله لأبرياء.

الفصل العاشر

يقيم الكونت دي مرسرف (فرناندو سابقاً) في صرح فخم منيف في شارع دي هلور بباريس.وكان ابنه الفيكونت البرت دي مرسرف يشغل جناحاً في ذلك القصر يفصله عن باقي البناء فناء كبير، وتحيط به حديقة غناء، أشجارها باسقات.. ذات طلع نضيد.

وجلس البرت في صبيحة أحد الأيام في إحدى غرف الطابق الأول، وكانت أمامه مائدة مستطيلة عليها طائفة غريبة من أنواع التبغ والسيجار واللفافات.. إلى جوار صندوق مليء بالغلايين المطعمة الجميلة الصنع.

وحوالي الساعة العاشرة إلا ربعاً.. دخل عليه وصيفه جرمين الذي يوليه كل ثقته.. وفي يده حزمة رسائل كبيرة.. وضعها على المائدة.وأخذ البرت يستعرضها بين أصابعه بغير اكتراث، فوقع نظره من بينها على اثنتين مكتوبتين بخط دقيق. وتفوح منهما رائحة عطرية طيبة.. ففضهما بشيء من العناية، وقرأهما بتؤدة. ثم قال للوصيف:

– كيف وصلتك هاتان الرسالتان؟

– إحداهما بطريق البريد.. وجاء خادم دنجلار بالأخرى.

– إذن أبلغ مدام دنجلار أنني قبلت المقعد الذي خصصته لي بمقصورتها في المسرح، ثم نبئ روزا أنني سأذهب إليها بعد خروجي من (الأوبرا) لأتناول معها طعام العشاء حسب رغبتها، وأحمل معك إليها ست زجاجات من أجود أنواع النبيذ.

– ومتى ستتناول طعام الإفطار يا سيدي؟

– في الساعة العاشرة والنصف تماماً.. وقد يأتي (دمبراي) أيضاً.. وعلى كل حال سأتناول طعام الإفطار في الموعد الذي حددته للكونت ولو أني قليل الثقة في أنه

سيحافظ على كلمته.

ولكن هل استيقظت والدتي (مرسيدس)؟

– نعم يا سيدي.

– إذن أخبرها أنني سأراها عند الساعة الثالثة، لأسالها أن تسمح بأن أقدم إليها بعض الأصدقاء.

وفي تلك اللحظة وقفت بالباب إحدى المركبات. ثم أعلن قدوم مسيو لوسيان دابري.

وكان لوسيان شاباً أنيقاً طويل القامة، جذاب الملامح. أزرق العينين.. كثير انضمام الشفتين. وقد خف إليه البرت حالماً رآه وهو يصيح:

– طاب صباحك يا صديقي.. الواقع أنني لم أكن أتوقع قدومك هكذا مبكراً.. هل سقطت الوزارة؟

– كلا يا عزيزي.. لن تسقط قبل أن تسقط الوزارة الأسبانية.. وعلى فكرة هل بلغك أن أسعار القطع الأسباني قد تدهور تدهوراً فاحشاً.. حتى لقد ربح البارون دنجلار من تدهورها في يوم واحد ٤٠ ألف جنيه..

فرفع ألبرت حاجبيه دهشة وهتف:

– يا له من رجل محظوظ. لعل ذلك راجع إلى اتصاله بك وخطب ودك بصفتك سكرتير وزير الداخلية.

فابتسم لوسيان.. ولم يجب..

واستطرد ألبرت:

– هل تعلم يا صديقي أنني أعددت لك مفاجأة مدهشة. تذهب عنك ضجرك من حياتك التي تسير على وتيرة واحدة كما تقول لك.. أنني سأقدم لك اليوم صديقاً جديداً.. سوف يجلب السرور إلى نفسك.. آه.. أني أسمع صوت صديقنا بيكامب في

الغرفة الأخرى.

وأقبل الخادم في تلك اللحظة يعلن قدوم مسيو بيكامب..

فقال ألبرت وهو يقوم للقاء القادم:

– أدخل يا بيكامب.. هو ذا لوسيان الذي ينتقد مقالاتك قبل أن يطالعها..

وتصافح الجميع.. ثم سأل بيكامب:

– إنني في عجلة من أمري يا ألبرت.. فإذا كان الطعام قد أعد فهلما بنا لتناوله لأني أود الإسراع إلى الغرفة التجارية..

فقال ألبرت:

– انتظر قليلاً فإنني أتوقع قدوم شخصين.

فقال بيكامب متسائلاً:

– ومن هما شخصاك اللذان تنتظرهما؟

فأجاب ألبرت:

– أحدهما نبيل والآخر قانوني.

ولم يكد ألبرت يتم قوله حتى دخل الخادم، وقال بصوت مرتفع:

– مسيو شاتو ريتو، ومسيو مكسمليان موريل.

فبهت ألبرت ونهض وهو يغمغم:

– موريل.. موريل.. من هو موريل هذا؟

ودخل شاتو ريتو الغرفة وهو يصيح:

– طاب صباحك يا عزيزي ألبرت. دعني أقدم لك الكابتن مكسمليان موريل قائد حامية (سافيس) وهو صديقي، وأكثر من صديقي.. إنه منقذ حياتي.

وتنحى جانباً فظهر خلفه شاب نبيل الطلعة، واسع الجبهة. ناصع الجبين له

عينان جذابتان، وشارب أسود جميل... وكان يرتدي ثياباً عسكرية أنيقة يزينها وسام (اللجيون دونو).

أحنى الضابط رأسه باحترام. فقال ألبرت في تأدب:

– إن الكونت شاتوريتو يعرف كيف يقدم أصدقاءه.. وأنت صديقه فأنت إذن صديقنا.

فقال شاتوريتو: بل إنه أكثر من صديق بالنسبة إلي. فقد أنقذ حياتي من موت محقق عندما كنت في بلاد الجزائر ورحى الحرب دائرة بيننا وبين العرب.

فقال ألبرت: يلوح أن اليوم يوم المنقذين. فلن تمضي خمس دقائق أخرى حتى أقدمكم للشخص الذي أنقذ حياتي!

فسأل لوسيان: ومن أين سيجيء منقذك هذا؟

– لست أدري.. ولكنه كان في روما منذ ثلاثة شهور حينما دعوته.. وأظنكم تذكرون أنني قضيت مدة طويلة سائحاً في إيطاليا مع صديقي البارون فرانز دي ابناي. وسأنتهز فرصة الدقائق الباقية لأحدثكم عن ضيفي الغريب الأطوار، كان تعرفي بهذا الرجل في إيطاليا؛ إذ كان يشغل الجناح المجاور لنا في الفندق.وتوثقت بيننا أواصر الصداقة على مر الأيام. ورأيت من كرمه وثرائه ما لو تحدثت به لما صدقتموني. وحدث أن اختطفتني عصابة يرأسها شاب مستهتر اسمه لويجي فامبا يخشاه أهل روما جميعاً لطبشه وقوة شكيمته.

وذهب بي اللصوص إلى مغائر حالكة تعرف بسراديب سان سبستيان حيث بقيت سجيناً. وقيل لي أنني سأبقى كذلك حتى أدفع مبلغ أربعين ألف فرنك أو أقتل بعد عشر ساعات. ولسوء الحظ أن رحلتي كانت قد أوشكت على الانتهاء، وكادت نقودي معها أن تنفد.. فكتبت إلى صديقي البارون فرانز أستنجد به.وكنت واثقاً أن لويجي فامبا لن يرجع عن عزمه.. فجاء فرانز بالضيف الذي سأقدمه لكم بعد دقائق. وهو رجل في قامتي وجسمي. فقال كلمتين اثنتين لزعيم اللصوص، كنت بعدهما حراً

طليقاً.

وأما اسم منقذي فهو الكونت دي مونت كريستو.. ولعله اشتق لنفسه هذا الاسم نسبة إلى جزيرة صغيرة هو مالكها وسيدها.

فسأل لوسيان: لابد أنه غني إذن؟

– هل قرأت قصص ألف ليلة؟ وهل تعرف أن أبطالها من أي طبقة هم ينتمون. أو أن حقائبهم مكدسة بالقمح أو (بالماس)؟ إن ألف ليلة تحدثنا عن بعض صيادي الأسماك الفقراء المدقعين الذين لا يلبثون حتى يدخلوا بعض المغائر وإذ ذاك تتفتح أمامهم كنوز الهند.

إن الكونت دي مونت كريستو مثل أحد أولئك الصيادين. بل إن له أيضاً اسما مأخوذاً من ألف ليلة ،لأنه يدعو نفسه في كثير من الأحيان باسم (السندباد البحري) ولديه مغارة ملآى بالذهب.

فقال مكسمليان موريل: لقد سمعت أنا أيضاً مثل هذا الاسم من بحار قديم يدعى تبلون.

ودقت الساعة العاشرة والنصف في تلك اللحظة ولم يكد رنينها يتلاشى حتى أقبل جرمين. ووقف بالباب وقفة احترام وأدب.. وقال معلنا قدوم زائر جديد:

– الكونت دي مونت كريستو.

وظهر الكونت على عتبة الباب، وكان مرتدياً ثياباً متناهية في البساطة، ولكنها على جانب كبير من النظافة والأناقة.

وتقدم الكونت إلى منتصف الغرفة، وهو باسم الثغر.. واقترب من ألبرت فحياه تحية رقيقة.

فقال الشاب: لقد كنت أحدث أصدقائي الآن عنك عن سجاياك.

وبدأ ألبرت يقدم أصدقاءه لكونت واحداً فواحداً.. والكونت يحييهم باحترام

ممزوج بشيء من البرود.. ولكنه حالما سمع اسم مكسمليان موريل تصاعد الدم إلى وجنتيه واضطرب جفناه.

وهنا قال ألبرت: أيها السادة لقد أعد طعام الإفطار.

فانتقلوا جميعاً إلى قاعة الطعام.. فلما أخذوا أماكنهم حول المائدة. قال ألبرت موجهاً حديثه للكونت دي مونت كريستو:

– يا سيدي الكونت. إني لا أخاف غير شيء واحد. وهو ألا يروقك طعامنا فابتسم الكونت وأجاب: أنت مخطئ يا صديقي فأنا لا أوثر لوناً من الطعام على لون، ولو أني لا آكل إلا القليل.والواقع أنني أحب أن أقضي جل أوقات فراغي وأنا مستسلم لغيبوبة اختيارية وذلك باستعمال مادة غريبة. عبارة عن مخلوط من الأفيون النقي وأجود أنواع الحشيش.

فسأل بيكامب في دهشة: وهل تحمل هذا المخلوط معك يا سيدي؟

– دائماً..

وأخرج الكونت حجراً كبيراً من الزمرد على شكل علبة لها غطاء من الذهب الخالص وكان بداخلها أربع أو خمس حبات صغيرة لها لون أخضر قاتم..وتناقل الشبان تلك الزمردة بين أيديهم.. ولم يهتموا في الحقيقة بالأفيون مثلما اهتموا بالحجر الكريم.

قال بيكامب:

– إن هذه الزمردة من النوع النفيس النادر.

فقال الكونت:

– كان لدي ثلاث زمردات في هذا الحجم. فقدمت إحداها لملك اليونان، والأخرى للبابا وهذه هي الثالثة.. وأما ملك اليونان فقد وهبني حرية امرأة.. ووهبني البابا حياة رجل.

فقال ألبرت: من عجب حقاً أنك تصادق الملوك كما تصادق اللصوص وسفاكي الدماء، ولا أظنك نسيت كيف أنقذت حياتي من براثن لويجي فامبا؟

فأجاب الكونت:

– ليس هناك ما يدعو إلى العجب، لأنني عرفت لويجي فامبا منذ أكثر من عشر سنوات، ولقد صادفته حينما كان يرعى الأغنام، فقدمت له بضع قطع ذهبية لأنه دلني على الطريق الذي أريد أن أسلكه. غير أنه رفض ما قدمته له بتاتاً. ثم قبله أخيراً على شريطة أن أتقبل خنجراً قدمه لي.. كان عزيزاً عليه لأنه من صنعه.

وحدث بعد بضع سنوات أنه صادفني. ولا أدري كيف نسيني رغم الهديتين اللتين تبادلناهما فكمن لي مع أعوانه. غير أنني قبضت عليهم جميعاً. وكان في استطاعتي إذ ذاك أن أسلمهم للعدالة لتقتص منهم. غير أنني فضلت أخيراً أن أطلق سراحهم على شرط ألا يقفوا في طريقي أو في طريق أحد من أصدقائي. وكان من حسن حظ الفيكونت ألبرت أنه كان جاري في فندق (لونده) فبادرت إلى معونته..

وسكت الكونت.. فراح الجميع يرمقونه بنظرات هي مزيج من الدهشة.. والفضول.. والرهبة.

استطرد الكونت: والآن أخبرني يا فيكونت.. أذكر أنك حدثتني في روما عن قرب زواجك فهل أهنئك؟

فأجاب الشاب: ما زال الموضوع قيد البحث.. ولكنني آمل أن أقدمك قريباً لزوجتي المستقبلة الآنسة يوجيني دنجلار.

– يوجيني دنجلار؟.. أليس والدها هو البارون دنجلار؟

– نعم.. هل تعرفه؟

– كلا.. ولكن من المحتمل أن أتقدم إليه قريباً، لأن لدي معه معاملات مالية تختص باسهم شركة (ريشار) الإيطالية.. وشركة (تومسون وفرنش) الإنجليزية.

ولما نطق الكونت بالاسمين الأخيرين رفع عينيه ونظر إلى مكسمليان موريل.. الذي لم يلبث أن صاح:

– تومسون وفرنش؟ هل تعرف هذه الشركة يا سيدي.. فقد تستطيع أن تضع حداً للأبحاث التي بذلناها عبثاً.إن هذه الشركة قدمت إلينا فيما مضى خدمة من أجل الخدم ولا أدري لماذا تعمدت إنكار جميلها علينا فيما بعد.

فقال مونت كريستو: سأكون رهن إشارتك يا سيدي.

وهنا نهض الجميع عن المائدة.. فانتهز مونت كريستو الفرصة، واقترب من مكسمليان وقال له: هل أنتم جميعاً سعداء يا صديقي؟

– كل السعادة يا سيدي.. ولكم يسرني ويسر أختي جوليا وزوجها أن تزورنا في منزلنا.

وأخرج من حافظة أوراقه بطاقة بعنوانهم.. وقدمها لمونت كريستو فتقبلها شاكراً.. وقال وهو يحني رأسه باحترام:

– ثق يا سيدي أنني سأزورك عما قريب.

* * *

وعندما انصرف الجميع.. وانفرد ألبرت بالكونت.. قال الأول:

– والآن هل يسمح سيدي الكونت أن أقدمه إلى والدي الكونت دي مرسرف والكونتس والدتي كي يقدما لك شكرهما الخاص على إنقاذك حياتي؟

فاحنى الكونت رأسه باحترام ولم ينطق بكلمة.

وانتقل الاثنان على الأثر إلى جناح الكونت دي مرسرف. وكان في انتظارهما في غرفة الاستقبال وهو يرتدي بزته الرسمية تحليها أرفع الأوسمة والنياشين.

وخف الكونت لاستقبال ضيفه بخطى سريعة ثابتة.وقد رآه مونت كريستو وهو يتقدم نحوه، فلم يحرك ساكنا للقائه.. وخيل كأن قدميه فدثبتتا بأرض المكان وعينيه

رشقتا في وجه الكونت دي مرسرف..

وقال دي مرسرف وهو يحيي مونت كريستو بابتسامة:

– كيف نشكرك يا سيدي. أنك قدمت لبيتنا يدا لا ننساها. إذ أبقيت على وريثنا الوحيد وهي خدمة أجل من أن يعبر عنها بشكر.وكم كان بودي أن أبقى معك طويلاً. ولكنني مضطر للاعتذار حيث يجب أن أحضر جلسة مجلس النواب التي ستنعقد اليوم.. لأنني سأقود حملة ضد الوزارة..

وهتف ألبرت في تلك اللحظة: آه.. ها هي ذي والدتي..

فحول مونت كريستو رأسه بسرعة.. ورأى الكونتس مصفرة الوجه بادية بالاضطراب.

هب واقفاً.. وأحنى رأسه لها باحترام.. أما هي فإنها جعلت تتقدم ببطء وهي تقول في صوت يضطرب قليلاً:

– سيدي إني مدينة لك بحياة والدي.. ولذلك فإني أباركك.

فأحنى الكونت رأسه انحناءة كبيرة.

كان وجهه أشد اصفراراً من وجه مرسيدس.وعندما نظر إليها مرة أخرى رآها ترفع عينيها إلى السماء في ضراعة وخيل له أنه يرى الدموع تجول في مآقيها.

واعتذر الكونت مرسرف عن البقاء.. ثم انصرف.. فتحولت الكونتس إلى مونت كريستو وقالت: هل لك يا سيدي الكونت أن تشرفنا بقضاء بقية النهار معنا؟

– إني شاكر لك فضلك يا سيدتي.. ولكني أخشى أن يخيم الظلام قبل أن أعرف المكان الذي سأقيم فيه بباريس،لأنني جئت من المحطة رأساً إلى هذا المنزل.

– إذن فأرجو ألا تحرمنا من هذا الشرف يا سيدي فهل تعدنا بذلك؟

فلم يجب الكونت.. واستطردت مرسيدس: إني لا أقف في سبيل رغبتك أو حريتك يا سيدي، ولكني لا أرغب أن ينحصر شكرنا لك في مجرد الالفاظ.

فأحنى الكونت قامته احتراماً.. وكان قد خشي أن تخذله قواه وتلحظ اضطرابه فسارع بالانصراف..وعندما قفز مونت كريستو إلى مركبته لاحظ حركة في ستائر إحدى نوافذ الغرفة التي ترك فيها الكونتس دي مرسرف.

وعندما عاد ألبرت إلى أمه وجدها جالسة في مقعد كبير ممتقعة الوجه مستغرقة في خواطرها.

بادرته قائلة: ما معنى اسم مونت كريستو هذا؟ هل هو اسم عائلة أو مقاطعة؟

– إنه اسم جزيرة في أرخبيل تسكانيا، اشتراها الكونت.

– إن شكل الكونت وهيئته يدعوان إلى الإعجاب.

– إنه في كل أقواله وحركاته يمثل منتهى النبل.

فقالت الكونتس في اهتمام متزايد: وكم تظن عمر الكونت؟

– أظنه في الخامسة أو السادسة والثلاثين من عمره. وقد سمعته يردد ذلك كثيراً. وحسبك ذلك البريق الغريب الذي يلمع في عينيه. وشعره الحالك الذي لم تجلله شعرة بيضاء واحدة. لتدركي أنه في عنفوانه.

فلم تجب الكونتس. بل ألقت رأسها على المقعد في هدوء، وسكون وغرقت فيما يشبه الأحلام. ثم لم تلبث أن أغمضت عينيها.

* * *

وفي هذه الأثناء كان مونت كريستو قد بلغ المنزل الذي ابتاعه له خادمه الأبكم النوبي (علي) في الشانزليزيه. ولم تكد المركبة تقف أمام باب الحديقة حتى هرع لاستقبال الكونت كل من وصيفه برتسيو والخادم النوبي.

وقضى الكونت بقية يومه وهو يتفقد منزله الجديد.. ثم أمر برتسيو بإعداد المركبة ثانية.وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله، عندما غادر الكونت الدار بصحبة وصيفه وأمر حوذي المركبة بالذهاب إلى المنزل رقم ٢٨ شارع لافونتين.واضطرب الوصيف

ظهراً لبطن، واصفر وجهه. ثم رسم إشارة الصليب على صدره.

* * *

ولم تمض عشرون دقيقة حتى وصلت المركبة إلى (أتويل). وكان تأثر الوصيف وقلقه يزدادان كلما أوغلت المركبة في القرية.وبعد خمس دقائق أخرى وقفت المركبة أمام المنزل المنشود. وقفز السائق إلى الأرض وفتح برتسيو باب المركبة. فظهر البواب في تلك اللحظة، وهو يقول: من هذا؟

فأجاب الكونت وهو يقدم له عقد البيع: أنا مولاك الجديد.

ثم سكت لحظة.. واستطرد: ما اسم سيدك السابق؟

– اسمه الماركيز دي سان ميران.. وهو صهر مسيو دي فيلفور الذي كان نائباً عاماً في (نيمس) ثم في (فرساي) وزوجة مسيو دي فيلفور هي الابنة الوحيدة التي رزق بها الماركيز.

فقفز الكونت من المركبة، وهو ينظر إلى وصيفه الذي ازداد اصفرار وجهه.وتقدم الكونت من الباب وهو يقول للبواب، دون اكتراث:

– آه.. تلك الابنة التي قضت نحبها منذ عهد قريب على ما أظن. والآن هلم يا برتسيو احمل المصباح. وسر أمامي.

فأطاع الوصيف في سكون. وسار يتقدم سيده إلى الطابق الأول وبعد أن تجولا فيه قليلاً.. خرجا إلى الردهة. فوجدا درجا حلزونيا يقود إلى الحديقة.. فصاح الكونت:

– آه.. هوذا سلم سري.. هذا غريب! أضيء الطريق يا برتسيو كي أرى إلى أين ينتهي هذا الدرج؟

فتنهد الوصيف.. ولكنه رضخ للأمر.. فتقدم مولاه. ونزل الدرج.. وعندما وصلا إلى الحديقة.. وقف برتسيو كأنما سمر في مكانه.

فقال الكونت: هيا تقدم يا برتسيو..

ولكن الوصيف كان يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه.. وبلغ به الذعر كل مبلغ وأخذت عيناه تجولان في أنحاء المكان، وكأنهما تبحثان عن أثر شيء مريع.

قال الكونت في إصرار: تقدم.

فصاح برتسيو: كلا. كلا.. إن هذا مستحيل. لا أستطيع أن أتقدم.

فسأل الكونت بصوت أجش: ما معنى هذا؟

– معناه يا مولاي أنك لم تقع على هذا المنزل بطريق الصدفة. بل لا يمكن أن يتفق أنك تطلب شراء هذا المنزل بالذات. وهناك مئات أفضل منه..آه.. لماذا لم أحدثك بالحقيقة كلها. لو أني فعلت ذلك لما اضطررتني إلى المجيء إلى هنا.. وكنت آمل أن يكون منزلك غير هذا.. ولكن يخيل إلى أنه لم يعد في (اتويل) غير منزل الجريمة.

فوقف مونت كريستو على حين غرة.. وهتف:

– لماذا أنت خائف يا برتسيو.. تقدم يا رجل وسر بي إلى الحديقة.. ولا تنزعج من الأشباح مادمت معي.

فجفف برتسيو العرق المتصبب على جبينه.. ثم أطاع مكرها.. غير أنه كان يميل في سيره إلى الجهة اليسرى تدريجياً، وكأنما أدرك الكونت غرضه. فسار في الناحية المضادة. وبلغ عدة أشجار مجتمعة.. وهنالك توقف.

وهنا لم يستطع الوصيف المسكين أن يتمالك أعصابه.. فصاح بسيده:

– تحرك يا مولاي.. ابتعد قليلاً.. أتوسل إليك.. إنك تقف في المكان عينه!

– أي مكان؟

– المكان الذي سقط فيه!

فقال الكونت في برود:

– يخيل إلي أنك جننت يا برتسيو..

– كلا يا سيدي.. أنني لم أجن..

– أصغ إلي يا برتسيو. إنك شديد الانفعال. والذعر لدرجة تبعث على الاعتقاد بأن الشياطين قد تقمصت في جسدك رغم أن الشياطين أكثر عناداً من أن تتقمص في أجساد تقطنها نفوس مظلمة.إني أعلم أنك تفكر دائماً في تاريخ قديم يحوم حول انتقام خاص طالما تحدثت عنه في إيطاليا.. ولكنك ولا ريب تعلم أن الحالة في فرنسا غيرها في إيطاليا وأن باريس تعج برجال البوليس الذين يعرفون كيف يقبضون على المجرمين ويقتصون منهم.

وإنه ليخيل إلي الآن أن القسيس (بيزوني) لم يحدثني عنك بصراحة ولم يصدق فيما ذكره لي بشأنك، حينما كان في سياحته في فرنسا في سنة ١٨٢٩. وأرسلك إلي ومعك خطاب منه. عدد فيه مناقبك. وقد انتويت أن اكتب للأب (بيزوني) وأحمله المسئولية التي تنجم عن سوء تصرفك. وإذ ذاك أستطيع أن أعرف كل شيء تريد إخفاءه عني.

فألقى برتسيو بنفسه عند قدمي الكونت. وهو يصيح:

– لو عرفت الحقيقة يا مولاي. لرثيت لحالي فأنا فقط انتقمت لنفسي.

– حسنا.. ولكني أريد أن أعرف ماذا في هذا المكان له مثل هذا التأثير الشديد عليك؟

فقال الوصيف في صوت عميق: في هذا المكان تم انتقامي يا مولاي.

– ممن..؟

– من مسيو دي فيلفور..

فتصنع الكونت التفكير.. وقال: النائب العمومي في نيمس سابقاً.

– نعم يا مولاي.. لقد كان نذلا دنيئاً..

فقال الكونت: عجبا لك. ألا تخشى أن أسلمك للعدالة لتقتص منك؟

فجثا الوصيف عند قدمي مولاه وقال:

– إن ما قمت به خلال المدة القصيرة التي قضيتها في خدمتك خير دليل على إخلاصي وأمانتي. ولكني سأفضي إليك بكل شيء.. واعترف لك بما ارتكبت يداي.. وبذلك أصغ حياتي تحت رحمتك.. تلك الرحمة التي أؤمن بها أكثر من إيماني بعدالة القضاء ورحمته.

فقال الكونت وهو يجلس على مقعد قريب:

– حسنا.. إني مصغ إليك.. فتكلم.

* * *

قال ترتميو:

– إن القصة تبدأ في سنة ١٨١٥عندما كنت أقيم مع شقيقي الأكبر في قرية (روجليانو) وحدث أن انتظم أخي في سلك الجندية، وأصبح (ملازماً) في فرقة جميع جنودها من الكورسيكيين.. ولا يخفى أن نابليون كان كورسيكي الموطن ولذلك لم تكن ترى في الجيش الفرنسي جميعه فرقة أكثر تحمساً للإمبراطور وأكثر استعداداً لبذل آخر نقطة من دمائها في سبيله من تلك الفرقة.فعندما عاد الإمبراطور نابليون من جزيرة (ألبا) لحق به أخي مع فرقته إلى موقعة (ووترلو) حيث أصيب بجرح بالغ، وتقهقر مع الجيش إلى ما وراء اللوار.

وفي أحد الأيام وصلتني رسالة من أخي يخطرني فيها أن الجيش تمزق وتشتت وأنه سيعود إلينا عن طريق شاتيرو وكلير مونت ونيمس. ويتوسل إلى أن أترك له أي مبلغ من المال عند صاحب إحدى الحانات في نيمس.وكان معي وقتئذ ألف فرنك، فتركت نصفها مع (إسباثيا) زوجة أخي. وسرت إلى نيمس بالنصف الثاني.

وحدث في تلك الأثناء أن وقعت مذابح جنوب فرنسا المشهورة التي قتل فيها علنا وعلى مرأى من رجال الحكومة كل من ينتمي إلى نابليون بونابرت.وعندما

وصلت إلى الحانة المتفق عليها في نيمس علمت أن أخي كان إحدى ضحايا هذه المذابح.وقد حاولت عبثاً أن أتعرف على القتلة للثأر منهم.. فلما أعياني البحث فكرت في العدالة الفرنسية التي سمعت عنها الشيء الكثير.. فسارعت لمقابلة النائب العمومي أبثه شكواي.

فقال مونت كريستو في قلة اكتراث:

– وذلك النائب العمومي هو دي فيلفور؟

– نعم يا سيدي الكونت.. ولقد ذهبت إليه. وقصصت عليه قصتي، ورجوته في أن يعمل على وضع الحق في نصابه.. وأن يأخذ المجرمين بجرمهم.. ولكنه سخر مني.. وقال "إن لكل ثورة ولكل مذبحة ضحايا.. وأخوك ذهب ضحية المذبحة. والحكومة تعد المذابح الثورات كنكبات وكوارث من فعل القدر. فليس لها والحالة هذه أي تعويض يرجى".

وإذ ذاك صحت في وجهه: أتقول ذلك وأنت النائب العمومي؟

فقال دي فيلفور وكأنه يحدث نفسه:

– الواقع أن هؤلاء الكورسيكيين جميعاً مجانين.. فهم يحسبون ابن وطنهم ما زال إمبراطوراً.. أغرب عن وجهي يا رجل أو اضطرك إلى ذلك.

فاقتربت منه وقلت بصوت خافت:

– كأني بك لا تجهل أن الكورسيكي لا يرجع في وعده.. إذن فاعلم أنني سأقتلك. ومنذ هذه اللحظة سأرفع سيف الثأر فوق رأسك.

وهرولت من الغرفة، قبل أن يفيق من هول المفاجأة.. ورحت أتربص به الفرص، ولكنه كان حريصاً فلم يكن يغادر داره إلا وهو محاط بثلة من الجنود..ويبدو أنه سئم كثرة الحذر ومضايقات الجند، فطلب أن ينقل من نيمس. وأجيب إلى طلبه فنقل إلى فرساي.ولكنني تعقبته إليها.. والواقع أنه تهيأت لي فرص كثيرة لقتله. ولكنني أحجمت لأنني كنت مصمماً على ألا أوخذ بجريرته.

وبعد أن راقبته ثلاثة شهور. استطعت أن أعرف أنه يكثر من التردد على المنزل الذي نحن فيه الآن.. ولكنه لم يكن يدخل من الباب العمومي. وإنما من باب الحديقة الصغيرة.. ووقفت على جميع المعلومات التي أنا بحاجة إليها.. فانتهى إلى أن هذا المنزل كما هو الآن ملك للماركيز دي سان ميران. إلا أن الماركيز كان قد أجره لإحدى الأرامل.. التي اشتهرت بين أهل (اتويل) باسم البارونة فقط..ففي إحدى الليالي كنت أقوم بجولتي المعتادة حول ذلك القصر، فأرسلت بصري إلى ما وراء السياج ورأيت امرأة في مقتبل العمر على جانب كبير من الجمال.وكانت تسير في الحديقة جيئة وذهاباً.. فأدركت أنها في انتظار غريمي دي فيلفور.

وحدث أنها دنت من المكان الذي كنت أراقبها منه. وتبينت وجهها فإذا هي لا تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها.. واستنتجت من حالتها العامة.. ومن نظام جسمها أنها حامل..

وأقبل دي فيلفور في تلك اللحظة. فأسرعت الغادة لاستقباله.. وتعانقا بحرارة.. ثم سارا معاً إلى المنزل.. ومرت ثلاثة أيام.. وأنا مستمر على مراقبتي للمنزل.. ففتح الباب الصغير وخرج منه أحد الخدم. امتطى جواداً انطلق به بأقصى سرعة في الطريق المؤدي إلى سيفر.

وفي الساعة العاشرة مساء عاد الخادم. ومرت عشر دقائق أخرى، أقبل بعدها رجل يلتف في وشاح كبير يكسوه من فرعه إلى أخمص قدمه.. وفتح باب الحديقة واجتازه، ثم أوصده خلفه.وبالرغم من أنني لم أر وجه الرجل. إلا أنني كنت واثقاً أنه غريمي دي فيلفور.وهنا خيل إلي أن الفرصة قد سنحت للثأر.. فاستللت خنجري ووضعته بين أسناني. ثم قفزت فوق السياج ومنه إلى الحديقة.وأسرعت بالاعتصام خلف أقرب شجرة إلى الطريق الذي يسير فيه دي فيلفور وأنا آمن مطمئن. ولم يكد يستقر بي المكان حتى خيل إلي أنني أسمع مع زفيف الريح صوت أنين عميق.

وعندما دقت الساعة منتصف الليل، رأيت نوراً ضئيلاً يضيء عند الدرج الصغير

الخاص الذي هبطنا منه الآن إلى الحديقة.. ثم ظهر الرجل المتشح بذلك الوشاح الأسود الطويل.. والذي كنت أثق أنه دي فيلفور.فأمسكت بمقبض خنجري. وتحفزت للوثوب.

وجعل الرجل يقترب مني.. ولكني استطعت أن أرى بين يديه شيئاً.. ولما أصبح مني على قيد خطوات تبينت أن ذلك الشيء لم يكن إلا معول.

وعجبت في نفسي لذلك. ولكن لم يطل عجبي. إذ سرعان ما اقترب الرجل من الأشجار التي ربضت وراءها. ثم أجال بصره حوله حتى إذا استوثق من خلو المكان من الرقيب، طفق يحفر حفرة في الأرض.ولما انتهى من الحفر؛ حمل صندوقاً كان يخفيه تحت وشاحه، ووضعه في الحفرة وبدأ يهيل عليه التراب.

وعندئذ.. وثبت عليه ودفنت خنجري في ظهره. فاخترق قلبه.. وكنت أقول بصوت مخيف: هأنذا جيوفاني برتسيو. إني أنتقم لأخي.

سقط الرجل مخضباً بدمائه دون أن ينبس ببنت شفة.. فحملت الصندوق لفوري وأسرعت إلى الخارج عدوا.فلما وصلت إلى حافة النهر. خطر لي أن أرى محتويات الصندوق.. ففتحته.. ولشد ما كانت دهشتي عندما رأيت بداخله طفلاً حديث الولادة..كان على وشك الاختناق. فأسعفته بالتنفس الصناعي حتى عاد إليه تنفسه الطبيعي.

وكان الطفل ملفوفاً بقطعة من القماش عليها حرفان يدلان على اسمه واسم عائلته.. فشطرت القطعة شطرين. كلا منهما يحمل حرفا.. واحتفظت بأحدهما معي وتركت الآخر مع الطفل..وأسرعت إلى أحد الملاجئ فأودعت الطفل.. ثم عدت إلى زوجة أخي أقص عليها ما فعلت. وأزف إليها بشرى الثأر لأخي.

وتنهدت المرأة.. وقالت: جيوفاني..كان يجدر بك أن تأتي معك بالطفل. لنتخذه ولداً ونطلق عليه اسم (بنديتو) عسى الله أن يغفر لنا ويباركنا..

فأجبتها بأن أعطيتها قطعة القماش.. وتركت لها حرية طلب الطفل من الملجأ..

سأل مونت كريستو: وما هما الحرفان اللذان وجدتهما على قطعة القماش؟

حرفا (هـ) و(ن) وعليهما تاج البارونية..

– حسنا.. استمر في قصتك يا برتسيو..

– وأردت أن أسدل ستاراً كثيفاً على الماضي.. وأن أقوم على تعهد شئون أرملة أخي المسكينة فاضطررت مكرها إلى الاندماج في مهنة تهريب البضائع.وقد كنا نربح كثيراً من تلك المهنة.. ولم أكن قد عدت إلى نيمس منذ قتل أخي فيها. فنجم عن ذلك أن اضطر صاحب الحانة التي كنا نتردد عليها جميعاً إلى ترك نيمس وافتتح حانة جديدة في طريق بلجارد وبوكير..وحدث ذات يوم أن كنت أتأهب للقيام برحلة جديدة.. وإذ ذاك قالت لي أرملة أخي: اذهب وعند عودتك ستجد مفاجأة مدهشة في انتظارك.

ولم أعر كلامها وقتئذ أدنى اهتمام.. ولكنني عندما عدت من الرحلة رابحاً منتفخ الجيوب كان أول ما وقع عليه بصري، طفلاً في الشهر الثامن من عمره. ينام نوم الأبرار في مهد صغير أنيق..وكان ذلك الطفل هو ثمرة جريمة دي فيلفور.. ولكن للأسف يا سيدي أن جعل الله هذا الطفل نقمتنا.. ومن المستحيل أن تبذر حبة فاسدة وتجد عودا طيباً..وترعرع الطفل.. وبلغ اليفاعة.. وصار غلاماً جميلاً، واسع العينين أزرقهما. فشب على تدليل (اسباثيا) له ولكنه كان شريراً لصاً بالسليقة مجرماً من نشأته.

وحدث يوماً أن سرق من جار لنا برتقالتين.. وعندما هددته بالضرب تقهقر أمامي خطوتين.. وصاح: ليس من حقك أن تضربني لأنك لست أبي.

وقد راعني جواب الغلام، فسقط ذراعي إلى جانبي.وكان لوسيان شاباً أنيقاً طويل القامة، جذاب الملامح. أزرق العينين.. كثير انضمام الشفتين.

ولما بلغ الحادية عشرة كان يسيء معاملة (اسباثيا) ولا يكف عن مطالبتها بالنقود.. ولما كانت تحبه وتعطف عليه، فقد كانت تخفي عني كل شيء وتعطيه ما يطلب.

وأخيراً لم أجد بدا من اصطحابه معي في رحلاتي، فرحت أغرر به وأزين له حياة السفن والبحار..ورحلنا بعد ذلك إلى فرنسا من أجل صفقة جديدة.. ورسونا في خليج ليون، وكانت الرقابة فيه على أشدها بعد إبرام الصلح مع أسبانيا.

وتمت الصفقة وفق ما نشتهي. وخرجنا من خليج ليون. واندسسنا بين السفن بالقرب من ساحل نهر الرون. حتى إذا جن الليل بدأنا نفرغ شحنتنا. وننقلها إلى المدينة بمساعدة أصحاب الحوانيت الذين كنا بهم على اتصال وثيق.

ولا ندري أهو الفوز قد أخرجنا عن حد الحيطة. أو أن هناك من وشي بنا. إذ حدث في مساء أحد الأيام حول الساعة الخامسة أن أقبل علينا أحد غلمان السفينة وهو يلهث. وقال أنه رأى ثلة من البوليس وضباط الجمرك يتقدمون إلى ناحيتنا.. هالني ذلك. فأسرعت إلى كوة في قبو السفينة. وألقيت بنفسي في الماء ونجوت بجلدي.

كنت أعتقد أن البوليس إنما جاء ليقبض علي وحدي. بسبب الجريمة التي اقترفتها في ذلك المنزل.. فأطلقت ساقي للريح، ويممت شطر تلك الحانة التي أخبرتك أن صاحبها انتقل من نيمس بسبب رحيلنا عنها..

فسأل الكونت في قلق: وما اسم ذلك الرجل؟

– اسمه جسبار كادروس وهو متزوج بامرأة من قرية كاركونيت ولم يكن لها اسم تعرف به غير اسم قريتها..

فسأل الكونت: وفي أي وقت حدث ذلك؟

– في مساء اليوم الثالث من شهر يونيه سنة ١٨٢٩

– آه.. حسنا.. استمر.

وتسلقت سياج الحديقة القفراء التي تحيط بالحانة. وسرت إلى كوخ من القش طالما قضيت فيه ليلتي قبل ذلك اليوم.

وكان يفصل ذلك الكوخ عن الحانة قاعة صغيرة بجدرانها ثقوب يتاح لنا منها إعلان كادروس بحضورنا.تمددت في تلك القاعة.. ولم أكد أفعل ذلك وانظر من خلال أحد الثقوب حتى دخل كادروس الحانة وبرفقته رجل آخر.

وكان رفيق كادروس من الغرباء، ويختلف في لهجته وثيابه الاختلاف كله عن أهل الجنوب. كان أحد أولئك الذين يتجرون بالأحجار الكريمة. إذ لم يكد يستقر به المقام، حتى نادى كادروس زوجته.. ثم أخرج من دولاب جانبي صغير ماسة وهاجة قدمها للقادم.

وفحص القادم الماسة ثم قال أنه مستعد لشرائها بمبلغ أربعين ألف فرنك.. بيد أن كادروس أصر على أن يأخذ خمسين ألفاً.ورفض التاجر.. ثم أضاف بأن عرض هذه الماسة على غيره، قد يوقع الزوجين في مشاكل لا قبل لهما على دفعها لأنهما فقراء.

وعندئذ طفق كادروس يقص عليه قصة مؤداها أن راهباً يدعى (بيزوني) زارهما في صباح ذلك اليوم؛ وقدم إليهما تلك الماسة على أنها مهداة لهما من أحد أصدقاء كادروس. واسمه أدمون دانت.. لاقى حتفه في سجن إيف.وأخيراً وبعد مساومات طويلة، قبل التاجر أن يدفع خمسة وأربعين ألف فرنك.وتمت الصفقة، واستولى الزوجان على المبلغ، كما أخذ التاجر الماسة وتهيأ للرحيل.. فدعاه كادروس لتناول العشاء معهما ولكنه اعتذر بأن الوقت متأخر.

وكانت الليلة عاصفة.. فلم يكد التاجر يضع قدمه خارج الحانة حتى هبت لفحة هواء قوية كادت تطفئ المصباح.. فقال:

– حقاً أن السير مرحلتين في جو كهذا ليس مما يستهان به.

فقال كادروس: إذن فابق هنا. وفي استطاعك أن تمضي ليلتك بيننا

فاعتذر التاجر للمرة الثانية. ثم انطلق في سبيله.والتفتت المرأة إلى زوجها وسألته في صوت أجش:

– لماذا كنت تدعوه ليقضي الليلة بيننا؟

فارتجف كادروس وقال مذهولاً:

– لماذا؟ لأن الطقس رديء والوقت متأخر.

فقالت المرأة في لهجة غريبة. وهي تنظر إلى الرجل نظرة خاصة:

– أحقاً تقول؟خيل إلي أن لك غرضاً من ذلك، والواقع أنك خيبت ظني لأنك تركته يغادر هذا المكان حياً.

فهتف كادروس غاضباً: سحقاً لك أيتها الأفعى؟ صه. ألا تسمعين.

وفي تلك اللحظة اهتزت جدران الحانة بدوي الرعد القاصف.. وتألق البرق بشدة. وفجأة طرق الباب.. فأسرع كادروس إليه. وفتحه. فإذا القادم هو التاجر بعينه.ودخل التاجر.. وماء المطر يتقاطر من ثوبه. وكان يقول:

– سيدي.. إنك كنت على حق حين عرضت علي ضيافتك، فقد خيل إلي بعد انصرافي من لدنك بدقائق أنني لن أصل إلى بوكير.

فتبسمت كاركونيت. ونظرت إلى زوجها نظرة ذات مغزى.

وغمغم كادروس بضع كلمات. وهو يجفف العرق المتصبب على جبينه!

أما كاركونيت فإنها عنيت بإغلاق الباب بالقفل والمزلاج.

* * *

وبعد برهة تحول كادروس إلى التاجر. وقال: يخيل إلي أنك متعب فهلم بنا إلى الغرفة التي ستقضي فيها ليلتك بالطابق العلوي.

وصعد الرجلان.. وبعد لحظة سمعت وقع أقدامهما فوق رأسي تماماً ومضى الوقت. والزوبعة تزداد عتواً وجبروتاً.. ولما كنت متعباً فقد غلبني النوم على أمري.ولم أدرك بقيت نائماً. ولكنني استيقظت على صوت طلق ناري تلته صيحة هائلة.ثم وصل إلى مسمعي وقع خطوات ضعيفة مضطربة صادرة من الغرفة العليا.

وبعد لحظة. شعرت بسقوط جسم ثقيل لين على درجات السلم.. وقبل أن أفيق من دهشتي سمعت أنينا عميقا يمتزج باستغاثة مبتورة.. وصيحات فجائية كالتي تصدر من شخص مشتبك في عراك مميت. اعتمدت جسمي على ذراعي، وأجلت بصري حولي فلم أر إلا ظلاماً دامساً..

وأعقب تلك الأصوات المخيفة التي أيقظتني بذلك النحو المفزع صمت تام لا يمزقه غير وقع أقدام شخص يسير في القاعة العليا جيئة وذهاباً.

وبعد فترة قصيرة هبط كادروس إلى الحانة.. وكان مصفر الوجه مرتبكاً وقد تخضب كما ثوبه بالدم.

وكان يحمل بين كفيه علبة متوسطة الحجم.. فلفها بالمنديل الأحمر الذي كان يحيط به رأسه. ثم فتح باب الدولاب وتناول منه الحافظة والحقيبة المنتفختين بثمن الماسة.وهرول إلى الباب ففتحه.. ولم يلبث أن اختفي في ظلام الليل البهيم.وإذ ذاك وضح لي كل شيء. فأسرعت إلى الحانة. واختطفت الشمعة ووثبت إلى الدرج.

ولم أكد أتوسط الدرج حتى اصطدمت بجثة آدمية ملقاة فوقه.. وإذا انحنيت لرفعها، تبينت وجهها فعرفت لفوري أنها جثة كاركونيت.ورأيت في عنقها ثقباً يسيل منه ومن فمها الدماء. فأدركت أنها ماتت بالمقذوف الناري الذي أيقظني من نومي.

ارتقيت الدرج وثبا إلى الغرفة العليا. فوجدتها في حالة سيئة من النظام والارتباك. وكان التاجر ملقى على الأرض ورأسه مستند إلى الجدار.. وجثته تسبح في بحيرة من الدماء تمدها ثلاثة ثقوب كبيرة من صدره كان الدم لا يزال ينفر منها.

قفزت إلى السلم وأنا ممسك برأسي بين كفي لهول ما رأيت. وطفقت أصرخ بصوت مزعج.ولم أكد أصل إلى القاعة السفلى حتى رأيت أمامي خمسة أو ستة ضباط من بوليس الجمارك، ومعهم ثلة من الجند أحاطوا بي حالما وقع بصرهم علي..وألجم لساني من فرط دهشتي وخوفي.. فقادوني إلى المخفر.. وهناك اتهموني بأنني مدبر المجزرة التي حدثت في حانة كادروس..

وأدركت حرج مركزي.. ولم تعد أمامي غير فرصة واحدة وهي أن أطلب إلى أول محقق أقف بين يديه أن يبحث عن راهب يدعى القسيس (بيزوني) مر في صباح ذلك اليوم بحانة بونت دي جارد.. فإذا كان كادروس قد لفق قصة الماسة.. وكانت شخصية القس (بيزوني) من بنات أفكاره، كان معنى ذلك هلاكي المحقق.

ومر شهران وأنا في انتظار مفزع.. والواقع أن المحقق بذل كل جهده للعثور على الشخص الذي يثبت وجوده براءتي، ولكن دون جدوى.

وكان في النية تحديد أقرب يوم للنظر في قضيتي.. ولكن حدث وقتئذ ما لم يكن في الحسبان.. فكأنما لم ترد السماء أن أوخذ بجريمة غيري.. فجاء القسيس بيزوني في يوم ٨ سبتمبر، وقدم نفسه للمحقق قائلاً أنه علم أن أحد المسجونين يطلب مقابلته. وأنه جاء خصيصاً لهذا الغرض.

ومن العبث أن تتصور يا سيدي بأي احترام لقيته! وبأي دقة سردت عليه قصتي وصورت له ما سمعت وما رأيت.وقد ظهرت على وجهه إمارات القلق حين حدثته عن قصة الماسة ولكم كانت دهشتي عندما وجدته يؤمن عليها ويصدق على كل ما جاء على لساني في التحقيق.

ولما غادرني كنت مفعم القلب سروراً وأملاً. إذ وعدني بالبحث عن المجرم وتقديمه للقضاء وإظهار براءتي.

وتشاء الظروف أن يقبض البوليس على كادروس، ويضيق عليه الخناق فيعترف بجرمه. ويحكم عليه بالسجن المؤبد، ويصدر في الوقت نفسه الأمر بإطلاق سراحي.

قال مونت كريستو: ومن ثم جئتني توا تحمل رسالة توصية من ذلك الرجل الطيب الأب بيزوني؟

– نعم يا سيدي.

فقال الكونت:

– حسناً يا برتسيو. وأنا لا ألومك على كل ما مر بك إلا على شيء واحد.. هو

أنك لم تضع ثقتك في كما يجب،لأنك لم تحدثني عن زوجة أخيك وولدك بالتبني قبل الآن؟

قال برتسيو بحزن:

– لأنني لم أر أن أحدثك بهمومي ومتاعبي.. بل إنني فيما سردت عليك كله لم أشر إلى أيام تجرعت فيها كأس الشقاء والألم حتى الثمالة. إنني عندما عدت إلى قرية (روجليانو) وجدت منزلي مرتعا للهم والأسى.. وصورة جديدة لمأساة مؤلمة لا يزال أهل القرية يتحدثون عنها حتى الساعة.ذلك أن زوجة أخي ضاقت ذرعاً بكثرة مطالب (بنديتو).. فقبضت يدها عنه. فكان لذلك أثره في نفسية الشاب الشرير وعول على الانتقام منها. وفي أحد الأيام عاد الشقي إلى المنزل ومعه اثنان من أقسى زملائه وأسوأهم.

وعندما رأته المرأة المسكينة نهضت إليه تعانقه. وقد نسيت كل شيء إلا فرحها برؤياه. ولكنه دفعها بعنف. وقبض رفيقاه على ذراعيها.. وقال بنديتو:

– إذا رفضت هذه المرأة العجوز أن تخبرنا بالمكان الذي تخبئ فيه نقودها. فإننا سنعرف كيف نحل عقدة لسانها ونحملها على الكلام قسرا.

واعتقدت المرأة المسكينة أنهم يهزلون في كل ما فعلوا. فلم تفارق الابتسامة الملائكية شفتيها. وكان بنديتو منهمكاً في غلق الأبواب والنوافذ في تلك اللحظة.. ثم عاد وعلى شفتيه ابتسامة شريرة.وإذ رأت المرأة ذلك كله دب الخوف إلى قلبها. وحاولت التملص من جلاديها أو الاستنجاد. بيد أن الشياطين الثلاثة كانوا أحرص من أن يدعوا صوتها يغادر شفتيها. ثم حملوها بين أيديهم إلى الموقد المتأجج وبكل وحشية وقساوة، وضعوا قدميها فوق تلك النيران. ثم وقفوا ينتظرون تصريحها بالمكان الذي تودعه المال.

وفيما هم يضحكون لاهين، وهي تحاول التخلص من أيديهم. اتصلت النيران بثيابها، واضطر أولئك الشياطين أخيراً أن يتركوها حتى لا يشاطروها ما قدر

لها.واندفعت المرأة المسكينة إلى الباب بفزع، ولكنه كان موصداً.ووصلت النيران إلى جسدها.. ولم تلبث أن التهمته حتى غدا كومة من رماد.

وكانت زوجة جارنا واسيلي. قد سمعت ورأت كل شيء ولكنها لم تجرؤ على الدخول خشية أن يبطش بها الأشقياء. واختفى بنديتو من قرية (روجليانو) ومنذ ذلك العهد لم أره ولم أسمع عنه شيئاً.

هذه يا مولاي هي كل قصتي. ومنها تعلم أن عودتي إلى هذا المكان لأول مرة ومشاهدتي هذه الحديقة التي كانت مسرحاً لجريمتي. كانتا لابد أن تثيرا في نفسي الشعور بالندم والألم معاً.

فقال الكونت وهو ينهض واقفاً: قد يكون الأمر كذلك.

ثم أردف في صوت خافت:

– وسواء كان دي فيلفور مات أو لم يمت، فإن الأب بيزوني قد أحسن عملاً بإرسالك إلي.. وكذلك أحسنت أنت صنعاً بإقدامك على سرد تاريخ حياتك بأكمله على مسمعي.والآن دعني بمفردي، لأني أريد أن أخلو إلى نفسي.

فأحنى برتسيو رأسه بكل احترام. ثم دار على عقبيه وعاد وهو يتنهد.

ولما اختفى الخادم نهض مونت كريستو وتقدم بضع خطوات ثم غمغم:

– هنا في هذا المكان لابد أن يكون قبر الطفل.

وهناك يوجد الباب الصغير الذي يؤدي إلى الحديقة.. وفي هذا الركن توجد درجات السلم الذي يؤدي إلى قاعة النوم.. فلا داعي إذن لكتابة هذه الملاحظات في مذكرتي.وبعد أن تجول الكونت في الحديقة قليلاً، غادر المنزل واستقل مركبته الفاخرة.. وكر راجعاً إلى قصره الأنيق في الشانزليزيه.

وفي المساء نادى الكونت خادمه النوبي الأبكم (علي).. وقال له:

– الساعة الآن الحادية عشرة. ولابد أن تعود (هايدي) بعد قليل فهل استعد

الخدم لاستقبالها؟

فأشار الزنجي بأصبعه إلى الغرفة الأنيقة التي أعدت (لهايدي) اليونانية الحسناء.. وكانت في الطرف الآخر من الجناح الذي يخص الكونت وأشار علي بأصبعه كذلك.. ثم أبرز ثلاث أصابع أخرى وحركها ثم مال برأسه فوق كتفه وأغمض عينيه كما يفعل النائم.

فقال الكونت وقد فهم ما يقصده النوبي الأبكم.

– لقد فهمت.. أنت تعني أن الوصيفات الثلاث ينتظرن سيدتهن في مخدعها.

وفي تلك اللحظة سمع الكونت صوت فتح البوابة الحديدية الكبيرة فهبط الدرج مسرعاً. ووقف أمام المركبة، وكان بابها قد فتح.. فمد ذراعه وساعد غادة حسناء برزت من داخل المركبة على النزول.

أما الفتاة فإنها تناولت اليد الممدودة إليها.. ورفعتها إلى شفتيها بحب واحترام ثم دار بينهما حديث طويل باللغة اليونانية.ثم قصد الاثنان إلى القصر.. وبعد ساعة أطفئت الأنوار كلها وخيل كأن من به قد آووا جميعاً إلى مضاجعهم.

الفصل الحادي عشر

وفي الساعة الثانية بعد ظهر اليوم التالي وقفت مركبة أنيقة يجرها جوادان انكليزيان قويان أمام قصر الكونت دي مونت كريستو، وفتح بابها ثم أطل منها رجل يرتدي ثياباً زرقاء لها أزرار من لونها، وصديرية بيضاء تتدلى منها سلسلة ذهبية كبيرة وسروال سنجابي.

وكان الشعار المطبوع فوق باب المركبة يشير إلى أن صاحبها يتمتع بلقب (بارون).وقفز سائق المركبة من مكانه، ثم اقترب من كوخ البواب وسأله عن مولاه الكونت.

فأجاب البواب:

– إن سموه يقطن هنا.. ولكنه لا يقابل الزائرين اليوم.

– إذن خذ بطاقة سيدي إليه، وأبلغه أن لولا رغبته في الإسراع بالذهاب إلى مجلس الشيوخ لتشرف بمقابلة الكونت.

قال البارون لنفسه: يالله! يخيل إلي أنه من الأمراء وليس (كونتا) وإلا لما دعوه بصاحب السمو.على كل حال لابد لي أن أقابله في أحد الأيام مادامت في يده كمبيالات محولة باسمي.. ومن المحتم أن يطلب قيمتها إن عاجلاً أو آجلاً.

قال ذلك وغاص في مقعده الوثير.. ثم أمر السائق بالذهاب إلى مجلس الشيوخ.

* * *

وكان الكونت يعلم مقدماً بهذه الزيارة، لأنه كان مختفياً وراء الستار في مخدعه. وبين يديه منظار مكبر يراقب به تقاطيع وجه البارون دنجلار وحركاته.وبعد انصراف البارون دعا الكونت وصيفه برتسيو إليه وقال له:

– أصغ إلي يا برتسيو.. إني رأيت جوادي مركبة البارون دنجلار.. وقد أعجبني منظرهما فعليك أن تبتاعهما بأي ثمن.

فسأل برتسيو: في أية ساعة يريد مولاي أن تعد المركبة؟

– في الساعة الخامسة..

– إذن فسيكون الجوادان مشدودين إليها في هذا الموعد.

* * *

وعندما دقت الساعة الخامسة تماماً. طلب الكونت وصيفه.. فأقبل هذا على الفور.

قال الكونت: هل ابتعت الجوادين؟

– إنهما بمركبة سموكم على استعداد تام..

فسار الكونت إلى باب القصر. وهناك رأى مركبته وبها الجوادان المنشودان اللذان أعجبه منظرهما..

سأل برتسيو: أي أمر يرغب سمو الكونت في إصداره للسائق؟

– قل له أن ينطلق بي إلى منزل البارون دنجلار. شارع شوسييه دانيتي.

وعندما تهيأ الوصيف للانسحاب. استوقفه الكونت قائلاً:

– أصغ إلي يا برتسيو.. أنني بحاجة إلى إحدى ضياع (نورمانديا) الملتصقة بساحل البجع، على أن يكون لهذه الضيعة ميناء أو خليج صغير يصلح لرسو سفينتي.. فعليك أن تجد هذه الضيعة. وأن تحرر وثيقة بيعها باسمك.. فإذا تم لك كل ذلك أصدرت الأوامر لرباني السفينة واليخت بأن يكونوا على استعداد للرحيل عندما أطلب إليهما ذلك مباشرة.

– سمعاً وطاعة يا مولاي.

– صبراً أنني لم أفرغ من حديثي بعد، فحين تنتهي الضيعة إليك، ضع طائفة من

الجياد على أبعاد متساوية وعلى طول الطريق من الشمال إلى الجنوب.

– ثق بي يا مولاي!

فابتسم الكونت وأمر السائق بالمسير.

* * *

وأخيراً وصلت المركبة إلى منزل البارون دنجلار. وكان هذا يرأس إذ ذاك اجتماعاً لمديري السكك الحديدية في منزله.

وعندما دخل الخادم يعلن سيده بقدوم الكونت دي مونت كريستو نهض البارون واقفاً.. وقال يحدث المديرين: أيها السادة.. إني أرجو معذرتكم لاضطراري إلى إنهاء هذا الاجتماع على شكله الحالي.. ثم أحنى رأسه للقوم، وانسحب إلى غرفة الاستقبال..

وأدار الكونت دي مونت كريستو رأسه ببطء وتثاقل حالما سمع وقع خطوات البارون دنجلار.

وأومأ البارون برأسه إلى الكونت أن يجلس في مقعد كبير مذهب يكسوه غطاء من الحرير المزركش.. فأطاع الكونت وقال البارون:

– أظن أنني أتشرف الآن برؤية مسيو دي مونت كريستو.

فأحنى الكونت رأسه.. وأجاب: وأظنني أيضاً أتشرف بالتحدث مع فخامة البارون دنجلار صاحب وسام اللجيون دونور.. وعضو مجلس الشيوخ.

فعض دنجلار على شفته لأن كلمات الكونت كانت تسيل برودا واحتقارا.. وعمد إلى تغيير مجرى الحديث.. فقال: اسمح لي يا سيدي الكونت أن أبلغ سموك أنني تسلمت رسالة توصية من شركة (تومسون وفرنش).

– يسرني أن أسمع ذلك يا مولاي البارون وإني لجد مغتبط لأنها وصلتك وكفتني بذلك مئونة طلب النقود منك بنفسي.

– هذا صحيح. فالرسالة تبيح للكونت دي مونت كريستو أن يأخذ من المصرف ما يشاء على الحساب الجاري،ولكن كلمة (حساب جاري) هذه تدعو إلى شيء من القلق.

فاعتدل الكونت في مقعده، وقال في لهجة هي خليط من البساطة والدهشة:

– كيف ذلك. هل من الممكن أن تنظر البيوتات المالية إلى شركة تومسون وفرنش كأنها لا تقدر على الوفاء والسداد..

فهتف البارون: كلا.. كلا.. ليس ذلك ما أعني. إنما أعني أن لكل شيء حدوداً.. فكم تطلب يا كونت؟

فأجاب الكونت باسما: إنني أريد ما لا يقل عن ستة ملايين من الفرنكات..

ومن العبث أن نحاول وصف الدهشة التي استولت على البارون. ويكفي أن نقول أنه لم يستطع أن يجيب الكونت بكلمة.وقد أدرك الكونت حالة محدثه، فأخرج من جيبه حافظة أوراق. سحب منها حوالتين ماليتين على خزانة الحكومة قيمة كل منهما نصف مليون من الفرنكات وتدفعان لحاملهما.

وعرض الكونت الحوالتين على البارون. ففحصهما هذا بدقة، ولما وثق من صحتهما أعادهما إلى صاحبهما وهو ممتقع الوجه.

وقال البارون: سيدي.. لا أستطيع بالرغم من هذه الأدلة المادية. التي تضع حداً لكل ريبة أو شك إلا أن أبدي دهشتي الشديدة.

فقال الكونت في برود: وما دمت قد وثقت الآن بأنني في مركز مالي متين، فأرجو أن يصلني غداً مبلغ الستة ملايين فرنك.

فأجاب دنجلار: سيكون هذا المبلغ غداً بالمنزل في الساعة العاشرة صباحا.

وساد الصمت بين الرجلين قليلاً. ثم استطرد البارون: هل يتنازل سمو الكونت، فيسمح لي بأن أقدمه إلى زوجتي البارونة؟

فأحنى الكونت رأسه باحترام دلالة على الرضى. وفي الحال ضغط البارون على جرس أمامه فأقبل الخادم على الفور.

سأل البارون: هل البارونة في جناحها؟

– نعم يا سيدي البارون.. ومعها مسيو لوسيان دابري.

فأطرق البارون برأسه قليلاً.. ثم تحول إلى الكونت وقال:

– مسيو لوسيان دابري صديق قديم لنا. وسكرتير وزير الداخلية أما زوجتي فهي من إحدى العائلات العريقة الفرنسية، وكان اسمها وهي فتاة (دي سرفييه).. وكان اسم زوجها الأول (الماركيز دي نارجون). .والآن هلم بنا.

* * *

وعندما نفذ الرجلان إلى غرفة الاستقبال.. كانت البارونة جالسة إلى البيانو وقد أنحنى لوسيان دابري على مقربة منها ويتصفح أحد الكتب.

قال البارون لزوجته: سيدتي البارونة.. اسمحي لي أن أقدم لك سمو الكونت دي مونت كريستو.

فنظرت البارونة إلى الكونت بإعجاب.. ولعلها تذكرت ما قصه عليها صديقها لوسيان عن ذلك الرجل العجيب وثرائه الفاحش.

وقالت للكونت:

– من دواعي سروري أن أراك في منزلنا المتواضع يا سيدي.

وفي تلك اللحظة دخلت وصيفة البارونة، واقتربت من سيدتها. ثم همست في أذنها بضع كلمات بصوت خافت. وحينئذ تحولت البارونة إلى زوجها.. وسألت: هل هذا حقيقي؟

فقال البارون في صوت مرتجف: حقيقي ماذا يا سيدتي؟

– أحقيقي أن سائق مركبتي عندما ذهب لإعدادها، وجد أن الجوادين الكريمين

قد أخذا من حظيرتهما دون علمه؟ إني أود أن أعرف معنى هذا، وكيف تتصرف في الجوادين بدون إذن مني، مع أني وعدت مدام دي فيلفور أن أعيرها المركبة والجوادين لتقوم بنزهة في غاب بولونيا.

فقال دنجلار: سيدتي.. إن الجوادين شكسان فخفت أن يجمحا يوماً بمركبتك، وآثرت أن أخلصك منهما.

وقال الكونت دي مونت كريستو: سيدتي. لقد ابتاع لي وصيفي اليوم جوادين كريمين.. فهل تتنازلين برؤيتهما؟

فاقتربت البارونة من النافذة. ولم تكد تلقي نظرة على الجوادين. حتى ارتدت إلى الخلف وهي تقول: آه.. جواداي الجميلان العزيزان. إنهما بعينهما.

فصاح الكونت وهو يتصنع الدهشة: يا لغرائب الأقدار. ففي صباح اليوم قال لي وصيفي أنه يعد لي مفاجأة طريفة ولو أنها بسيطة. ولما أردت مغادرة قصري رأيت هذين الجوادين الكريمين في المركبة.

وساد الصمت. وكأنما خشي مونت كريستو أن تهب العاصفة بين الزوجين أمامه فأسرع بالانصراف.

* * *

ولم يمض على وصول الكونت إلى بيته أكثر من ساعتين. حتى تلقت البارونة دنجلار رسالة رقيقة من الكونت دي مونت كريستو يرجوها فيها أن تتقبل ثانية جواديها العزيزين محتجا بأنه لا يرغب في الظهور بمظهر الأبهة والفخامة في العالم الباريسي بابتياع تلك الأبهة بحزن سيدة حسناء.

وكتب مونت كريستو أيضاً للبارون دنجلار يعتذر له عن الهدية البسيطة التي قدمها للبارونة بصفته مليونير عظيم.

وهكذا استطاع مونت كريستو أن يكسب الجولة الأولى ويصادق غريمه.

* * *

وبعد ظهر اليوم التالي دعا الكونت خادمه علي. وقال له:

– إنك قد حدثتني مراراً عن مهارتك في إلقاء العقدة "الحية" وأنا أريد اليوم على أن تبرهن له على هذه المهارة.

فابتسم النوبي. واستطرد الكونت:

– ذلك حسن. فأصغ إلي. قبل مضي وقت طويل سيمر من أمام القصر جوادان جامحان يجران وراءهما مركبة فاخرة.. فأنا أريدك أن توقف هذين الجوادين أمام منزلي ولو ضحيت بحياتك في هذا السبيل.! فهل فهمت؟

فأومأ علي برأسه علامة الإيجاب ثم هبط درجات السلم، ورسم خطاً في عرض الطريق يبدأ من باب المنزل. ثم سار إلى زاوية الطريق وجلس القرفصاء.

وعلى حين غرة، سمع النوبي فرقعة عجلات مركبة تقترب بسرعة مخيفة.. ثم ظهرت في عرض الطريق مركبة فخمة يجرها جوادان أدهمان في حالة من الهياج الشديد كأن بهما مسا من الجنون.

وكان في المركبة شخصان أحدهما سيدة في مقتبل العمر، والثاني غلام تتراوح سنه بين السابعة والثامنة. واهتزت المركبة بعنف.. وتمايلت.. وأدرك علي أن ساعة العمل قد حانت فتناول من طيات ثوبه حبلاً قصيراً، وألقاه بسرعة مدهشة. فالتف حول ساقي أحد الجوادين. وأخذ النوبي المسكين يتدحرج خلف المركبة بضعة أمتار إلى أن سقط أحد الجوادين الثائرين..

ووقفت المركبة في الحال.. ووثب الكونت من باب منزله وخف إلى المركبة.. ففتحها وأخرج منها سيدة كانت تحتضن الوسائد بإحدى يديها بحالة تشنج. وتضم باليد الأخرى غلامها الذي كان قد فقد رشده تماماً.

وحمل مونت كريستو الاثنين إلى مخدعه.. ووضعهما فوق مقعد كبير وثير.. ثم سار إلى دولاب زجاجي صغير على مقربة منه. وتناول صندوقاً متوسط الحجم أخرج منه زجاجة تحوي سائلا في لون الدم.. فسكب منها نقطة واحدة بين شفتي الغلام.

ولم يكد السائل يصل إلى حلق الصغير حتى فتح عينيه وأجالهما بسرعة وقلق..

وضمت المرأة ولدها إلى صدرها في حنان.. وهي تهتف:

– ولدي.! ولدي إدوارد العزيز..

وبعد أن هدأت ثائرتها.. واطمأنت على ولدها.. رفعت عينيها إلى الكونت وقالت: أين أنا؟

فأجاب الكونت: سيدتي إنك تحت سقف رجل يعد نفسه سعيد الحظ إذ أتيح له أن يدفع عنك الضر في الوقت المناسب.

– إن رغبتي التعسة، هي التي سببت كل شيء. فقد قيل إن باريس بأجمعها لا تتحدث بغير جمال الجوادين اللذين يجران مركبة البارونة دنجلار، فأردت لفرط جنوني أن أتحقق من ذلك بنفسي وأقوم بنزهة طويلة حول غابة بولونيا.

فقال الكونت: يسوءني أن أكون المتسبب رغماً عني لكل ما حدث، فقد اتفق أنني اشتريت هذين الجوادين بالأمس من البارونة ولكن البارونة تألمت لفراقهما فرأيت أن أعيدهما إليها كهدية.

فهتفت السيدة: إذن فأنت الكونت دي مونت كريستو الذي حدثتني عنه (هرمين) كثيراً.

– نعم. إنني هو يا سيدتي.

قالت السيدة: أنا مدام هلواز دي فيلفور.

فأحنى الكونت رأسه باحترام وبهيئة الرجل الذي يسمع لأول مرة اسماً كبيراً رناناً.

وأردفت المرأة: وكم سيشكر لك مسيو دي فيلفور كرمك وطيبتك وشهامتك. إنه لولا مخاطرة خادمك لقضيت مع هذا الغلام العزيز.

ونهضت مدام دي فيلفور. وأعادت شكر الكونت على مروءته. ثم انصرفت، فشيعها الكونت إلى الباب.

* * *

وما كاد يعرف خبر نجاة مدام دي فيلفور بأعجوبة حتى أصبح حديث القوم جميعاً. فحدث به ألبرت والدته. ونقله شاتوريتو إلى نادي السباق. وأذاعه لوسيان دابري في صالون وزير الدخلية. وكتب عنه بيكامب في جريدته في كثير من المدح والثناء على الكونت دي مونت كريستو.

وبينما كانت مدام دي فيلفور تقابل عشرات الزائرين والزائرات الذين جاءوها ليسمعوا القصة من شفتيها كان زوجها دي فيلفور في طريقه بمركبته إلى منزل الكونت في الشانزليزيه.

وقد أعلن خادم الكونت سيده بحضور دي فيلفور في الوقت الذي كان فيه الكونت منكباً أمام طاولة صغيرة على إحدى الخرائط وهو يتتبع بإصبعه الطريق بين سان بطرسبرج وبيكين. وأقبل المدعي العمومي وهو يسير بخطواته المتئدة الرزينة التي يخطوها في قاعة المحكمة.

قال في لهجة وصوت المدعي العمومي وهو يسرد دقائق إحدى الجرائم:

– سيدي.. إن الخدمة العظيمة التي قدمتها لزوجتي وولدي قد جعلت من واجبي أن أقوم إليك بواجب الشكر.. وهأنذا قد جئت فاسمح لي بأن أقدم لك شكري.

فأجاب مونت كريستو ببرود:

– سيدي.. إني مغتبط أيما اغتباط إذ أتيح لي أن أكون سبباً في إنقاذ طفل لوالدته.. وما نالني من الغبطة من جراء ما قدمت، كاف لأن يجعلك تغفل ما تعده واجب شكر، على أن ما أصابني من الشرف بزيارة سيدي الذي أعرف عنه أنه لا يسرف في زياراته، لا يمكن أن يجاري بجانب السرور والفخر اللذين أشعر بهما في باطني من جراء قيامي بالواجب في حد ذاته دون أن انتظر شكراً أو أجزاء.

فدهش دي فيلفور لذلك الرد الطويل الغريب، وأجال طرفه حوله عساه يقع على شيء آخر يجعله محوراً لحديث آخر.

قال بعد صمت قليل: هذا نوع من الفلسفة بالجوفاء يا سيدي.. والواقع أني لو

كنت مثلك لا أجد ما أفعله لبحثت عن وسيلة للهو والتسلية غير دراسة علم الجغرافيا.

فأجاب الكونت:

– وأين هذه الفلسفة الجوفاء يا سيدي.. إن الإنسان لا يبدو غير (دودة) حقيرة قذرة لمن يفحصه بإمعان تحت منظار مكبر.ولكنك قلت يا سيدي إنني لا أجد ما أفعله.. إذن فدعني أسألك بدوري هل لديك ما تفعله؟ أو تظن أن لديك ما تؤديه؟ أو بصراحة. أتظن أن ما تفعله يستحق أن يسمى (عملاً)؟

فزادت حيرة دي فيلفور.. وسأل:

– سيدي الكونت.. هل لك أقرباء؟

– كلا يا سيدي.. أنني وحيد.

– هذا أسوأ ما يكون.

– ولماذا؟

– لو كان لك أقارب لرأيت في وجوههم، وظروفهم، ومصائبهم ما يكسر شوكة اعتدادك بنفسك، إذ يخيل إلي من نظراتك وأقوالك أنك لا تهتم بشيء.. ولا نقيم وزنا لغير الموت.

فأجاب مونت كريستو:

– والموت لا يخيفني ولكنه هو وحده الذي يقهرني.

– والجنون؟

– لقد كدت أجن في أحد الأيام.

فأردف دي فيلفور:

– ولكني أعتقد يا سيدي أن هناك ما يخيف أيضاً غير الموت.. والشيخوخة والجنون. فهناك مثلاً ما يأخذك في سرعة البرق. ويصدمك في هول الصاعقة.. ولكنه

لا يقضي عليك.. ومع ذلك فتكون قد انتهيت.

وبعد.. فقد تروقك الإطالة والخوض في أمثال هذه الأحاديث.. فإن شئت.. وأردت الوقوف أمام ند عنيد قوي العارضة. فتعال إلى منزلي لأقدم لك والدي مسيو نوارتييه دي فيلفور وهو أحد رجال الحزب (اليعقوبي) الثوري المشهور.. بل إنه ليس مجرد رجل.. أنه لسان هذا الحزب واليد المحركة لرجاله..

تعال إلى بيتي لترى ذلك الرجل الذي (كان) قوياً. وكثير الاعتداد بقوته. ثم تلاشى منه كل شيء.. لا في ساعة أو في يوم، ولكن في لحظة على إثر انبثاق الدم من شريان في المخ.

تعال وانظر نوارتييه الذي كان في يوم ما أقوى من أكبر رجل في فرنسا. وكانت في قبضته أشبه برقعة الشطرنج، ولكنه أصبح الآن ضعيفاً لا حول له ولا قوة.

ونهض مسيو دي فيلفور تأهباً للانصراف وهو يقول:

– إلى اللقاء يا سيدي.. أخشى أن أثقل عليك.. وآمل أن أراك في بيتنا قريباً سيما وقد جعلت لنفسك من مدام دي فيلفور صديقة مخلصة فأحنى مونت كريستو رأسه باحترام. ثم تبع ضيفه إلى الباب.

ولما اختلى الكونت بنفسه زفر زفرة حارة وقال لنفسه: والآن هلم إلى العمل وضغط جرساً أمامه. ولما أقبل الخادم النوبي.. قال له:

– إني ذاهب إلى الجناح الخاص بسيدتك.. وأريد أن تكون المركبة على استعداد في الساعة الواحدة.

* * *

وسار مونت كريستو إلى جناح اليونانية الحسناء.. وكان مخدعها منسقاً ومؤثثاً على أحدث وأبدع النظم الشرقية. وكان لها أربع وصيفات ثلاث منهن فرنسيات والرابعة يونانية مثل سيدتها.

وكانت سيدتهن "هايدي" التي يقدمن خضوعهن لها ويعاملنها كإحدى الملكات نموذجاً للجمال الإغريقي الفتان.. من تقاطيع وجه دقيقة ساحرة. ومن عينين واسعتين سوداوين تذيبان الصخر حناناً. إلى أنف مستقيم دقيق وشفتين قرمزيتين عقيقيتين. وأسنان لؤلؤية كاللبن وبشرة ناعمة بضة. ولم تكن تغادر جناحها إلا قليلاً.. فإذا اعتصمت به.. قضت أغلب أوقاتها مستلقية في مقعد مستطيل وثير. مغطى بالحرير السماوي اللون المزركش برسوم فضية جميلة.

* * *

وعندما اقترب مونت كريستو من الجناح الخاص استدعى وصيفتها اليونانية. وطلب إليها أن تسأل سيدتها عما إذا كان يروقها أن تستقبله. فكان جواب "هايدي" أن أشارت بإصبعها إلى الوصيفة لرفع الستار الذي يفصلها عن الكونت.

ولما اقترب الكونت استوت جالسة. واتكأت على إحدى يديها، ومدت الأخرى إلى الكونت وهي تقول في صوت رخيم خلاب: وبلغة قومها: لماذا تستأذن قبل أن تدخل.؟ ألم تعد مولاي وسيدي؟ أو لم أعد خادمتك وجاريتك؟

فأجاب الكونت: أصغي إلي يا هايدي.. لقد كنت على وشك أن أذكرك بأمر أنت به على معرفة تامة.. نعم.. أنت تعرفين أننا الآن في فرنسا، وأنك أصبحت حرة طليقة ولك مطلق التصرف في كل ما يتصل بك عن قرب أو بعد.

فقالت الحسناء في إصرار: حرة ؟ وبم تفيدني تلك الحرية؟ حسبي أن أكون إلى جوارك.. وأستمتع بقربك.. فأنت وحدك وأبي من دون العالم أجمع اللذان أحببتهما من كل قلبي. فلا يمكن أن يشاطركما الحب كائن من كان.

فقال الكونت في رقة: آه يا ابنتي المسكينة.. أنك تقولين ذلك. لأنك لم تطمئني إلى شخص كما اطمأننت إلينا ولم تتصلي عن قرب أو بعد بغير كلينا..

– ولم أهتم بغيركما.. بل وبالعالم وما فيه؟ إن والدي كان يدعوني (يا غبطتي وسروري). وأنت تدعوني (يا عزيزتي وحبيبتي) ولا أظنني سأجد من يدعوني بأعذب

من هذه الألفاظ.

فأخذ مونت كريستو يد الفتاة بين يديه. وهم برفعها إلى شفتيه إلا أن الابنة الساذجة الطيبة القلب سحبت يدها بلطف وقدمت وجنتها.

قال الكونت: يجب أن تتعودي على حياة المجتمعات يا ابنتي. فمن يدري ما يخبئه لنا القدر فقد نفترق.

أجابت هايدي: مولاي.. ثق أنني لن أفترق عنك لأني لا أستطيع أن أحيا بدونك. وبم أقدر الحياة إذا لم تكن أنت سيدي فيها؟!

فرمق الكونت الفتاة في رفق، ومد إليها يده فتناولتها ورفعتها إلى شفتيها في عطف وحنو وتأثر..

وخرج الكونت من مخدع الفتاة. وقد هدأت الزوبعة التي عصفت برأسه من جراء زيارة دي فيلفور.. فسار تواً إلى مركبته ووثب فيها. وفي عزمه أن يذهب لزيارة عائلة موريل كما وعد مكسمليان في بيت دي مرسرف.

* * *

وكان مكسمليان يعنى بجواده، ويدخن لفافة تبغ، وهو واقف عند مدخل الحديقة. في الوقت الذي وقفت فيه مركبة الكونت دي مونت كريستو بالباب.

وما إن رأى الشاب زائره، حتى ألقى لفافته وأسرع نحو المركبة وهو يقول:

– لقد كنت أتوقع أن أراك.. شكراً لك وألف شكر يا كونت لأنك لم تنس وعدك.

وهز مكسمليان كف الكونت بحرارة استشعر هذا منها إخلاصه وأدرك أنه كان ينتظره بفارغ الصبر..

قال مكسمليان: تفضل.. تفضل.. يا سيدي الكونت. وسأدلك بنفسي على الطريق لأن رجلاً مثلك لا ينبغي أن يدله الخدم.

وكانت أمام إحدى شجيرات الورد الكثيرة المنتشرة في الحديقة سيدة بين العشرين

والخامسة والعشرين من عمرها تلتقط منها الأوراق اليابسة.وقد أصغت إلى تلك الجلبة التي صحبت قدوم الكونت. وكانت ترتدي ثياباً منزلية حريرية تشف عن تقاطيع جسمها الرشيق.

كانت تلك السيدة ابنة مسيو موريل بعينها التي كانت تعرف باسم جوليا.. والتي أصبحت الآن تعرف باسم مدام أمانويل هريو.

صاحت جوليا صيحة دهش وذهول حينما رأت الزائر الغريب الذي جاء على غير انتظار أو موعد.. فابتسم مكسمليان وقال:

– لا تزعجي نفسك يا جوليا.. إن الكونت جاء إلى باريس منذ يومين أو ثلاثة فقط.. ولكني واثق أنه ملم بالحياة التي تحياها السيدات الباريسيات في منازلهن..

فتحولت جوليا إلى الزائر.. وقالت: معذرة يا سيدي.. فالذنب ذنب مكسمليان في عدم إعلان قدومك وجاء بك على حين غرة، ولكنه قليل المجاملة وبخاصة معي أنا شقيقته.. أرجو أن تسمح لي ببضع دقائق..

ولم تنتظر جوابا.. بل قفزت بين أشجار الحديقة كالغزال الشارد.. واختفت.. فالتفت الكونت إلى مكسمليان وقال:

– إني شديد الأسف لأن زيارتي لكم أزعجتكم كثيراً.

فقال مكسمليان ضاحكاً وهو يشير إلى إحدى النوافذ:

– انظر.. هو ذا زوجها يبدل رداءه بسرعة.. وإني أؤكد لك يا سيدي الكونت أن أهل المنزل جميعاً يقدرون الشرف الذي خصصتنا به بزيارتكم.. قال الكونت بصوت هادئ، وكأنه يحدث نفسه:

– يخيل إلي أن هذه العائلة الصغير يرفرف عليها جناحا السعادة.

– آه.. ذلك حقيقي يا سيدي.. إذ لا شيء ينقص جوليا وزوجها ليجعلهما سعيدين.

ولم يكد مكسمليان يتم قوله، حتى أقبل أمانويل.. وحيا الكونت تحية الرجل

الذي يعرف قدر ضيفه.. وبعد أن دار الثلاثة في الحديقة.. يمموا شطر البناء. وهناك لقيتهم جوليا وكانت قد صففت شعرها.. وارتدت ثياباً ملائمة.

وكان كل شيء في المنزل والحديقة: من أغاريد الأطيار إلى ابتسامة ربة الدار يوحي بالغبطة والهناءة..

وشعر الكونت منذ وطئ بقدميه أرض ذلك المكان، بتأثير تلك السعادة في نفسه فقال لجوليا: سيدتي.. أرجو معذرتك عما ترينه على وجهي من علائم الفضول والدهشة والإعجاب، لأنني لم أستطع أن أتغلب على شعوري أمام هذه السعادة التي غمرتني وطغت علي.

أجابت جوليا: نعم.. يا سيدي.. إننا سعداء جداً.. ولكننا أيضاً ذقنا طعم الشقاء، إنهم لقليلون جداً أولئك الذين يستشعرون أنهم ذاقوا كأس الحياة الأكثر مرارة منا. ولكن الله رحيم عادل.. فعل معنا ما يفعله مع أولئك الذين يصطفيهم ويرمقهم بعنايته، أنه أرسل إلينا أحد ملائكته.

فنهض الكونت ولم يحر جوابا خوفاً من أن يدل ارتجاف صوته على تأثره، وراح يذرع الغرفة بخطوات وئيدة.

وكان مكسمليان يتبعه بنظرة. فقال له:

– يخيل إلي أن قصة جوليا قد سرتك. فإنك تبتسم؟

فقال الكونت وقد أصفر وجهه فجأة. ووضع يده على قلبه وكأنه يحاول تسكين ثورته، بينما أشار بيده الأخرى إلى إناء بللوري فوق مائدة رخامية جميلة، وكان ذلك الإناء يغطي كيس نقود مصنوع من الحرير الأحمر: كلا. كلا. إن دهشتي مرجعها إلى هذا الكيس الأحمر الذي تتدلى من أحد طرفيه ورقة صغيرة. ومن الآخر ماسة بديعة.

فنهض مكسمليان إلى الإناء الزجاجي فرفعه. وقبل الكيس الحريري الأحمر. ثم قال: سيدي أن هذا الكيس قد مس يد الرجل الذي أنقذ والدي من الانتحار وانتشلنا جميعاً من الخراب. ودفع عن اسمنا العار والإفلاس. وبالرغم من أننا لا نعرف

منقذنا المجهول إلا أننا لازلنا نأمل أن نراه فنلثم يده اعترافاً بجميله وفضله علينا.وقد كان أبي يعتقد أن المعونة التي جاءت لنجدته كانت من سبيل المعجزات وأن صانع تلك المعجزة رجل قائم من بين القبور.

إنها تكاد أن تكون قصة خرافية يا سيدي. ورغم أني لم أسلم أو أعتقد بها، إلا أنني لم أحاول أن أرجع والدي عن الإيمان بها.

وإن ما كان يظنه ويخمنه، أصبح في نظره هو عين الحقيقة حينما كان يحتضر. ولقد كانت آخر كلمات لفظ بها: "مكسمليان. إن الذي خلصنا هو أدمون دانت".

وكان اصفرار وجه الكونت يتزايد شيئاً فشيئاً منذ أن بدأ مكسمليان يسرد قصته.. إلا أنه لم يكد يسمع الكلمات الأخيرة حتى بات من ينظره يحسبه لأول وهلة أنه يحتضر.

ولم يجد في نفسه القدرة على الكلام فألقى نظرة سريعة إلى ساعته ثم لفظ بضع كلمات في أنفاس لاهثة متقطعة وضغط على كفي مكسمليان وأمانويل. وقال لجوليا: سيدتي. أني شديد الأمل في أن تسمحي لي بزيارتك بين حين وآخر. ثم ترك المنزل على الأثر.

وما أن تلاشى وقع خطواته حتى قالت جوليا:

– لقد وصلت نغمات صوته إلى أعماق قلبي.. وخيل إلي أكثر من مرة أنني سمعت صوته قبل الآن.

الفصل الثاني عشر

في حي (سان أنوريه) وخلف إحدى البيوتات الكبيرة الفخمة التي تزين ذلك الحي الارستقراطي توجد حديقة كبيرة يؤدي إليها باب حديدي كبير. وفي مساء يوم حار من أيام الربيع. كانت غادة في مقتبل العمر تتريض في حديقة المنزل الفخم بالقرب من باب حديدي يفصل بين حديقتين. ثم طفقت تنظر بين القضبان وكأنها تبحث عن شيء خاص.. ولم تمض غير برهة قصيرة حتى فتح باب صغير في الحديقة الكبيرة ودخل منه شاب طويل القامة قوي البنية يرتدي ثياب بستاني وقبعة من القطيفة أجال طرفه حوله بسرعة. ثم أغلق الباب. وتقدم إلى الباب الحديدي.. وحالما رأته الفتاة تراجعت منذعرة.. فخف إليها الشاب وهو يقول: لا تخافي يا فالنتين.

قال ذلك وأمسك بثوبها الحريري الأبيض من بين القضبان الحديدية.

وألصق وجهه بالباب فتبينته الفتاة.. وصاحت: آه.. مكسمليان أنك تأخرت كثيراً. ولكن ما هذا الثياب التي ترتديها؟

– الحقيقة أنني علمت أن هذا الجزء من الحديقة معد للإيجار. فاتفقت مع مالكها.. وأصبحت الآن صاحب هذه الزهور الجميلة.. وفي استطاعتي دائماً أن أحدثك عن غرامي الأبدي كلما تكرمت علي بزيارتك.

فابتسمت الفتاة.. ومدت كفيها من خلال القضبان فتناولهما الشاب وألصقهما إلى شفتيه بقوة.. أما فالنتين فإنها لم تلبث أن أجهم وجهها. وقالت: كيف أعبر لك عن شكري يا أخلص إنسان لي في الحياة. لقد كان جميلاً منك أن تعد برعايتي كما يرعى الأخ شقيقته. أنا التي نضبت القلوب من الحب والعطف عليها ولم تجد من يخلص لها غيرك. أنا التي يهملني والدي وتضايقني زوجة أبي.. ويحاول أبي أن يزفني إلى رجل لا أحمل له مثقال ذرة من العطف أو الحب. أنا المتروكة لعناية شيخ عجوز

مفلوج أبكم لا يستطيع أن يحدثني بغير عينيه رغم أنه يحمل بين جنبيه أرق عواطف الأبوة.. آه! ما أشقاني يا مكسمليان ولكني سعيدة بوجودك لأنك لا تكذب حين تقول أنك تحبني لنفسي فقط.

فتأثر الشاب.. وقال: عزيزتي فالنتين.. اطمئني إلى وثقي في.. ولنمد في حبل الأمل. فالبارون فرانز دي ابناي الذي يريد أبوك دي فيلفور أن يزوجك منه فإنه لن يعود قبل مضي سنة أخرى.. ومن يدري ما قد يجيء به الحوادث في بحر هذه السنة مصداقاً لظنوننا وآمالنا.

فلم تحر الفتاة المسكينة جوابا. ولكن أنينها وبكاءها وصلا إلى أذن حبيبها، فثارت مشاعره وتأججت عواطفه.. فصاح بصوت متهدج:

– فالنتين.. عزيزتي فالنتين. لا تبكي بربك.

فأجابت بصوت يغص بالدموع: آه يا مكسمليان!. آه لو تدري كم أتعذب وأشقى.. أني أمام الناس محوطة بالعطف والحب.. ولكن العكس هو الحقيقة. فوالدي لا يعني بي مطلقاً. وزوجة أبي تحقد علي وتحسدني على الثروة التي خلفتها لي والدتي والتي ستتضاعف عند وفاة الماركيز والماركيزة دي سان ميران اللذين ليس لهما وارث سواي.

وا أسفاه.. كم أنا على استعداد لأن أضحي بكل ثروتي راضية من أجل أن أتمتع بعطف والدي وحبه!!

– ولكن لماذا تنظرين إلى المستقبل من خلال منظار حالك؟

– لأني أحكم عليه بحكم الماضي.. ولكن. صه.. صه. فإني أسمع وقع أقدام تقترب..

فوثب مكسمليان إلى الخلف.. واختفى تحت بضعة أغصان، وفي تلك اللحظة سمع صوتاً يقول: سيدتي. أن والدتك تبحث عنك في كل مكان. لأن في قاعة الاستقبال بعض الضيوف.

فقالت فالنتين باضطراب: من هم أولئك الضيوف؟

– أن الزائر شخص يدعى الكونت دي مونت كريستو. وهو يرغب خصيصاً أن يراك..

فسارت الفتاة شطر البيت، بينما خرج مكسمليان من مخبئه وهو يقول لنفسه: أنني على استعداد لأن أتنازل عن خمس سنوات من عمري لأعلم كيف اتفق أن الكونت دي مونت كريستو يعرف دي فيلفور.

* * *

جاء الكونت إلى بيت دي فيلفور ليرد له زيارته.. واشتدت الضوضاء والحركة في المنزل.. وكانت مدام دي فيلفور بمفردها في قاعة الاستقبال حينما أعلنها الخادم بزيارة الكونت فأرسلت إلى ابنها (إدوارد) ليقوم بواجب الشكر للكونت.. ولما استقر المكان بمونت كريستو سأل المرأة عن زوجها.. فأجابت:

– أنه يتناول الطعام مع قاضي القضاة.. وسوف يأسف أشد الأسف حين يعلم أنك شرفت منزله.. ولم يحظ بهذا الشرف لغيابه.

ثم تحولت إلى إدوارد.. وقالت: أبحث عن أختك فالنتين وادعها.

فسأل الكونت: إذن فلك ابنة يا سيدتي؟

فأجابت السيدة: إنها ابنة مسيو دي فيلفور من زوجته الأولى وهي فتاة رضية الخلق وهنا قال إدوارد وهو يختطف ريش ببغاء صغير في قفص فضي: ولكنها حزينة! فنهرته أمه.. وأردفت قائلة للكونت:

– لقد صدق هذا الشيطان الصغير. فإنه يلوح عليها دائماً بعض علامات السويداء والضجر. وأقبلت فالنتين في تلك اللحظة، وكان وجهها ناطقاً بعلامات الحزن.. حتى أن المتأمل المدقق لا يلبث أن يرى فوق خديها دموع لم تجف بعد.

ولما رأت فالنتين زوجة أبيها إلى جانب الرجل الأجنبي الذي سمعت باسمه كثيراً حيته بلا خجل أو تحفظ. وقالت زوجة المدعي تقدم الفتاة للكونت: الآنسة دي فيلفور ابنة زوجي.

وقال إدوارد كأنما يقدم الكونت لفالنتين:

– والكونت دي مونت كريستو ملك الصين وإمبراطور الهند!

فسأل الكونت وهو يقلب البصر بين المرأة والفتاة:

– ألم يكن لي شرف التعرف بسيدتي والآنسة قبل الآن؟

فهزت مدام دي فيلفور رأسها نفياً.. وأجابت: لا أظن ذلك فالآنسة دي فيلفور قليلة الاختلاط بالناس ونحن لان نخرج إلا نادراً.

– إذن فأنا لم ألتق بالآنسة. أو بك يا سيدتي. أو بهذا الغلام الجميل في باريس.. نعم كان ذلك في مكان آخر.. في مكان بعيد عن باريس. كان ذلك في.. أنني لا أذكر على وجه التحديد.. أنني أتصور جواً صافياً جميلاً.. وعيداً دينياً حافلاً. يالله! ألا تعيد هذه الأقوال إلى مخيلتك شيئاً؟.. ساعديني على التذكر.

وللمرة الثانية هزت المرأة رأسها نفياً. فقالت فالنتين بخجل:

– ربما كان لقاؤنا في إيطاليا.

فصاح الكونت.. وكأن هذه الملاحظة قد أعادت إليه ذكرى غابت عنه:

– آه.. نعم.. ذلك حقيقي.. لقد كان ذلك في بيروجيا في يوم عيد الآلهة. في فندق البريد. عندما جمعت بيننا إحدى المصادفات الغريبة. آه.. أنت لا تذكرين غير بيروجيا.. إذن سأساعدك يا سيدتي على التذكر..أننا تقابلنا في يوم قائظ. وكنت أنت في انتظار الجياد تحت شجرة عنب وارفة. أما الآنسة فكانت تسير تحت ظلال شجيرات حديقة الفندق بينما كان ابنك يطارد طاووساً جميلاً.

ثم انتقلت يا سيدتي بعد ذلك إلى مقعد من الحجر.. حيث شغلت بالتحدث إلى شخص لمدة طويلة.

فأجابت المرأة وقد احمر وجهها: نعم.. نعم.. أنني أذكر الآن أني كنت أحدث رجلاً يلتف في وشاح طويل. وكان ذلك الرجل طبيباً على ما أذكر..

– تماماً يا سيدتي. ولقد كنت أنا نفس ذلك الرجل. وكنت قضيت في الفندق أسبوعين. وفي خلال تلك المدة شفيت وصيفي من حمى التيفوس. وشفيت صاحب الفندق من الحمى القرمزية. فذاع عني أنني طبيب بارع. ولقد وقعت أنت أيضاً يا سيدتي في ذلك الخطأ، فجئت تستشيرينني بشأن صحة الآنسة فالنتين.

فقالت مدام دي فيلفور:

– إذن فأنت طبيب مادمت تشفي المرضى.

– آه.. أني فقط درست الكيمياء والعلوم الطبيعية، وتعمقت في دراستها ولكنني لم أكن في كل دراستي وغيرها. ومغرم بها.

وكأنما أرادت المرأة أن تتخلص من فالنتين، فطلبت إليها أن تذهب للعناية بأمر جدها المفلوج. فلما غادرت الفتاة الغرفة، تحولت المرأة إلى الكونت وقالت: إذن فأنت من المتعمقين في علم الكيمياء يا سيدي؟

فابتسم الكونت وأجاب: كلا.. كلا يا سيدتي. فأنا لست بارعاً فيها إلى درجة المشتغلين بها. وفقط درستها لأني كنت معتزم الإقامة في الأقطار الشرقية، فرغبت في أن أحذو حذو الملك متراداتس.

وما أن سمع إدوارد بذلك الاسم حتى صاح:

– آه. الملك مترادتس الذي كان يتناول اللبن في كل صباح ممزوجاً بالسم.

فصرخت الأم في ابنها قائلة:

– إدوارد أيها الشرير.. أنك لا تحتمل! اذهب والحق بفانتين إلى غرفة جدك نوارتييه.

فانطلق الصبي من الغرفة ساخطاً.. وأسرعت الأم إلى غلق الباب بالمفتاح ثم عادت إلى مكانها.. وتظاهر مونت كريستو كأنه لم يلاحظ أنها أغلقت الباب. ثم قال:

– اسمحي لي يا سيدتي أن أقول أنك تعاملين هذا الغلام النابه بقسوة شديدة.

– إنه شديد الذكاء حقاً ولكنه شرير. وبهذه المناسبة، هل حقاً أن متراداتس كان

يحتاط لنفسه بتلك الطريقة ؟ وهل أجدت حيطته.؟

فأجاب الكونت: أظن ذلك يا سيدتي، لأنني أنا أيضاً حذوت حذوه حتى لا أؤخذ بالسم أثناء وجودي في الشرق.

– آه. أني أذكر أنك حدثتني بمثل ذلك ونحن في إيطاليا.. بل وأضفت أن تأثير السموم على أهل الجنوب أروع من تأثيرها في أهل الشمال.

فأجاب الكونت: هذا صحيح، لأني رأيت بعيني رأسي رجلاً روسيا يلتهم نوعاً من الخضر يكفي لأن يهلك ستة من الأعراب، ولكنه لم يصب بأذى ولعله لا يخفى عليك أن لاختلاف المناخ أكبر الأثر في ذلك.

– إذن ففي استطاعة الإنسان أن يتعاطى السموم تدريجياً في جو مثل جو فرنسا دون أن يصاب بأي أذى مثل أهل الجنوب؟

فقال الكونت: بكل تأكيد. ولنفرض مثلاً أنك عرفت مقدماً ما نوع السم الذي ينوي أعداؤك أن يدسوه لك.. وكان ذلك السم هو (البروسين) مثلاً.. ولنفرض أيضاً أنك أقدمت على تعاطي هذا السم من تلقاء نفسك وبالتدريج بمقدار (ملليجرام) واحد في اليوم الأول.. وضعف هذه الكمية في اليوم التالي..و هكذا.. ففي نهاية عشرة أيام تكونين قد تناولت (سنتيجرام).. وتستمرين في مضاعفة الكمية حتى تصل في النهاية إلى ثلثمائة جرام.. أي كمية تكفي لأن تقتل الإنسان مهما كان قوياً..

فقالت المرأة: الواقع أن حديثك يشوقني، لأنني من هواة علمي النبات والمعادن.

ومضى الكونت في حديثه مستطرداً:

– لقد بز الشرقيون الغربيين في علم السموم، ورفعوه إلى مستوى الفنون الجميلة، فهم لم يتخذوه أداة للهجوم فحسب.. وإنما استعملوه وسيلة للدفاع عن أنفسهم أيضاً.

فلمعت عينا المرأة.. وقالت: أحقاً تقول؟!

– كل الحق يا سيدتي. فالشرقيون هم أساتذة السموم، وكل مأساة تحدث في

الشرق تبدأ بالنبات الذي يولد الحب.. وتنتهي بالنبات الذي يجلب الموت الزؤام..

وأما الغربيون فهم من الحماقة بحيث لا يعرفون كيف يفتكون بأعدائهم دون أن يؤخذوا بجريرتهم.. ولعل ذلك راجع إلى كونهم لا يعرفون شيئاً عن علم السموم.. وكل ما لهم به علم أن الزرنيخ هو المادة الوحيدة التي تخلصهم من أعدائهم.. والزرنيخ من السموم التي يبدو أثرها جلياً عند تحليل الأمعاء.. ولو تريث طلاب الانتقام لعرفوا أن هناك من السموم الفتاكة ما ينيلهم مطلبهم دون الافتضاح.

فقالت المرأة في لهفة: إذن فقد اكتشف الشرقيون سر ذلك السم الخفي البطيء الذي كانت تعده عائلة (بورجيا) لأعدائها.. ثم فقدت كيفية تركيبه وإعداده في مدينة (بيروجيا)؟

– نعم يا سيدتي.. والسموم عموماً على أنواع شتى.. لكل منها تأثير على عضو معين من جسم الإنسان، فمنها ما يفتك بالأمعاء.. وما يذهب بالمخ.. وبعضها ما تشتد وطأته على الشرايين أو الأوردة أو كليهما معاً لدرجة تجعل انفجارهما محتماً.

فقالت المرأة: أن هذا مخيف.. ولكنه شيق.. على أني كنت أحسب في أول الأمر أن ما ذكرته لي الآن وأمثاله هو مجرد أقاصيص أو خرافات! –وأنها لكذلك إلى حد ما.. بيد أن صديقاً لي يدعى القس (أدلمونت) أنبأني أنه توصل إلى معلومات على جانب كبير من الأهمية.. مثال ذلك. أنه اختار نوعاً من الخضر في حديقته، وطفق يرويه لمدة ثلاثة أيام بمزيج من الماء والاستركينين.. وفي نهاية اليوم الثالث بدأت الشجرة في الذبول وحينئذ اقتلعها القس ثم جاء بأرنب وقدم إليه ورقة من الشجرة المسمومة..

ومات الأرنب.. فأي محقق إذن يستطيع أن يقف على سر موت الأرنب.؟ وأمر القس خادمه أن يلقي جثة الأرنب إلى دجاجة.. فلما التقطت الدجاجة طعامها من أمعاء الأرنب ماتت في اليوم التالي.. وعندما فحص حويصلتها وجسمها لم يجد ما يدل على أنها ماتت بتأثير السم. وكل الدلائل تذهب على أنها أصيبت بالصرع أو السكتة أو الفالج.. على أن الفالج مرض نادر بين الدجاج ولكنه متفش ومنتشر بين

المخلوقات البشرية. وكانت مدام دي فيلفور في بحر عميق من التفكير، ولكنها كانت تصغي بانتباه إلى كلمات الكونت وهي تتدفق من فمه ببساطة ليس فيها أثر للتصنع.. وأخيراً قالت:

– يخيل إلي يا سيدي أنك كيميائي بارع في تركيب العقاقير.. وأني لازلت أذكر ذلك السائل العجيب الذي أعدت بواسطته الحياة إلى إبني..

– آه.. إنه دواء عجيب للتشنج العصبي، وأنا أتعاطاه في أغلب الأوقات ولكن بحيطة شديدة فإن تناول أكثر من قطرة واحدة منه يسبب تدفق الدم بعنف في الشرايين. ثم في القلب وذلك يؤدي حتماً إلى انفجار الشرايين والموت السريع..

فقالت المرأة في خبث: الواقع أنني أعاني كثيراً من ضيق التنفس، ولقد يئست من الشفاء بواسطة العقاقير العادية..!

فأجاب الكونت وهو ينهض واقفاً: أنني على استعداد لأن أهبك هذا الدواء يا سيدتي.. ولكن تذكري أن زيادة الكمية معناها الموت المحقق.. وأحنى الكونت رأسه باحترام.. وغادر المنزل.. وبقيت مدام دي فيلفور غارقة في أفكارها العميقة السوداء.. وأخيراً غمغمت:

– يا له من رجل غريب.. وأكبر ظني أنه هو عين القس (دلمونت).

* * *

وكان الكونت يقول لنفسه بعد أن انصرف:

– هذا حسن.. إن الأرض خصبة قابلة للنماء ولابد أن تثمر البذور وفي اليوم التالي أرسل قنينة الدواء لمدام دي فيلفور حسب وعده.

الفصل الثالث عشر

وبعد بضعة أيام ذهب ألبرت دي مرسرف برفقة لوسيان دابري لزيارة الكونت دي مونت كريستو.

ولم يخف على مونت كريستو الغرض من مجيء سكرتير وزير الداخلية لزيارته فهو كان يعلم أن فضول البارونة دنجلار دفعها إلى إرسال صديقها إليه لعله يستطيع أن يعرف شيئاً من أسراره.

ودار الحديث بينهم في شئون شتى وفجأة التفت الكونت إلى ألبرت وسأله: ألا تزال مجداً في سعيك لدى البارون دنجلار بشأن زواجك من ابنته يوجيني؟

فأجاب الشاب: إن الأمور تسير سيراً حثيثاً نحو النهاية المرسومة ومما يعززها أن أبي والبارون دنجلار خدما معا في أسبانيا وشيدا أساساً لمستقبلهما بين ربوعها. فقال مونت كريستو: الواقع أن جمال الآنسة يوجيني من النوع الرائع الخلاب.

فهز ألبرت رأسه في حزن وقال: إن والدتي كثيرة التشاؤم من هذا الزواج. وإني أعتقد إلى حد الجزم أنه سيكون علة شقائها وحزنها وتعاستها. وسيدخل موضوع الزواج في دوره الخطير في الأسبوع المقبل، ولذلك تراني مشتت الفكر مضطرب النفس.

وإني لأغبطك يا سيدي الكونت لأنك تخلصت مما أنا فيه.

– حسناً.. لماذا إذن لا تبقى حراً مثلي؟

– ذلك لأنني في مركز حرج، فإن رفضت الزواج جلبت علي نقمة والدي. وإن قبلته كان ذلك سبباً في حزن والدتي، وأنا لا أريد أن أكون علة شقائها. فهل لك أن تسديني النصح يا صديقي؟

فأشاح الكونت بوجهه ليخفي تأثره.. وحينئذ وقع بصره على لوسيان وهو

يكتب شيئاً في مذكراته.

سأل الكونت: ماذا تفعل يا صديقي لوسيان؟

– إني أحصي المبالغ التي ربحها البارون دنجلار من الارتفاع الأخير الذي طرأ على أسهم جزيرة هايتي.ولقد تبين لي من إحصائي أن دنجلار ربح ثلثمائة ألف جنيه على الأقل.. فقالت ألبرت: ولكن هذه الصفقة لا تذكر بجانب ربحه من الأسبانيين في العام المنصرم فقد دخل له من أموالهم مليون من الجنيهات.

فقال الكونت يحدث لوسيان: سمعتك تتحدث منذ لحظة عن جزيرة (هانتي)؟

– نعم.. لقد ارتفع ثمن السهم إلى ٤٠٥، وباع البارون بذلك السعر فربح ثلثمائة ألف جنيه. ولو أنه انتظر إلى اليوم لهبطت الأسعار إلى ٢٠٥ ولخسر بذلك ٢٥ ألف جنيه.

– وما الذي سبب هذا الهبوط العظيم؟

فقال ألبرت ضاحكاً: الأنباء الكثيرة الكاذبة التي تتناقلها الألسن.

فقال الكونت: أرى أن البارون دنجلار يجازف كل يوم بمبالغ ضخمة. فقاطعه لوسيان: ليس هو الذي يجازف، إنما هي البارونة دنجلار التي تجازف.

فابتسم ألبرت وقال: يا عزيزي لوسيان.. إنك السبب في ذلك كله.. فأنت لا تكاد تفتح فمك لتتكلم بصفتك سكرتير وزير الداخلية، وأكثر الناس إلماماً بالأنباء الصحيحة، حتى يتناقل المضاربون في البورصة ما يسمعونه من فمك. على أنك لو تركت البارونة دنجلار تخسر مائتي ألف فرنك في مهلة قصيرة من الزمن، فإن ذلك لابد يعلمها الحيطة والرزانة.

فبدت الحيرة على وجه سكرتير وزير الداخلية. ولم يفت على مونت كريستو أن يستنتج أن هناك سراً يكمن وراء الاضطراب الذي بدا في عيني لوسيان.

ونهض لوسيان مستأذناً في الانصراف.. وبقي الكونت وألبرت وحدهما. قال

الكونت: ألا ترى أنه من الخطأ أن تتحدث عن حماتك هكذا في حضرة صديقها مسيو دابري؟

– بربك يا سيدي لا تسميها حماتي، فإني أبغضها وأبغض الزواج من ابنتها أيضاً.

– إذن فأنت لن تقبل الدعوة لتناول الطعام مع عائلة دنجلار وبعض الأصدقاء في منزلي باتويل يوم السبت القادم؟

فامتقع وجه الشاب.. وهتف:

– أرجو أن تستثنيني أنا ووالدتي من هذه الدعوة التي لا تنتهز العائلتان الفرصة فيتفقا على الزواج.

فضحك الكونت وقال:

– ألا تعلم يا صديقي أنك بهذا الاستثناء تضعني في مركز حرج.. فلو أني عملت بنصيحتك لأغضبت والدك واعتبر فعلتي إهانة له.. ولاعتبرها آل دنجلار من قبيل قلة الذوق لما يعرفونه عن صداقتي لك.

فقال ألبرت: إذن فسأكفيك مئونة الاعتبارين، فإن والدتي ترغب في الانتقال إلى أحد المصايف.. وسأعجل بهذه الرغبة بالسفر إلى (تريبور) وبذلك تتخلص من الدعوة.

والآن. أرجو أن تسمح لي بالانصراف.

* * *

وبعد أن انصرف ألبرت دعا الكونت وصيفه برتسيو وأمره بأن يبدل جميع أثاث منزل (اتويل) بآخر من جديد فاخر.. ولكنه حذر عليه إبدال شيء من أثاث غرفة النوم.

* * *

وعندما دقت الساعة السابعة مساء وقفت بباب الكونت مركبة. قفز منها رجل

في نحو الثانية والخمسين من عمره، كان يرتدي سروالاً أزرق وحذاء قديماً، وقفازاً من الجلد وقبعة مثل التي يرتديها رجال البوليس. واستقبله الكونت دي مونت كريستو في قاعة استقبال غاية في البساطة وبادره قائلاً:

– مرحباً بك يا سيدي العزيز.. لقد كنت في انتظارك.

فقال الرجل: هل كان مولاي على علم بزيارتي؟

– نعم، فقد وصلتني رسالتك.. والآن لنبدأ الحديث الذي جئت من أجله.

فلاحت إمارات القلق على وجه الزائر، واستطرد الكونت:

– أخبرني.. ألست أنت الماركيز برثلميوكفالا كنتي الذي كان ماجورا في الحامية الإيطالية بالنمسا؟

فقال الزائر بغباوة وخجل: أنا كنت ماجوراً؟

– نعم.. كنت كذلك، ولفظة ماجور هي التي تطلق في فرنسا على من يملأ مثل مركزك في الجيش الإيطالي.

– ذلك حسن.. فأنا لا أطلب أكثر من ذلك. وأنت تعلم..

فقاطعه الكونت قائلاً: ثم إنك جئتني عن طريق الأب بيزوني الراهب وبتوصية منه؟

– تماما.

– ومعك رسالة؟

– نعم.. وها هي..

وتناول الكونت الرسالة وراح يطالعها ثم قال:

– نعم.. نعم.. إنك الماجور كفالا كنتي الغني الموفور الغني والذي تدور عليه أملاكه الواسعة دخلا سنوياً قدره نصف مليون فرنك.

– هل دخلي نصف مليون فرنك؟

– نعم.

– ليكن ذلك.. ولكني لم أفكر قط أنه سيبلغ هذا المبلغ.

وعاد الكونت إلى تلاوة الرسالة فقال بصوت مرتفع:

"والماجور لا يحتاج لغير شيء واحد ليكون أسعد مخلوق. وتلك الأمنية هي الحصول على ولده العزيز الذي سرق منه وهو لا يزال في المهد ولقد أكدت له أنه في مقدورك أن تعيد إليه ولده الذي بحث عنه طيلة الخمسة عشر عاماً الماضية بغير جدوى".

وهنا رفع الماجور عينيه إلى الكونت بقلق.. وقال:

– إن في الرسالة حاشية لم يقرأها مولاي الكونت.

– آه.. هذا صحيح.. فلننظر ماذا تقول هذه الحاشية "لكيلا نكلف الماجور كفالا كنتي مؤونة سحب جزء من رصيده الكبير في البنك قد زودته بألفي فرنك تقوم على نفقة سفره. وعليك أن تدفع له مبلغ الثمانية والأربعين ألف فرنك التي تدين لي بها".

وصمت الكونت قليلاً، فبدت إمارات الحيرة على وجه الماجور. وأخيراً قال مونت كريستو: عظيم.. إنني على استعداد لأن أدفع لك المبلغ في أية لحظة تطلبه فيها والآن. دعني ألقنك دورك.

فالتهم الماجور بضع قطع من البسكويت وجرع كأساً من النبيذ. ثم اعتدل في مجلسه وأنصت.

قال الكونت: إنك يا سيدي كنت تقيم في مدينة لوكا. وتنحدر من الأسر النبيلة الغنية ذات الحول والطول والجاه العريض ،ولكنك فقدت ولدك وهو ثمرة حماقة ارتكبتها وأردت أن يظل أمرها سراً مكتوماً عن العالم.. من أجل والدة الطفل

المسكينة، وكان اسمها أوليفا كورسيناري.. أليس كذلك؟

فأعاد الماجور الاسم حتى ينطبع في ذاكرته: وردده في صوت خافت.

– أوليفا.. أوليفا ماذا؟ آه أوليفا كورسيناري.

– وهي ماركيزة. وقد تزوجتها أخيراً بعد أن وضعت.. وذلك بالرغم من معارضة عائلتها النبيلة العريقة.

وأخرج الكونت من جيبه عدة أوراق ووثائق قدمها للماجور وهو يقول: إنك اقترنت بأوليفا كورسيناري في كنيسة (سان باولودي مونت كاتيني) وها هي شهادة القس.

فأجاب الإيطالي بدهشة: آه. حقاً. ها هي الشهادة. يالله.! ومعها أيضاً شهادة ميلاد باسم اندريا كفالا كنتي موقع عليها بإمضاء طبيب (سارافاندا). ولعل أندريا هذا هو ولدي؟

– نعم. فخذ هذه الأوراق الآن لأنها تخصك، ولكن عليك أن تسلمها لابنك ليحتفظ بها... ولنعد الآن إلى الأم المسكينة.. فنقول أنها دفعت دينها لربها.

فقال الإيطالي: نعم، بكل أسف.!

قال الكونت: وإني أعرف أنها توفيت من خلال العشر سنوات الأخيرة. والآن يا عزيزي كافالاكنتي، لا يجب أن ننسى أنه لا يجديك أن يتحدث أهل فرنسا عن أمر انفصالك عن ولدك، فقط قل إنك أرسلته لإتمام علومه في إحدى كليات المقاطعات. وتريد له الآن أن يدرس شئون الحياة في المجتمعات الباريسية ولهذا السبب فقط غادرت قرية (فياريجو) حيث كنت تقيم بعد وفاة زوجتك.

وإذا سئلت كيف كان انفصالك عن ولدك فقل إن مربيه كان غير أمين عليه، فابتاع أعداء عائلتك ذمته بثمن بخس، وسولوا إليه أن يسرق الغلام حتى يتلاشى اسمك الرنان بعد وفاتك. والآن وقد تم كل شيء فهاك مبلغ الثمانية والأربعين ألف فرنك.

ومد الكونت يده في جيبه وأخرج منها رزمة من الأوراق المالية قدمها إلى الماجور. فتناولها هذا بلهفة. وقال: ما أكرمك يا مولاي.

– ثم إن هناك مفاجأة أخرى طريفة. هي أن ولدك أندريا ينتظرك في لهفة وشوق في الغرفة المجاورة.

وأحنى الكونت قامته للماجور باحترام.. ثم غادر الغرفة.

* * *

وسار الكونت إلى الغرفة المجاورة.. وهناك وقع بصره على شاب في مقتبل العمر جميل التقاطيع، أنيق الثياب.وقد وجده الكونت متمدداً بتكاسل وتراخ فوق مقعد وثير وهو يضرب حذاءه بعصا في يده لها مقبض من الذهب.

وقع بصر الشاب على الكونت فقفز واقفاً بسرعة. فقال له الكونت:

– إنك جئت برسالة تقدمك إلي.. أليس كذلك؟

– إني لا أقول ذلك.. فإن الإمضاء المذيلة بها الرسالة هي إمضاء (السندباد البحري).. وهو اسم كما ترى شاذ وغريب.. فأنا لم أسمع به إلا في قصص ألف ليلة.

– إن هذا أحد أحفاد ذاك.. وهو من أعز أصدقائي وله غرام كبير بعمل الخير. واسمه الحقيقي هو اللورد ويلمور وهو انجليزي الأصل.والآن.. لعلك تستطيع أن تقدم نفسك إلي. وتحدثني عن عائلتك؟

فأجاب الشاب: آه. بكل تأكيد يا مولاي. فأنا كما قلت لي أدعى الكونت أندريا كفالا كنتي. ابن الماجور برثلميو كفالا كنتي أحد أفراد عائلة كفالا كنتي الشهيرة المدون اسمها في سجل نبلاء فلورنسا الذهبي. وعائلتنا رغم ثرائها وجاهها الذي تحتفظ به، قد قاست من الصعاب والشدائد ألواناً حتى أنني قضيت خمسة عشر عاماً دون أن أرى أبي.. فلما بلغت مبلغ الرجولة وأصبحت سيد نفسي بذلت كل جهدي في البحث عنه ولكني أخفقت. وأخيراً جاءتني رسالة من صديقك اللورد ويلمور ينبئني فيها بأن والدي في باريس وأنني يجب أن أقدم نفسي لسموك إذا أردت أن أعرف

المزيد عنه.

فقال الكونت: هذا بديع وكم يسرني ذلك كل السرور، لأني أستطيع أن أشبع رغبتك في معرفة المزيد عن والدك، لأنه عندي. وهو يبحث عنك بقلق وشوق كما تفعل أنت.

– آه والدي هنا.. وإذن فاسمه الماجور برثلميو كفالا كنتي.. ولكن هل هو هنا حقيقة؟

– نعم يا سيدي.. إنني كنت الساعة معه، وقد أثرت القصة التي سردها علي بخصوص ولده المفقود أيما تأثير. إنه تلقى في أحد الأيام رسالة من القوم الذين سرقوا ولده العزيز. وقد جاء في هذه الرسالة أنهم على استعداد لأن يعيدوا إليه ولده لقاء فدية كبيرة ولم يتردد أبوك لحظة. بل أرسل المبلغ توا، ولقد كنت أنت في جنوب فرنسا..كان صديقي اللورد ويلمر أول من رأى أن يجمع شملك بأبيك.. ولذلك أرسلك إلي. لأعمل على مقابلتك به في منزلي.

فقال الشاب مؤمناً.. تماماً..

وأردف الكونت: والآن. أريدك أن تندمج في الوسط الباريسي الارستقراطي. وأن تجعل لنفسك صلة قوية بينك وبين أفراده، صلة قائمة على أساس من الشهامة والبطولة.واعلم أن دخلك السنوي لا يقل عن نيف وخمسين ألف فرنك طالما أنت تقيم في باريس..

فقال الشاب: وفي هذه الحالة سأفضل دائماً أن أبقى في باريس.

– ولكنك لن تستطيع أن تثق بالظروف وتقلباتها يا سيدي.. والآن اذهب إلى والدك في الغرفة المجاورة. حيث أنه لم يتبق له إلا بضعة أيام يعود بعدها إلى وطنه لأعماله الكثيرة ومشاغله الجمة.

وظل الكونت دي مونت كريستو واقفاً يرقبه حتى غادر الغرفة وحينئذ تقدم من الجدار ورفع صورة كشفت عن ثغرة خلفها يتمكن الناظر من خلالها أن يشاهد كل ما

يحدث في القاعة المجاورة دون أن يفطن إليه أحد..

كان اندريا يقول بصوت مرتفع سمعه مونت كريستو: آه.. أبي العزيز !

– ولدي.. كيف أنت يا ولدي؟

وتعانق الرجلان على النمط المتبع فوق خشبة المسرح. أي أن كلا منهما استند برأسه على كتف الآخر.

قال أندريا: إذن فهم لن يفرقوا بيننا بعد الآن يا أبي.

– نعم يا ولدي.. لن يفرقوا بيننا أبداً، ولكني مضطر إلى العودة إلى (لوكا) لأعمالي الكثيرة.

ومد الماجور يده إلى الشاب بالأوراق التي زوده بها مونت كريستو فألقى أندريا عليها نظرة سريعة.. ثم ابتسم وقال:

– إذن فليس في هذه الأوراق ما يثبت أن أحدنا حكم عليه بالسجن؟!

فقال الماجور وقد انتفخت أوداجه.. وظن نفسه أنه ماجور حقاً:

– أرجو أن تتكرم بإيضاح ما ترمي إليه؟

فتأبط أندريا ذراع الماجور في شكل أخوي.. وقال:

– يا عزيزي كفالا كنتي.. كم دفعوا لك ثمناً لهذه الأبوة؟ إنهم جعلوا لي مبلغ خمسين ألف فرنك في العام لأكون ابنك. وعلى ذلك يجب أن تكون على ثقة من أنني لن أحاول أن أنكر أبوتك.

فضحك الماجور وقال: إنهم أعطوني مثلما أعطوك.

– أترى إذن أن أثق بوعود الكونت؟

– كل الثقة.. ولكن لا تنس أنه يجب علينا أن نقوم بتمثيل الدور بكل دقة.

* * *

وبينما كان ذلك المنظر الغريب يمثل على مسرح الكونت دي مونت كريستو.. كان منظر آخر أشد منه غرابة تعد فصوله في منزل دي فيلفور المدعي العمومي.. دخل دي فيلفور غرفة والده نوارتييه، وبرفقته زوجته.. وأخذ كل منهما مكانه إلى جانبي الرجل المفلوج.

كان نوارتييه جالساً، أو بالأحرى ملقى فوق مقعد كبير له عجلتان تساعدان فالنتين أو خادمه الأمين (برواس) على تحريك المقعد كلما بدا للشيخ أن يتريض قليلا. ورغم أن نوارتييه كان فاقد الحركة والصوت إلا أنه استطاع أن يفهم بعينيه مما بدا على وجه ابنه وزوجته أنهما جاآه لأمر هام ذي صبغة رسمية..

قال المدعي العمومي لأبيه: سيدي.. إننا نفكر في عقد زواج فالنتين وسيتم ذلك في أقل من شهرين..

ظلت عينا المفلوج ثابتتان.. وتكلمت مدام دي فيلفور قائلة:

– ونعلم أنه يسرك الذي نقول، لأننا نعرف أنك شديد الحب لفالنتين.. ولم يبق علينا إلا انتظار الشاب الذي سيفوز بها.. وهو البارون فرانز دي كويزنل دي ابناي..

وما إن نطقت مدام دي فيلفور بذلك الاسم حتى اختلجت حدقتا المفلوج اختلاجاً عنيفاً وارتجفت أهدابه.. ونظر إلى ولده وزوجته نظرة صارمة..

وكان دي فيلفور عارفاً بالنفور الذي وقع بين والده والجنرال كويزنل فيما مضى.. وكان سببه الاختلاف في المذاهب السياسية. ولذلك فإنه أدرك لفوره معنى القلق الذي بدا على وجه أبيه.. وتعمد التظاهر بأنه لم يلحظ ذلك.. وأردف: أنك تعرف يا سيدي أن فالنتين قد بلغت التاسعة عشرة من عمرها وأنه أصبح من الضروري البت في أمر مستقبلها.. ولقد اتفقنا مع زوجها المستقبل أن لا يعارض في إقامتك معها. حتى لا تشعر بأي تغير يطرأ على حياتك.

فلمعت عينا الشيخ ببريق الغضب. ونهض دي فيلفور. وفتح إحدى النوافذ وهو يقول: إن الجو حار.. وأظن أن الحرارة تؤثر على مسيو نوارتييه وعاد إلى مكانه..

ولكنه لم يجلس.. واستطردت مدام دي فيلفور قائلة: وقد وافق البارون فرانز وجميع أفراد عائلته على هذا القران.. بيد أن البارون ليس له أقارب يذكرون غير عمه وعمته لأن والدته توفيت عقب وضعه.. وقتل والده سنة **١٨١٥** أو بمعنى آخر عندما كان البارون في الثانية من عمره.

قال دي فيلفور: لقد كان حادث اغتياله غامضاً.. ولم يعرف القتلة.

وهنا بذل نوارتييه مجهوداً عظيماً ليعلن عن سروره فبدت على شفتيه ابتسامة سعيدة. قال دي فيلفور:

– والآن.. أظن أن أولئك الذين ترجع إليهم مسئولية ذلك القتل ينتهزون هذه الفرصة لإعلان السلام والرضى عن قران فالنتين بابن ذلك الذين قتلوه. وهنا كانت النظرة التي تجلت في عيني نوارتييه بمعنى الفهم وإدراك ما يقول وأشار دي فيلفور إلى زوجته بالانصراف ثم تحول إلى أبيه وسأله: هل أرسل إليك فالنتين؟

فأغمض المفلوج عينيه دلالة على الإيجاب.

* * *

وأقبلت فالنتين.. وبنظرة واحدة استطاعت أن تعرف أن جدها ثائر النفس حانق.. ورأت في عينيه أنه يريد أن يحدثها عن شيء.. فصاحت به: يا جدي العزيز، يخيل إلي أن أبي وزوجته كانا يحدثانك عني فأغمض الرجل عينيه..

– دعني أفكر لحظة.. آه.. لقد عرفت. كانا يحدثانك عن زواجي أليس كذلك؟

– نعم.

وبدت على وجه الرجل علامات الضيق والتذمر.. فسألت الفتاة:

– وهل أنت راض عن هذا الزواج يا جدي؟

فتحركت عينا الرجل دلالة على النفي.. فركعت الفتاة عند قدميه وأحاطت عنقه بذراعيها.. وقالت:

– وأنا أيضاً غير راضية لأني لا أحب فرانز ابناي.

فلمعت عينا الرجل بسرور.. وبدت فيهما نظرة ذات معنى عميق ظنت الفتاة أنها تستطيع أن تفهم منها قوله (إن في استطاعتي أن أساعدك).

فصاحت: أتظن أنك تقوى على مساعدتي؟

فأغمض عينيه بمعنى الإيجاب.

ورفع نوارتييه عينيه.. وكان ذلك إشارة متفقاً عليها بينه وبينها إذا كان في حاجة إلى شيء.. وإذ ذاك رددت على مسمعه الحروف الأبجدية بالترتيب. فلما وصلت إلى حرف الميم أغمض الرجل عينيه.. مما يفيد أن اسم الشيء الذي يطلبه يبدأ بحرف الميم.

ونهضت الفتاة إلى القاموس.. وراحت تتلو عليه الأسماء التي تبدأ بحرف الميم.. فلما وصلت إلى كلمة (مسجل) أغمض الرجل عينيه مرة أخرى. قالت الفتاة:

– إذن فأنت تطلب مسجل عقود؟

– نعم.

– وهل أنبئ والدي بذلك؟

– نعم.

فقرعت فالنتين جرساً.. ثم أمرت الخادم بأن يدعو والدها.

ولم تمض لحظة حتى أقبل دي فيلفور والخادم العجوز برواس. وقد سأل الأول الرجل المفلوج بقوله: لماذا تطلبني يا سيدي؟

فقالت فالنتين لوالدها: إن جدي يطلب مسجل عقود.

وعلى إثر هذا الطلب الغريب تبادل دي فيلفور ووالده نظرة خاصة وقال الأول: هل تريد مسجل عقود؟

– نعم.

وقال برواس: إذا كان مسيو نوارتييه يطلب مسجل عقود فذلك يعني أنه يريده لأمر هام. ولذلك أرى أن أعجل بتحقيق رغبته.

* * *

وما إن خرج برواس حتى ألقى نوارتييه على فالنتين إحدى تلك النظرات العميقة ذات المعاني كبيرة. وقد فهمت فالنتين ما وراءها. وكذلك فهم دي فيلفور لأن وجهه لم يلبث أن تجهم. وتعقد جبينه، وزم ما بين حاجبيه.

وبعد ثلاثة أرباع الساعة عاد برواس مع أحد المسجلين. فقال له دي فيلفور:

– سيدي.. لقد أرسل مسيو نوارتييه في طلبك. وهو كما ترى مصاب بالفالج ولا يستطيع أن يعبر عن رغباته إلا بعينيه. وأننا لنلقي صعوبة كبيرة في فهم ما يقصد.

فنظر نوارتييه إلى فالنتين.. فقالت هذه لفورها:

– ولكني يا سيدي أستطيع أن أفهم كل ما يطلب.

ثم حدثت المسجل بالطريقة التي تستطيع أن نتفاهم بها مع جدها وهي لا تخرج عن التخاطب بالعينين.

عند ذلك ألقى نوارتييه على فالنتين نظرة عطف واضحة المعنى لم يخف مغزاها على المسجل الذي أدركها على الفور.

قال المسجل يحدث نوارتييه: إنك أدركت يا سيدي ما قالته حفيدتك أليس كذلك؟ فأغلق الرجل عينيه..

– والآن هل تريدني أن أكتب لك وصيتك؟

– نعم..

وللحال بدأت فالنتين عملها كواسطة بين جدها والمسجل، مستعينة في ذلك بالقاموس.

وتحول المسجل إلى دي فيلفور.. وقال:

– اسمح لي يا سيدي أن أقول أنه لم يحدث لي أن وقفت مثل هذا الموقف الغريب.

فأجاب دي فيلفور: نعم.. وأني أتوقع أن تكون الوصية أكثر غرابة.. وليس في استطاعتي أن أتصور كيف سيمكن كتابتها بدون تدخل فالنتين. على أنني أحسب أن الفتاة ستقوم بمهمتها خير قيام متى رأت محتويات الوصية جميعها لصالحها.

فتحركت عينا الرجل المفلوج بما يفيد: كلا.. كلا..

فقال دي فيلفور: هل تعني أن الوصية ليست لجانب فالنتين؟

– كلا..

وأخيراً بدأ المسجل عمله بمساعدة الفتاة. وقد أحاط دي فيلفور وزوجته وبرواس بمقعد الشيخ المسكين.

وبعد مجهود جبار كتب المسجل وصية الشيخ نوارتييه. وتنحصر في أنه يحرم حفيدته فالنتين من ثروته البالغ قدرها تسعون ألف فرنك إن هي تزوجت من البارون فرانزدي ابناي. أما إذا تزوجت الرجل الذي يختاره هو لها فستكون هذه الثروة لها.. لها وحدها.

وقد اصفر وجه دي فيلفور وزوجته عندما أتم المسجل كتابة صيغة الوصية.

وقال الأول: ولكني أرى أنني الوحيد الذي له أمر البت في زواج ابنتي. أنا الشخص الوحيد الذي له الحق في أن يقدمها للزوج الذي يراه أهلاً لها. وأنا أرى أن تقترن ابنتي بالبارون فرانز دي ابناي ولابد لها أن تتزوجه. وهنا تهالكت فالنتين في مقعدها باكية. مستعبرة.

فقال مسجل العقود لمسيو نوارتييه: ماذا تريد أن تفعل بثروتك يا سيدي في حالة عدم رضاء الآنسة فالنتين عن الاقتران بالبارون فرانز؟

فلم يجب الشيخ واستطرد المسجل:

– ولكنك ولا ريب ستتصرف في هذا المبلغ الذي تمتلكه على أي الطرق؟

– نعم.

– ولكن لابد أنك تعلم أن القانون لا يسمح بأن يحرم الابن بتاتا من ميراث أبيه؟ – نعم..

– إذن فأنت ترغب في أن تتصرف في الجزء الذي يسمح لك القانون بأن تستقطعه من ثروتك بعد الذي يأخذه ابنك؟

فلم يجب الرجل.

– هل تريد إذن أن تتصرف في كل الثروة وتحرم ولدك؟

–نعم.

وهنا التفت المسجل إلى دي فيلفور. وسأله: ماذا ترى يا سيدي؟

فأجاب المدعي: لا شيء يا سيدي. بيد أني أعتقد أن والدي قد اعتزم أمراً ولا أحسبه يرجع فيه ولعله يريد أن يخرج ثروته من العائلة إلى أحد المستشفيات. ولكني أرى أن من المستحيل أن أخضع لتصلب رجل طاعن، وكل ما أراه هو أن أتصرف بما يرضي ضميري.

قال ذلك وغادر الغرفة. وفي ذلك اليوم كتبت الوصية ووضعت تحت حيازة مسيو دي كامب مسجل عقود العائلة.

الفصل الرابع عشر

وفي صباح اليوم التالي لمقابلة الماجور كفالا كنتي وولده المزعوم اندريا برح الكونت مونت كريستو منزله وانطلق إلى خارج باريس.. ثم سار في طريق أورليان مر بقرية (ليناس) ووصل إلى برج (مونتليري) المشيد فوق أعلى مكان في الوادي المسمى بذلك الاسم..

وترجل الكونت عند سفح الوادي.. واتخذ طريقاً حلزونياً يؤدي إلى قمة البرج. فسار فيه بضع دقائق.. وأخيراً اصطدم بصخرة كبيرة، فبحث حوله عن باب. ولم يجد صعوبة في العثور عليه..

ودخل.. فرأى أمامه حديقة صغيرة.. تنتهي إلى جدار البرج القديم، فأغلق الباب خلفه، ثم أجال بصره حوله بسرعة.

وفجأة وقع بصره على رجل في نحو الخمسين من عمره كان يلتقط بعض (التوت) من بين عناقيد العنب المعلقة فوق سقيفة جميلة محيطة بالحديقة.

قال له الكونت باسماً: إنك تحصد ما زرعت.. أليس كذلك؟

فأجاب الرجل وهو يرفع يده إلى قبعته: عفواً يا سيدي.. إني لم أترك عملي غير الآن فجئت إلى الحديقة منذ دقائق قليلة.

فقال الكونت وعلى شفتيه تلك الابتسامة التي لو شاء لجعلها رائعة مخيفة. أو أراد لجعلها حلوة لطيفة. وكانت في هذه المرة تنم عن عطف ورثاء:

– هدئ روعك يا صديقي.. إني لست من المراقبين أو المفتشين، ولكني سائح دفعه الفضول إلى المجيء إليك لرؤية آلة التلغراف..

فأجاب الرجل: سيدي.. لقد انتهى وقت الاستراحة المسموح لي به.. فهلم معي؟

دخل الكونت البرج.. وكان مقسماً إلى طبقات ثلاث. في الأول أدوات وآلات الفلاحة التي يحتاج إليها الرجل.. وفي الثاني بعض الأثاث الحقير.. وأما الطابق الثالث فكان به آلات التلغراف.

سأل الكونت الرجل: هل يتطلب تعلم فن إرسال البرقيات وقتاً طويلاً؟

– إن التعليم لا يتطلب وقتاً طويلاً.. ولكن القيام بأعباء الوظيفة يتطلب مجهوداً شاقاً.

– وكم مرتبك؟

– ألف فرنك في العام يا سيدي.

– إنه مبلغ لا يذكر.. ومع ذلك فيخيل إلي أنها مهنة مسلية.

– نعم.. وقد كاد عنقي أن يدق في بادئ الأمر لكثرة التحديق في الآلات. أما الآن فقد اعتدت عليها.. كما كثرت الإجازات في مواسم انتشار الضباب.

– وكم من الزمن قضيت في هذا المكان؟

– خمسة عشر عاماً.

– وما مقدار المدة التي ينبغي لك أن تمضيها في العمل قبل أن تحصل على المكافأة؟

– خمسة وعشرون عاماً..

– وما مقدار المكافأة؟

– مائة جنيه.

– آه.. انظر.. أليست الآلة في حالة عمل الآن؟

– نعم.. شكراً لك.

– وماذا يقول لك الذي يراسلك.؟

– أنه يسألني عما إذا كنت مستعداً.

– وبم تجيبه؟

فقال عالم التلغراف: ها أنت ترى أنني أجيبه بلفظة (نعم).. وفي الوقت نفسه أسأل المحطة التلغرافية التي تتلو هذه المحطة عما إذا كانت هي الأخرى مستعدة.

– إذن فأنت واسطة بين المحطتين.. إحداهما تنقل الأخبار من إسبانيا إليك.. وأنت ترسلها إلى المحطة التي تتلوك، وهي بدورها تنقل الأخبار إلى باريس؟

– نعم.

– إذن أخبرني.. ماذا يحدث لو أبدلت الإشارات؟

– ماذا يحدث.. يا إلهي.. إنني أخسر وظيفتي في الحال. ولذلك فأنا لا أجرؤ على فعل شيء من ذلك.. ولا أستطيع أن أفعل، لأني أجهل معنى الإشارات.

– ولكنك تستطيع أن تغير بضع إشارات في نظير مبلغ خمسة وعشرين ألف فرنك، وهي ضعف مرتبك في المدة الباقية لك في الخدمة..

– صه يا سيدي.. إن المحطة الخلفية تراسلني.

– بل بالعكس يجب ألا تنتبه إليها. بل انتبه إلى هذه.

وبذلك نجح مونت كريستو في إغراء الرجل إلى أبعد لحدود إذ لم يلبث أن نسى المحطة الخلفية والإشارات التلغرافية. ولم يعد يرى غير رزمة الأوراق المالية التي كان يقدمها إليه مونت كريستو.

سأل: وماذا يجب أن أفعل؟

– شيئاً بسيطاً.. فقط ترسل هذه الإشارات إلى المحطة الأمامية.

قال الكونت ذلك.. ونشر بين أصابعه ورقة بها إشارات ثلاث مرتبة بنظام خاص. ودفعها إلى الرجل قائلا: انظر.. أنها لا تستغرق وقتاً طويلاً. احمر وجه الرجل.. وتساقطت قطرات العرق من جبينه. ولكنه نقل الإشارات إلى المحطة

الأمامية. غير عابئ بعامل المحطة الخلفية الذي خيل إليه أن الرجل قد جن. أما عامل المحطة الأمامية فإنه تلقى الإشارات كالمعتاد. ونقلها تواً حسب الأوامر المعطاة إليه إلى وزير الداخلية.

* * *

وبعد ذلك بخمس دقائق كان نص البرقية بين يدي وزير الداخلية. فأمر لوسيان دابري سائقه بإعداد مركبته.. ولم تمض دقائق قلائل حتى كان سكرتير وزير الداخلية في بيت دنجلار.. فقابل البارونة وسألها قائلاً:

– هل لدى زوجك أسهم مالية على جزيرة (هايتي) التابعة لأسبانيا والتي تكاد تحتلها الولايات المتحدة؟

– نعم ولديه منها ما قيمتها ستة ملايين من الفرنكات.

– إذن فيجب أن يبيعها بأي ثمن. لأن الدوق كارلوس حاكم الجزيرة تركها للولايات المتحدة وعاد إلى إسبانيا.

فلم تنتظر البارونة دنجلار أكثر من ذلك. وهرولت إلى زوجها.. الذي أصدر أمره في الحال إلى عامله أن يبيع بأي سعر.. ولما شاع أن دنجلار باع أسهمه سقطت قيمة الأوراق الأسبانية سقوطاً فاحشا.. وقد خسر البارون دنجلار بسبب ذلك نصف مليون من الفرنكات.

وفي مساء ذلك اليوم نشرت جريدة (المساجير) مقالة جاء بها (هروب الدوق كارلوس حاكم جزيرة "هايتي" وتركها للولايات المتحدة..).

وفي صبيحة اليوم التالي نشرت جريدة (المونيتر) مقالة أخرى جاء فيها: (أذاعت "المساجير" بالأمس خبراً مفاده أن الدوق كارلوس هرب من جزيرة هايتي وهو خبر عار من الصحة ولا أصل له وسببه خطأ حدث في نقل الإشارات التلغرافية بسبب انتشار الضباب".

الفصل الخامس عشر

كان ظاهر منزل (اتويل) لا يدل على شيء من الجاه والغنى.. وهي رغبة الكونت في ظهوره بهذا المظهر.وفي الساعة الخامسة من مساء يوم السبت الموعود، أقبل الكونت يتبعه خادمه النوبي علي.. وكان برتسيو واقفاً في انتظار سيده يتجاذبه عاملان من القلق.. وضيق الصدر. وطاف الكونت بأرجاء المنزل ثم ذهب إلى الصالون. وبقي في الانتظار.

* * *

وما كادت تحين الساعة السادسة حتى بدأ المدعوون يفدون، وكان أسبقهم في ذلك مكسمليان موريل، ثم جاء على أثره لوسيان دابري وشاتوريتو.. وبعد قليل وقفت مركبة البارون دنجلار، فخف إليها لوسيان، وفتح بابها، ثم مد يده ليعون البارونة على النزول.وقد أمسكت البارونة بكف لوسيان بشكل لم يلحظه أحد غير الكونت. كما لم يغب أيضاً عن عينيه أنها دست في يده قصاصة ورق صغيرة.

وهبط البارون في إثر زوجته، وكان مصفر الوجه، حتى يخيل للناظر إليه أنه خارج من القبر لا من المركبة..

وسار الكونت بزائريه يعرض أمامهم غرف بيته، وكانت البارونة تبدي إعجابها بكل ما يقع عليه بصرها.. ولم يكن الباقون أقل منها حماساً في هذا الإعجاب. وفيما هم في طريقهم إلى غرفة الاستقبال، ظهر خادم الكونت بباب الغرفة وقال معلناً قدوم زائرين جديدين:

– الماجور برثلميو كفالا كنتي.. والكونت اندريا كفالا كنتي.. ودخل الماجور في ثياب رسمية جميلة، تلمع عليها أوسمة ذهبية ثلاثة وعلى وجهه إمارات النبل والبسالة.

وإلى جانبه ولده الكونت أندريا وهو لا يقل عنه أناقة ومظهراً.

وتحول البارون دنجلار إلى مونت كريستو قائلاً: من هما هذان السيدان؟

– لابد أنك سمعت عنهما من قبل، فهما من آل كفالا كنتي.

– ذلك يدل على اسمهما فقط.. وليس شيئاً سواه.

– آه.. حقاً.. إنك إذن لا تعرف شيئاً عن العائلات الإيطالية النبيلة يا سيدي.. فإن آل كفالا كنتي كانوا من أمراء البيت المالك!

– وهل هم أغنياء؟

– وأغنياء جداً.

– وماذا يفعل هذان السيدان؟

– يجتهدان أن ينفقا ما تملك أيديهما.. وسوف أقدمك إليهما. ثم إن الابن ينوي أن يتخذ لنفسه زوجة باريسية حسناء.

– حقا.. هذه فكرة جميلة..

فرمقت البارونة زوجها بنظرة كانت تكفي لأن تثير عاصفة بينهما لو أنهما لم يكونا في هذا المكان وهذا الموقف.

وللمرة الثانية ظهر الخادم بالباب.. وقال:

– مسيو ومدام دي فيلفور.

ودخل مسيو دي فيلفور. وهو خائر القوى فاتر العزيمة. وشعر الكونت وهو يصافحه بأن يده ترتجف. والواقع أن دي فيلفور اعتذر بادئ الأمر من القدوم، ولكن إلحاح الكونت وزوجته –أي زوجة دي فيلفور– جعلاه يأتي مرغماً.

وكان برتسيو في خلال هذه المدة منهمكاً في إعداد الطعام في الجانب الآخر من القصر. وقد رآه الكونت أخيراً وهو يمر أمام قاعة الاستقبال فنهض إليه وقال له:

- هل تريد شيئاً يا برتسيو؟

- إن سموك لم تحدد عدد المدعوين.

- عدهم أنت بنفسك.

فأرسل برتسيو ببصره من خلال الباب. وكان مفتوحاً. ولبث الكونت يراقبه في سكون، فسمعه يصيح فجأة: يا للسموات!!

فسأل الكونت: ماذا بك؟

- هذه المرأة! هذه!!

- أيهن؟!

- تلك التي ترتدي ثوباً من الحرير الأبيض.. وتحلي جيدها بطائفة من الأحجار الكريمة.

- مدام دنجلار؟

- أنا لا أعرف اسمها يا مولاي،ولكنها بعينها التي قلت لك أنها كانت حاملاً.. وهي تذرع الحديقة قلقاً في انتظار دي فيلفور المدعي العمومي. ولكن يا إلهي.. هو ذا دي فيلفور أيضاً.. إذن فأنا لم أقتله؟!

- كلا.. إنك لم تقتله. وها أنت تراه بعينيك حياً يرزق، لأنك بدلاً من أن تطعنه بين الضلع السادس والسابع.. ارتفعت طعنتك أو انخفضت قليلاً.. فلم يمت الرجل كما كنت تعتقد والآن أحص الموجودين.

فقال برتسيو بعد لحظة: إنهم ثمانية يا مولاي.

- إنك كثير التسرع يا رجل.. فقد نسيت أحد المدعوين.. صبراً.. آه.. هو ذا التاسع مسيو اندريا كفالا كنتي أنظر إليه.. إنه ذلك الشاب اليافع الذي يرفل في ثوبه الأسود الأنيق ويحملق في صورة (مادونا).. ها هو يحول وجهه فتأمله..

وهنا لم يستطع برتسيو أن يكتم دهشته.. وكادت تفلت من بين شفتيه صيحة..

لولا أن الكونت وضع أصبعه فوق شفتيه محذراً ورمقه بنظرة صاعقة.. فاكتفى الرجل المسكين بأن همس: بنديتو! يا للشؤم! ومضت فترة قصيرة حين فتح باب قاعة الاستقبال على مصراعيه.. ووقف برتسيو على عتبته.. وقال في صوت خشن متحشرج: لقد أعدت المائدة فنهض الكونت وتأبط ذراع مدام دي فيلفور وهو يقول: أرجو أن ترافق البارونة دنجلار يا مسيو دي فيلفور!

* * *

وأخذ كل من المدعوين مكانه حول المائدة..

كان الطعام فاخراً أعد على أحدث النظم الشرقية. وجيء لهم من الفاكهة بكل ما تشتهيه الأنفس.. وقد أشبع مونت كريستو شهية ضيوفه وفضولهم معاً..ولبث الكونت يراقب دهشتهم وعجبهم في سرور. وعلى شفتيه ابتسامته الخاصة.

وأخيراً قال ضاحكاً: أيها الأضياف الكرام. أنتم تعلمون أن الإنسان إذ بلغت به الثروة حداً معيناً، جعل كل همه أن يشبع فضول نفسه بإمدادها بكل ما يراه خارجاً عن حد الطاقة البشرية العادية. وأنا قد توفرت لي هذه الثروة.. وإذن فقد اجتمع لي ما لا يجتمع للكثيرين.. ولكني أعتمد في الحصول على رغباتي على شيئين: إرادتي وثروتي.. وأمام هذين تذوب المستحيلات. ولأضرب لكم مثلا هذه الصحفة.. إن بها سمكتين جيء بإحداهما من بحيرة على بعد خمسين ميلاً من مدينة سان بطرسبرج عاصمة الروسيا. وجيء بالأخرى من مكان على مسافة خمسة فراسخ من نابولي في إيطالي. أفلا تجدون من المدهش أن توضع هاتان السمكتان جنباً إلى جنب؟

فبدت الدهشة على وجوه المدعوين.. وهتف البارون دنجلار:

– حقاً. إنك رجل شاذ خارق، وإذن فهم لا يبالغون إذ يقولون أنك اشتريت هذا البيت فقط منذ خمسة أو ستة أيام؟

– كلا. بل هو الواقع بعينه.

– ومن الغريب أن يتبدل نظامه رأساً على عقب في خلال أسبوع فأنا أذكر أنه

كان للبيت باب آخر.. وكان الفناء مرصوفاً. والآن أراه غاصاً بالحشائش والأشجار التي يخيل لرائيها أنها زرعت منذ مئات السنين.

فقال الكونت: آه.. إني أحب الحشائش وظل الأشجار.

فسألت مدام دي فيلفور: ألم يكن هذا البيت مكاً للماركيز دي سان ميران من قبل؟

– أظن ذلك..

وقال شاتوريتو: وقد ظل هذا البيت خالياً عشر سنوات.. وكان منظره حزيناً مقبضاً.. ولولا أنه كان ملكاً لصهر مسيو دي فيلفور لقلت إن منظره يشعر بأنه كان مسرحاً مثلث على خشبته جريمة رائعة.

ولم يكن المدعي العمومي قد ذاق طعم النبيذ بعد. ولكنه تناول كأسه بيد مرتجفة وأفرغ محتوياتها في جوفه دفعة واحدة.وانتظر الكونت عمداً.. حتى مضت لحظات ثم قال:

– من المدهش يا عزيزي شاتوريتو أن يكون هذا الشعور هو نفس الشعور الذي خالجني ساعة أن وطئت قدماي باب هذا البيت.. لقد كان منظره رائعاً حالكاً..

قال دي فيفلور: إن هذا البيت جزء من بائنة فالنتين.. وقد قدمه إليها جدها الماركيز وإني أعتقد أنه أحسن بعرضه للبيع، لأنه لو ظل خالياً سنتين أخريين لأصبح مهجوراً.

وهنا جاء دور مكسمليان فاصفر وجهه حالما سمع اسم فالنتين.. أما الكونت فإنه قال: وإني أخص بالذكر في هذا البيت غرفة يخيل إلي أن مأساة محزنة قد وقعت بها.

فقال دنجلار: ولم ذلك؟ ما الذي يحملك على هذا الاعتقاد؟

– شعور باطني يصور لي من جوها الحزن المقبض.. سلسلة لذكريات مؤلمة..

وسوف تحكمون بذلك أنتم أنفسكم حين أذهب بكم إليها.. ونظر الكونت إلى مدعويه متسائلاً.. فنهضت مدام دي فيلفور. وتبعها الكونت.. ثم حذا الباقون حذوهم.. خلا مسيو دي فيلفور ومدام دنجلار وكانا جالسين. جنباً إلى جنب.. وقد خيل كأنهما ألصقا بمقعديهما، فتبادلا بينهما نظرة سريعة مختلسة فيها معنى التساؤل.. وهمست البارونة: هل سمعت؟

فمد إليها ذراعه.. وأجاب: يجب أن نذهب معهم..

وكان باقي المدعوين قد تبعثروا في أرجاء البيت يتفقدون بإعجاب نظامه وأثاثه.. حتى لحق بهم دي فيلفور والبارونة، فرمقهما الكونت بنظرة لو رأياها لخرا مصعوقين.. ودخل الجميع غرفة النوم.. وكان جميع أثاثها قديماً عتيقاً.. ومنظماً بشكل خاص.. فقالت مدام دي فيلفور:

– حقاً. أنها مخيفة.

وغمغمت البارونة بضع كلمات لم تخرج عن شفتيها، وقال الكونت تعليقاً على قول مدام دي فيلفور:

– أليس كذلك؟ انظروا إلى هذا الفراش الكبير ذي الأغطية التي في لون الرماد.. وتأملوا هاتين الصورتين اللتين قد ذهب الظلام برونقهما.. إن شفتيهما صفراوان. وأعينهما بارقة. وكأنهما يقولان: (لقد رأينا)!!

وهنا اصفر وجه دي فيلفور. وسقطت البارونة في مقعد طويل قريب من الموقد.. فقالت لها مدام دي فيلفور باسمة:

– يا الله! أتجدين الشجاعة الكافية للجلوس فوق هذا المقعد الذي لا يبعد أن تكون قد حدثت عليه الجريمة؟!

فهبت البارونة واقفة فجأة.. وقال الكونت:

– ليس هذا كل ما هنالك.

وفتح بابا تخفيه إحدى الستائر.. وقال: بل هنا سلم خفي صغير..

هتف شانوريتو باسماً: يا له من سلم موحش؟!

فأردف الكونت: ألا تستطيع أن تتصور رجلاً مثل (عطيل) بطل رواية شكسبير وهو يهبط هذا السلم خطوة فخطوة حاملاً بين يديه شيئاً يريد إخفاءه عن أعين الناس ولا يقوى على إخفائه عن عين الله!

وهنا تراخت كل قوى البارونة بين يدي دي فيلفور.. واضطر هذا إلى الاعتماد على الجدار خشية السقوط.. فصاح لوسيان:

– يالله! يا سيدتي البارونة.. إنك شديدة الاصفرار. فماذا حدث؟

فأجابت بجهد: لا شيء.. لا شيء.. فقط أحتاج إلى الهواء.

قال الكونت: هل أنت خائفة يا سيدتي؟

– كلا.. كلا.. كل ما هنالك أنك ترسم الصور الخالية في شكل يكسبها مظهر الحقيقة. فأردف باسماً:

–آه ولم يكون ذلك مجرد خيال؟ لماذا لا نتصور أن هذه الغرفة كانت لوالدة أمينة مخلصة؟ وهذا السلم الخفي طريق يسلكه الأب في مجيئه إلى الدار، وخرجه منه وهو يحمل بين ذراعيه طفله النائم؟ غير أن هذه الكلمات بدلاً من أن تهدئ روع البارونة، سلبتها آخر سيطرة على أعصابها فصرخت في ذعر ثم سقطت مغمى عليها.. فخفت مدام دي فيلفور إلى نجدتها وأخرجت قنينة الدواء التي أعطاها لها الكونت.. فسكب هذا نقطة واحدة بين شفتي البارونة.. وسرعان ما استعادت رشدها وغمغمت:

– يا له من حلم رائع..

وانتقل الجميع إلى الحديقة.. وهناك رؤى البارون دنجلار يتناول القهوة مع الماجور كفالا كنتي وولده.

قال الكونت للبارونة: هل أرعبتك أقوالي يا سيدتي؟

– كلا.. كلا يا سيدي.. فقط أنت تعلم أن لمثل هذي الأحاديث وقع يختلف في أنفسنا باختلاف الأمزجة والطبائع.

– ولكني لا زلت أعتقد أن هناك جريمة ارتكبت في هذا البيت.

فقال مدام دي فيلفور باسمة:

– حذار؛ فإن المدعي العمومي على قيد خطوات، وهو من رجال القانون.

فقال الكونت: آه.. أين هو؟ بودي إذن أن انتهز هذه الفرصة لألقي أقوالي على مسمع منه.

وقال لوسيان: هذا حادث طريف بغير شك. ولكن هل تستطيع أن تتصور نوع هذه الجريمة إذا كانت هناك حقاً جريمة ارتكبت؟!

فأجاب الكونت: نعم. وأستطيع أن أدلكم على مكان وقوعها.. فهلموا بنا من هذا الطريق وتأبط ذراع دي فيلفور كما تأبط ذراع البارونة أيضاً، وسار بهما إلى شجرة وارفة الظلال. وتبعه بعض المدعوين. ووقف الكونت فجأة. وقال: صبرا. هنا كان يشتغل خادمي بالحفر. فعثر على صندوق حديدي به هيكل عظمي لمولود صغير.

وشعر الكونت بذراعي البارونة ودي فيلفور يرتجفان تحت إبطيه. وصاح لوسيان:

– هيكل عظمي لمولود صغير؟ هذا حادث يستحق الاهتمام.

وسأل الماجور كفالا كنتي بحسن نية: وبم يعاقبون من يتخلصون من أطفالهم في هذه البلاد؟ فأجاب دنجلار: يعاقبون بالشنق.

وقال الكونت: لنسأل مسيو دي فيلفور فهو من رجال القانون.

فأجاب دي فيلفور بصوت المذنب الذي يواجه بجريمته ولا يجد مفراً من لاعتراف: نعم يا كونت.

ورأى الكونت في النهاية أنه سار إلى أبعد حد في تصوير المنظر الذي أعده للشخصين اللذين أراد أن يعنيهما به من دون المدعوين فاكتفى بهذا العقاب الصامت الذي أنزله بهما وقال:

– هلموا بنا لنتناول القهوة أيها السادة.

فسار الجميع إلى مائدة توسطت الحديقة. وانتهز دي فيلفور إحدى الفرص، وهمس في أذن البارونة: تعالي إلي غداً في مكتبي، فلدي ما أقوله لك.

* * *

وانقضى ذلك المساء.. وانصرف المدعوون. وأصر البارون دنجلار على أن يصحب معه الماجور كفالا كنتي في مركبته. فقد سرته صحبته وكان معجباً بماسة كبيرة تتألق في أصبع الماجور.. وكان قد دار في الحديقة حديث طويل بين الرجلين. استهله الماجور بذكر سمك (اللامبري)! وانتهى بقوله للبارون: غداً سأتشرف برؤيتك لأمر خاص. فأجاب البارون: يكون لي كل الشرف يا سيدي.

وركب الماجور إلى جانب البارون. وكان هذا شديد الإعجاب بذلك الرجل الثري الذي لا يقل دخله سنوياً عن نصف مليون جنيه، ويسمح لابنه منها بخمسين ألف فرنك في العام الواحد.

أما أندريا، فإنه سار توا إلى مركبته الخاصة وألقى بعض التعليمات إلى السائق.. ثم هم بالوثوب إلى المركبة.. ولكنه شعر بيد تمس كتفه بلطف فحول عينيه بسرعة ووقع بصره على وجه قد صبغته الشمس واحتاطت به لحية كثة.. وتبرق فيه عينان سوداوان مخيفتان وفم يفتر بابتسامة عن أسنان حادة بيضاء كأسنان الذئب. أما ثيابه فكانت خلقة ممزقة.

تراجع أندريا إلى الخلف وسأل: ماذا تريد مني يا هذا؟

– عفوك يا صديقي.. دعني أركب معك لنتحدث في الطريق.

فاصفر وجه أندريا. ولكنه لم ينبس ببنت شفة.. فقال الرجل وهو ينظر إليه نظرة

خاصة: نعم. أنا أريد ذلك. أفهمت يا أستاذ بنديتو؟!

وما سمع الشاب هذا الاسم حتى تراجع إلى الخلف.. ولكنه عاد فأمر الغريب بالركوب.. فلما انطلقت بهما المركبة.. سأل:

– والآن أخبرني ماذا تريد؟

– دعني أسألك أولاً لماذا خدعتني؟

– وكيف خدعتك؟

– ألم نتفق عند افتراقنا على أن تذهب إلى تسكانيا، ولكني بدلاً من ذلك أراك قد جئت إلى باريس.؟

– هذا من شئوني، وأنا أحذرك يا كادروس من التدخل فيما لا يعنيك..

– عفواً.. عفواً.. ولكن الأصدقاء أصدقاء على العموم.. وأنت وقد أصبحت مليونيراً عظيماً يجب ألا تغفل صديقك وأستاذك كادروس المسكين.. وإلا..

وبتر كادروس عبارته بشكل تهديدي.. فسقط في يد الشاب. وقال:

– حسناً.. ماذا تريد؟

– أظن أنني بحاجة إلى مائة فرنك في الشهر أستطيع أن..

فقال أندريا: فلتكن مائتين.. وهاك راتب أول شهر. – مرحى.. مرحى.. أنك ولد طيب.

– وعليك أن تجيء إلي في أول كل شهر فأعطيك مثل هذا المبلغ.

ثم دفع إليه بعنوان المنزل الذي يقطنه.. وكانا وقتئذ قد دخلا باريس فقفز كادروس من المركبة وهو يقول: إلى اللقاء.

فتأوه أندريا. وغمغم: يبدو أن السعادة التي كنت أمني بها النفس وهم باطل.

الفصل السادس عشر

على إثر انصراف لوسيان دابري من منزل الكونت دي مونت كريستو قصد توا إلى قصر البارون دنجلار.وكانت البارونة تتهيأ للذهاب إلى مخدعها. فاصطحبته معها. ومن ثم بدأت تخلع ثيابها. وارتدت ثوب نوم يكاد أن يكون شفافاً. وعادت فجلست بجانب الشاب. فرمقها لوسيان بنظرة هادئة.. ثم قال: يخيل إلي أن هناك ما يضايقك و..

ولكنه بتر عبارته. فقد فتح الباب في تلك اللحظة.. وظهر دنجلار على عتبته. ولم تتمالك البارونة من إظهار دهشتها لقدوم زوجها غير المتوقع.

قال البارون: أرجو المعذرة، ولكنك تجهدين نفسك بالسهر يا بارونة.. ثم إن مسيو دابري لا يقيم على مقربة.. والشقة بينه وبين منزله بعيدة.

اصفر وجه لوسيان.. واستطرد دنجلار: أرجو معذرتك بالوسيان. فإني أريد أن أتحدث إلى زوجتي في أمر هام.

ارتج القول على البارونة وصديقها. وأخيراً غمغم لوسيان بضع كلمات وأحنى رأسه ثم انصرف. وعندئذ احتل البارون مكان الشاب. وواجه زوجته قائلاً:

– سيدتي.. هل تعلمين أنني خسرت ٧٠٠ ألف فرنك في الأوراق الأسبانية؟

– وما شأني أنا في ذلك يا سيدي. هل كنت السبب في خسرتك؟

– نعم يا سيدتي.. وإليك الدليل.. فقد حدث في شهر مارس الماضي أن تقدمت ثلاث شركات لتعهد أدوات مصلحة السكك الحديدية وقدمت كل شركة تأميناً مساوياً لتأمين زميلتيها.. فقلت لي حينذاك أن هاتفاً خفياً يجعلك تعتقدين أن الشركة التي ستفوز هي شركة (سوثرن) فابتعت ثلثي أسهم تلك الشركة.. وحدث فعلاً أن ارتفع ثمن تلك الأسهم حتى بلغ الثلاثة أضعاف فربحت مليون فرنك نالك منها

الربع.. وفي شهر ابريل بلغت أرباحي في الأوراق الأسبانية ستمائة ألف فرنك أعطيتك منها الربع أيضاً.. فيكون مجموع ما أخذته في هذا العام أربعمائة ألف فرنك..

فقالت البارونة في سخرية: وماذا في ذلك؟

– ماذا في ذلك ؟ ألم تكوني السبب فيما منيت به أمس من الخسائر فإليك وحدك يرجع الفضل في إذاعة هذا الخبر المختلق عن فرار الدون كادروس..

– حسنا.. وبعد..

– وبعد ؟! ما دمت كنت أعطيك ربع أرباحي.. فالأجدر (بكما) أن تدفعا ربع الخسائر.. فقاطعته البارونة قائلة:

– إنني لا أفهمك يا سيدي.. ولست أرى ما يدعوك إلى إدماج مسيو دابري في الموضوع! فصاح البارون في غضب:

– دعينا من هذه الألفاظ الجوفاء.. وإلا أرغمتني على التصريح بأن مسيو دابري هو الذي استولى على الأربعمائة ألف فرنك..

فهتفت البارونة: أيها التعس.. وتجرؤ على تأنيبي الآن فيما كنت على علم به من قبل وأغضيت عنه؟ وإذا كان دابري كما تقول هو المرجع الأول في خسائرك فلم لا تذهب إليه وتناقشه الحساب؟!

– إنني لا أعرف دابري ولا أريد أن أعرفه، لأنني لست بحاجة إلى طلب نصحه كما تفعلين.. واها لكن يا معشر النساء.. إنك تحسبين نفسك قد بلغت أقصى درجات المكر والدهاء.. وفاتك أنني أتصنع البلاهة وإنني على علم بكل أمورك المخجلة.. وزلاتك الشائنة. وثقي أن جميع أصدقائك من دي فيلفور إلى دابري يرجفون أمامي..

وكانت البارونة تصغى لكلمات زوجها في غضب مكتوم.. ولكن لم يكد اسم دي فيلفور يصل إلى مسامعها حتى هبت واقفة.. واصفر وجهها.. وتقدمت من زوجها

خطوتين أو ثلاث.. وقالت في صوت أجوف: مسيو دي فيلفور! ماذا تعني؟

– أعني أن زوجك الأول مسيو دي نارجون لم يكن من الثراء وقوة المركز ما يستطيع بهما أن يواجه خصمه المدعي العمومي ويناقشه الحساب. وآثر أن ينتحر إما عجزاً أو حزناً، حين عاد بعد غيبة تسعة شهور ووجدك تحملين بين جنبيك جنيناً في الشهر السادس من تكوينه.

وخيل كأن قدمي البارونة قد غاصتا في الأرض عندما انقضت عليها هذه الكلمات. ولكن البارون لم يعرها التفاتا وغادرها دون أن يزيد كلمة أخرى.

* * *

وفي صباح اليوم التالي ذهب البارون لزيارة الكونت دي مونت كريستو ولم تخف على الكونت علامات القلق والاضطراب البادية على وجه زائره.. فقال: ماذا بك يا صديقي؟ أنت رجل مليونير ولا يمكن أن يكون للحزن هذا التأثير على نفسك إلا إذا كان هناك أمر جلل.

فقال البارون: الواقع إنني في أشد الحيرة.. تصور رجلاً تربطني به صلات العمل منذ سنة. وبلغ مقدار ما عليه مليوناً من الفرنكات.. أرسلت بالأمس إلى أحد عملائه في الخارج أطلب ستمائة ألف فرنك لحسابه فهل تعلم ما إذا أجاب به هذا العميل؟ إنه أعاد إلي الكمبيالات غير مدفوعة والأدهى من ذلك أن معي مستندات قيمتها أربعمائة ألف فرنك مسحوبة على اسمه أيضاً. ومن الواجب على عميله في باريس أن يدفعها في نهاية هذا الشهر. ولكنني عندما تحريت عن هذا العميل علمت أنه اختفى نهائياً. فإذا أضفنا هذه الخسائر إلى خسائري في الأوراق الأسبانية..

فقاطعه الكونت: بلغت خسائر هذا الشهر مليوناً وسبعمائة ألف فرنك على وجه التقريب.

– لا على وجه التقريب.. ولكن بالضبط.

فأردف الكونت في لهجة غريبة: إذن فلو مضت سنة شهور على ذلك المنوال

لأصبحت على شفا الخراب؟

فابتسم البارون ابتسامة ماكرة.. وقال:

– هذا صحيح.. ولكن يخيل إلي أنك لا تجيد الحساب يا سيدي الكونت، لأني أعوض ما أفقده من الدم بالغذاء. فقد أخسر موقعة في أسبانيا. وأخرى في تريستا. ولكن عملائي في الهند قد يفلحون ورجالي من المكسيك قد يعثرون على منجم !

فقال الكونت: إذا كان الأمر كذلك فدعني أهنئك.

فأردف البارون: وبهذه المناسبة.. أخبرني ماذا في استطاعتي تقديمه للماجور كفالا كنتي.. فقد جاءني في هذا الصباح ومعه كمبيالات بمبلغ أربعين ألف فرنك تستحق الدفع عند الطلب. وتلك الكمبيالات مسحوبة باسمك وموقع عليها من الأب (بيزوني).. ولقد صرفت له قيمة الكمبيالات.. ولكنه أخبرني أنه يريد فتح حساب لولده أيضاً..

– هل تتكرم بإفادتي عن المبلغ الذي سمح لابنه بسحبه؟

– خمسة آلاف فرنك في الشهر.. ولكن هل تثق بكفالا كنتي هذا يا كونت؟

– أنا.؟! إني أعتمد إمضاءه لستة ملايين من الفرنكات.

– وبهذه المناسبة.. أذكر أن النبلاء يوثقون وشائج القربى بينهم بروابط الزواج. أليس كذلك إنهم يفعلون ذلك أيضاً لوحيد مواردهم..

– ذلك هو المعتاد بالطبع.. إلا أني أعتقد أن كفالاكنتي لا يحذو حذو أمثاله من النبلاء ولذلك أؤكد لك أنه ما جاء بابنه إلى فرنسا إلا لاختيار زوجة صالحة.

فبدأ التفكير على وجه دنجلار.. وقال:

– مهما يكن من شيء فإني أشكرك لأنك أرسلت إلي هذا العميل الجديد ولكن هناك شيئاً واحداً أرجو أن تصارحني فيه برأيك.. وهو.. هل يهب مثل أولئك القوم أبناءهم ثروة تذكر إذا تزوجوا؟

– آه.. ذلك موكل بالظروف.. فإذا رضي الأب عن زواج الابن فتح له خزائنه يغترف منها ما يشاء. وإلا أغلقها دونه.. ولكن يخيل إلي أنك ترغب في إيجاد زوجة طيبة لأندريا.

– هذا صحيح.. وأنا أتوقع أن أوفق في ذلك إلى حد بعيد.

فقال مونت كريستو ضاحكاً: وأنا آمل ألا تزوجه من الآنسة يوجيني وإلا دق ألبرت دي مرسرف عنق كفالا كنتي المسكين..

فبدت دلائل الجد على وجه دنجلار.. وقال: أصغ إلي يا عزيزي الكونت. لقد كان دي مرسرف الكبير صديقي.. وأعرف من هو فلما كنت أنا كاتباً في أحد المحال التجارية. لم يكن دي مرسرف إلا صياد سمك بسيطاً.

– وماذا كان اسمه إذ ذاك؟

– كان اسمه فرناندو مونديجو.

– ولماذا إذن رغبت في أن تزوج ابنتك يوجيني من ابنه ألبرت؟

– لأن فرناندو ودنجلار كانا أصدقاء.. وكانا فقراء.. ثم أصبحا معا أغنياء نبلاء. وفي حالة تعادل في الهيئة الاجتماعية.. هذا بغض النظر عن بعض أمور تنسب إليه.. ولا يعلق باسمي مثلها..

– آه. حقاً؟! إن ما تقوله لي الآن يذكرني بأشياء تحول حول اسم فرناندو مدنديجو. وكان أول ما وصل إلى سمعي عنه في بلاد اليونان.

– لا شك أنك سمعته مقروناً بحادث علي باشا الزعيم الألباني؟

– نعم.

فقال دنجلار: هنا يكمن السر. وإني على استعداد لأن أضحي بأي مبلغ من المال لأقف على حقيقة ما يقال.

– ذلك سهل للغاية. فاكتب لوكيلك في مدينة (يانينا) واسأله أي دور لعب

الرجل المعروف باسم فرناندو مدنديجو في كارثة علي باشا الزعيم الألباني.

– سأفعل ذلك.

– وإذا اتصل بك خبر فاضح ذو أهمية..؟

– فإني أنقله إليه.

ونهض دنجلار لفوره.. ووثب من الباب منصرفاً.

* * *

وبينما كان دنجلار يزور الكونت دي مونت كريستو، كانت زوجته البارونة مجتمعة بمسيو دي فيلفور في مكتبه بوزارة الحقانية. وكان دي فيلفور منهمكاً في الكتابة عند دخول عشيقته القديمة. فرفع رأسه. وقال لها بعد أن أومأ إليها بالجلوس:

– سيدتي.. أظن أنه قد مضى عهد طويل منذ تلاقينا على انفراد لآخر مرة. ويؤسفني أنني لم أطلب مقابلتك اليوم إلا لأحدثك بصراحة. فقد بت أعتقد أن كل خطوة من خطواتنا هي تماماً كخطوات الحشرات فوق الرمل تترك أثراً وراءها.

فقالت البارونة: إنك تستطيع أن تقدر مبلغ تأثري.. وأنا أسألك الرأفة فإن الطريق الذي سلكناه معاً والذي تشير إليه لم تكن فيه أول السالكين.. وكلنا يعلم أن ليس وراء اللذة غير العار.. إنكم معشر الرجال لا يلحق باسمكم شيء يذكر بخلافنا نحن النساء.. ولا تنس أننا شركاء في الجريمة.. وعلى أي حال. أرجو أن تسمح لي فأقول أن الجريمة لو كانت بالفرض جريمتي وحدي، فإني قد تلقيت بالأمس عقوبتي.

– إذن فاعتمدي على كل شجاعتك لأنك لم تتلقي العقوبة كاملة.

فبدا الذعر على وجه المرأة.. واستطرد المدعي العمومي:

– نعم.. وصوري لنفسك مستقبلا أشد حلكة وألماً من الماضي. ألا انظري.. كيف ارتسم الماضي أمام عينينا بهذه المفاجأة؟!

فقالت هرمين: يا للقدر الدامي.

– القدر!كلا.. ليس للقدر دخل فيما نحن بصدده. وإنما هي مكيدة مدبرة للقضاء علينا.

لقد قال الكونت أن خادمه عثر بصندوق صغير به هيكل عظمي لطفل صغير. ولكنه ادعاء باطل.. فالكونت حينما أمر بحفر الحديقة لم يجد صندوقاً أو هيكلاً عظيماً لأنه لم يكن هناك شيء منهماً.

فنظرت البارونة إلى عشيقها القديم نظرة ملؤها الرعب والدهشة.. وصاحت:

–لم يكن هناك شيء منهما؟!

– نعم.. فأنت تذكرين أنه لما طعنني ذلك الكورسيكي اللعين وهرب، سمعت أنت أنيني وألمي، فخففت لنجدتي رغم مرضك.. وقلت وقتئذ أنني أصبت في مبارزة. وبذلك استطعنا أن نذر الرماد في عيون الجميع.. وعندما شفيت من جرحي.. وكنت أنت قد تزوجت بالبارون دنجلار، خطر لي أن أبحث عن جثة الطفل.. فطالما كنت أراها في أحلامي تقف فوق الصندوق وتحدجني بنظرات تهديدية رائعة.. وقد كان وجئت إلى المنزل متسللاً ثم بدأت الحفر تحت شجرة الأبنوس. ولكني لم أجد شيئاً.

وهنا أفلتت من شفتي البارونة صرخة خافتة.. وهتفت: يا إلهي!!

واستتلى دي فيلفور: كانت الصدمة عنيفة.. ولكنني استجمعت قواي الجثمانية والعقلية. وبدأت أتساءل عن السبب الذي من أجله حمل الكورسيكي اللعين جثة الطفل ، ولكني لم أجد جواباً معقولاً في ذلك الوقت..

ونهض المدعي واقفاً.. ثم اقترب من المرأة.. وقال في صوت خافت:

– وأما الآن فأظنك قد أدركت كل شيء.. أن الولد على قيد الحياة.. ولابد أن هناك من يعرف ذلك.. وما دام الكونت مونت كريستو يتحدث أمامنا عن جثة طفل استخرجت من أرض الحديقة. مع العلم بأنه لم تكن في أرض الحديقة جثة ما. فهو إذن العارف بسرنا وجريمتنا.

فصاحت الأم في لهجة هي مزيج من الذعر.. والفرح:

– ولدي.. ولدي.. ألا يزال على قيد الحياة.!

– نعم. يا سيدتي.. فقد قمت ببعض التحريات حتى تأكدت من أنه لم يمت.. ولكني لم أستطع الاهتداء إلى مقره.. أما وقد اتضح أن الكونت مونت كريستو واقف على السر، فإني أعتقد أنه ما دبر وليمة الأمس إلا ليقضي علينا.. على أني أجهل كل الجهل الدافع له إلى هذا السعي الأثيم، ولذلك فقد عولت على كشف القناع عن حقيقة ذلك الرجل الجهنمي.

* * *

وعلى أثر ذلك نهضت البارونة. وشيعها دي فيلفور إلى الباب..

* * *

وقد بر المدعي العمومي بوعده، فكتب إلى مدير البوليس يناشده المعونة في البحث والتقصي عن حقيقة الكونت دي مونت كريستو.

ولكن جهوده ذهبت هباء.

الفصل السابع عشر

كان قصر آل مرسرف في مساء يوم السبت التالي.. يسبح في أضواء الثريات.. فبدا كشعلة من أنوار وهاجة وكانت موائد الطعام قد مدت في أرجاء الحديقة، وعليها مما لذ وطاب من المأكل والشراب..

كانت هذه الليلة هي موعد الحفلة الراقصة السنوية التي اعتاد الكونت دي مرسرف إقامتها في كل عام.وبدأ المدعوون يتقاطرون. إجابة للدعوة الرقيقة التي وجهتها لهم الكونتس. وكانت البارونة دنجلار أول من أقبل. فخفت الكونتس (مرسيدس) وابنها ألبرت لاستقبالها.

كانت بمفردها.. وقد لاحظت علامات الاستفهام والعجب التي كانت تبدو على وجه ألبرت. فقالت:

–هدئ روعك.. لقد تقابلت يوجيني مع مدموازيل دي فيلفور وهما قادمتان معاً.. ولكن يخيل إلي أن مدام دي فيلفور تريد أن تتحدث إليك.

فأحنى ألبرت رأسه باحترام للبارونة. ثم تقدم نحو مدام دي فيلفور وبادرها قائلاً:

– أراهن على أنك ستسأليني عما إذا كان الكونت دي مونت كريستو قد جاء.

– آه.. نعم.. ولكني خبرني أولاً هل تلقيت نبأ عن صديقك فرانز ابناي؟

– نعم.. وهو يقول أنه سيسافر في الوقت الذي تصلني فيه هذه الرسالة.

وفي تلك اللحظة اقترب منهما شاب في مقتبل العمر، جميل الطلعة، براق العينين، أسود الشعر، كث الشارب. فأحنى رأسه لمدام دي فيلفور باحترام.

ولم يكد ألبرت يتبينه، حتى مد إليه يده. وقال يقدمه لصاحبته:

– سيدتي.. اسمحي لي أن أقدم لك مسيو مكسمليان موريل قائد حامية

(سافيس) وهو من أشجع ضباطنا الأبطال.

فقالت مدام دي فيلفور بهدوء: لقد سبق أن قدم إلي هذا السيد في منزل الكونت دي مونت كريستو في (اتويل).

وأشاحت بوجهها ببعض البرود. ثم انصرفت.

وكان لذلك الجواب غير المنتظر، واللهجة الغريبة التي نطق بها أثره في نفس مكسمليان المسكين الذي ارتجف من رأسه إلى أخمص قدميه.

فحول وجهه ليخفي شعوره، وعندئذ وقع بصره على فالنتين في ثيابها البيضاء الناصعة. وقد رفعت زهرة الكاميليا إلى شفتيها بلطف.وأخذ الشاب، ولكنه أسرع بإخراج منديله ورفعه إلى شفتيه في حنان رداً على تلك التحية الصامتة. وكادت عذوبة اللقاء تنسيهما حقيقة الموقف. لولا أن ظهر الكونت دي مونت كريستو في تلك اللحظة، فاجتلب أنظار واهتمام المدعوين جميعاً.

وتقدم الكونت نحو صاحبة الدعوة.. فأحنى لها قامته باحترام وسكون.. ثم تحول إلى ألبرت، وتحدث إليه قليلاً عن رحلته إلى الشواطئ مع والدته (مرسيدس)..

وشعر الكونت بيد تضغط على ذراعه في تلك اللحظة. فتلفت حوله.. ورأى دنجلار فصاح: آه!! البارون!!

فقال البارون: لماذا تدعوني (بارون)؟ أنك تعرف أني لا أعنى لقبي كثيراً.

فأجاب لكونت: هذا صحيح. فإن كلمة بارون مثل كلمة مليونير لا تدومان إلى الأبد.. فقد بلغني بالأمس أن المليونير فرانك والمليونير يولمان أشهر أصحاب المصارف في فرانكفورت قد أفلسا.

فصاح دنجلار: يا للنحس.. لقد سحبت علي اليوم كمبيالة عليها إمضاؤهما بمبلغ مائتي ألف فرنك..

فهتف الكونت في دهشة: مائتا ألف فرنك تذهب هباء !

– صه.. صه بالله عليك. ولا تذكر هذه الأخبار وبخاصة أمام كفالا كنتي الصغير.

قال ذلك وابتسم. وتحول إلى أندريا كفالا كنتي. فبقي مونت كريستو وحده.ولاحظت الكونتس مرسرف والجميع حول الموائد يتناولون المرطبات بين المرح والسرور أن الكونت لا يمد يده إلى شيء. فعجبت لذلك كل العجب وصارحت ابنها بتساؤلها ثم قالت: أبي أصر على أن يتناول شيئاً!

فحاول ألبرت أن يقنع الكونت بتناول شيء.. ولكن الأخير اعتذر في إصرار.. فعاد الشاب إلى أمه بفشله.. وحينئذ تقدمت من الكونت وقالت في صوت متهدج:

– هل يتكرم الكونت ويقدم ذراعه؟

واتكأت على ذراع الكونت.. وهبطت معه درجات سلم يحيط به الياسمين وزهر البنفسج والكاميليا.

ووصلا أخيراً إلى بقعة غرست فيها أشجار فاكهة قد آتت أكلها.. فتركت الكونتس ذراع الكونت وأخذت تجمع بعض العنب. وهي تقول:

– انظر يا كونت. أنا واثقة أن عنب ديارنا لا ينبت في مرسيليا أو قبرص. ولذلك أرجو أن يروقك مذاقه.

فأحنى الكونت رأسه. وتقهقر خطوة إلى الوراء. ثم أجاب:

– أرجو معذرتك يا سيدتي. فإني لا أستطيع أن أتبلغ بشيء منه لأني لا أميل إليه.

– إذن فإليك هذه الكمثرى.

فتراجع الكونت خطوة أخرى. وصاحت مرسيدس بصوت مؤلم يكاد يغص بالدموع:

– أترفض أيضاً ؟! إننا ننشد صداقتك. وهناك عادة شائعة بين الشرقيين، تعني

أن الذين يتناولون ملحاً وخبزاً تحت سقف واحد يصيرون أصدقاء إلى الأبد؟

– أعرف ذلك يا سيدتي. ولكننا في فرنسا حيث لا يوجد ما تسمينه صداقة أبدية.

فقالت الكونتس بنفس لاهث، وهي تحدق في وجه الكونت وتضغط بقوة على ذراعه:

– ولكننا أصدقاء.. أليس كذلك ؟!

– بغير شك. إننا أصدقاء. إذ لم لا نكون كذلك؟

فقالت مرسيدس بصوت يشبه التنهد: شكراً لك.

واستأنفا السير. وساد السكون بينهما ما يقرب من العشر دقائق. وفجأة، قالت مرسيدس: هل أنت متزوج؟

فانتفض الكونت. وهتف وهو مأخوذ: أنا ؟! متزوج! من قال ذلك؟

– لا أحد. ولكن الناس رأوك مراراً في الأوبرا مع غادة حسناء.

– إنها أمة، رق. اشتريتها في الاستانة وهي ابنة أمير الباني، فتبنيتها. وجعلتها مني في مركز الابنة. وليس لي سواها من أحب في هذا الوجود.

وفي تلك اللحظة جاء ألبرت مهرولاً نحوهما. ولما بات قريباً منها صاح: أماه. أماه.. لقد جاء مسيو دي فيلفور يبحث عن ابنته فالنتين لأن الماركيزة دي سان ميران وصلت باريس الساعة تحمل خبر وفاة الماركيز زوجها أثناء الطريق بين مرسيليا وباريس.. ورغم حيطة دي فيلفور في إلقاء الخبر على ابنته فالنتين. فإن الفتاة لم تستطع أن تتحمل وقع النبأ فجرت مغشياً عليها. فبدأ التأثر على وجه الكونتس.. وسأل مونت كريستو:

– وهل كان الماركيز دي سان ميران من أقرباء الآنسة فالنتين؟

– إنه جدها من ناحية الأم.. ولقد كان قادما إلى باريس للتعجيل بزواج حفيدته

من البارون فرانز دي ابناي.

وفجأة تقهقرت الكونتس خطوتين ثم عادت فارتدت وتناولت يد الكونت: ثم أمسكت بيد ابنها ألبرت، وضمت بينهما ثم هتفت:

– إننا أصدقاء يا كونت.. أليس كذلك.؟

فأجاب مونت كريستو: آه.. يا سيدتي.. إني على أي الحالات. وفي كل وقت خادمك المطيع.

الفصل الثامن عشر

كان المدعي العمومي منفرداً بنفسه في منزله لا ليعمل.. ولكن ليفكر في ذلك العدو المجهول الذي ظهر فجأة في أفق حياته ليسحقه ويقضي على مستقبله.. وفجأة.. وصل إلى سمعه وقع أقدام شخص طاعن في السن يصعد الدرج، ويصحب صوت أقدامه أنين وعويل. فنهض لفوره. وفتح الباب. فدخلت سيدة عجوز وهي تنتحب. كانت تلك السيدة هي الماركيزة دي سان ميران. فخف إليها دي فيلفور وصاح:

–ماذا حدث يا سيدتي؟ ماذا يزعجك؟

– لقد مات الماركيز يا سيدي..

فتراجع دي فيلفور إلى الوراء. في ذعر وأردفت الماركيزة بصوت تخنقه العبرات:

– لقد خطر للماركيز منذ أسبوع أن يرى فالنتين.. ولم يكن في أيامه الأخيرة في حالة تسمح له بالانتقال. بيد أن شوقه إلى فالنتين نفخ في روحه القوة والتجلد. وقد بدأنا الرحلة في إحدى المركبات.. ولم تكد المركبة تجتاز مرسيليا حتى غرق الماركيز في نوم عميق خيل إلي أنه غير طبيعي.. فقد لاحظت أن وجهه شديد الاحمرار. وإن الدم يتدفق في شرايينه بسرعة وقوة بخلاف العادة. ولما اشتد الظلام. لم أستطع أن أرى شيئاً. ولكني استيقظت بعد بضع ساعات على شهقة عنيفة.. فأوقفت المركبة وحاولت أن أيقظ المركيز.. فأدركت في الحال أنه قضى. ووصلت إلى مدينة (أكس) وبجواري جثة هامدة. ولما كان الماركيز دائماً يعرب له عن رغبته الشديدة في أن يدفن بعد موته بمقابر العائلة.. فقد وضعت جثمانه في كفن وسوف الحق به بعد بضعة أيام.

ثم أردفت في لهجة حزينة: ولكن أين فالنتين.. إنني جئت من أجلها. فأخبرها دي

فيلفور أنها وزوجته في حفلة آل مرسرف الراقصة. وأنه سينطلق لإحضارها في الحال.

* * *

ومضت نصف ساعة.. ووقفت مركبة بباب دي فيلفور.. ثم هبطت منها زوجة المدعي وفالنتين.. وكانت الأخيرة مصفرة الوجه بادية الجزع والحزن. وعندما التقت بجدتها ألفتها ممددة فوق الفراش.. فكان اللقاء بينهما محزناً أليماً.

وفي اليوم التالي لم تبرح الجدة الفراش.. وكانت الحمى قد تملكتها.. وأخذت عيناها تبرقان بوميض غريب. وأرسلت المركيزة في طلب مسيو دي فيلفور.. فلما أقبل قالت له: لقد كتبت إلي تقول أنك شارع في تزويج فالنتين من البارون فرانز دي ابناي، وإني أرى أن تسرع في إتمام هذا الزواج فلم يبق لي في العمر غير أيام أو ساعات محدودة.. نعم.. يجب أن تعجل بالزفاف.. لأبارك قرانها قبل أن أموت..

فقال دي فيلفور: سيكون لك ما تطلبين يا سيدتي..

واستطردت العجوز في صوت رهيب: أرجو ألا تمهل في تنفيذ إرادتي الأخيرة.. هل فهمت يا سيدي؟ فقال دي فيلفور: سيدتي.. يجب أن تدعي هذه الأفكار السوداء، يخيل إلي أن الأرق قد أثر على أعصابك؟ – أنك مخطئ يا سيدي.. فقد نمت الليلة نوماً عميقاً وكانت عيناي تغمضان رغم إرادتي، فكنت أحاول أن افتحهما بصعوبة ولقد رأيت شبحاً يتسلل من هذا الباب الذي يؤدي إلى غرفة ثياب مدام دي فيلفور.. ويقترب من فراشي في سكون..

وتوقفت الماركيزة. فصاحت فالنتين في ذعر.. ووجم المدعي العمومي.. واستطردت العجوز: واقترب ذلك الشبح من فراشي.. ثم ابتعد إلى المائدة التي عليها قدح الدواء الذي لا يزال هناك.. وحركه.. وإذ ذاك مددت يدي وقرعت الجرس.. وفي تلك اللحظة اختفى الشبح.. ودخلت إحدى الخادمات تحمل مصباحاً..

فقال دي فيلفور: لا شك أنك كنت حالمة يا سيدتي.

فأجابت: كلا.. أنني لم أكن حالمة فأرسلوا في طلب مسجل العقود كي اطمئن

إلى أن جميع ممتلكاتي وثروتي ستؤول بعد موتي إلى فالنتين.. كما أوصيت.

ثم تحولت إلى فالنتين وقالت: إني أشعر بالظمأ.. فاحملي إلي هذا القدح.

وأشارت إلى قدح به عصير برتقال فوق المائدة فجاءتها به.. وجرعته الجدة دفعة واحدة.. وانقلبت إلى وسادتها وهي تردد: مسجل العقود.! مسجل العقود!

وغادر دي فيلفور الغرفة.. وبقيت فالنتين إلى جانب جدتها..

ومرت ساعات قضتها الماركيزة وهي تهذي.. ثم جاء مسجل العقود.. ولم تكد العجوز تسمع اسمه حتى استوت جالسة في فراشها.. وأمرت فالنتين بمغادرة الغرفة.

* * *

وفي ردهة الدار تقابلت فالنتين مع الدكتور (افريني).. وهو من أصدقاء العائلة، وكان يحب فالنتين حباً عظيماً..واستقبلته الفتاة في حزن، وأبلغته نبأ وفاة جدها.. ومرض جدتها..

فسأل: وما هي الأعراض التي تلوح على جدتك؟

– تأثر عصبي غريب، وأرق مخيف تتخلله تصورات رائعة. وهي تتوهم أنها رأت شبحاً يدخل مخدعها.. وشعرت به وهو يعبث بالقدح الذي تشرب منه.

– هذا غريب بغير شك.. فإني أعرف الماركيزة منذ زمن بعيد،وهي قوية الأعصاب ولا تنتابها مثل هذه النوبات.. فلا بد أن أذهب لأراها..

وعندما خرج المسجل من غرفة الماركيزة، ذهب إليها الطبيب..

أما فالنتين فإنها هبطت درجا.. وسارت في ردهة مظلمة تنتهي إلى باب خلفي يؤدي إلى الحديقة.. وبينما كانت تقترب من البوابة سمعت صوت مكسمليان يناديها.. أسرعت إليه وهي تعجب مما دفعه إلى القدوم في ربعة النهار وعلى غير موعد.وقد استقبلها الشاب في لهفة وحزن.. وصارحها بما سمعه من مدام دي فيلفور في منزل آل مرسرف عن قرب عودة فرانز ابناي..

وقصت عليه الفتاة بدورها، نبأ قدوم جدتها، ورغبتها في تعجيل الزواج فسأل الشاب:

–فالنتين.. لقد حان الوقت الذي أسألك فيه أن تجيبيني عما تنوين عمله.

أطرقت فالنتين.. قهراً وحزناً.. وعجزاً.

لم يكن يخطر ببالها أن تقاوم إرادة والدها وجدتها.. فقالت:

– من المستحيل أن أقاوم إرادة أبي، لأني بذلك أدنس عواطف النبوة.. أو أحزن جدتي في لحظاتها الأخيرة.

فأجاب الفتى في هدوء: لقد صدقت.. الوداع إذن يا فالنتين.

ونطق مكسمليان بكلماته في هدوء غريب.. فحملقت الفتاة في وجهه بعينيها الواسعتين. وهي تحاول أن تخفي تلك الزوبعة التي تعصف برأسها.

هتفت بصوت تخنقه العبرات: ولكن ماذا تنوي أن تفعل؟ أجبني بربك. فهز الفتى رأسه بحزن وقال:

– أنا! سأنتظر حتى اللحظة الأخيرة.. ومتى أصبح شقائي في حكم الواقع.. وأملي في حكم الضائع.. وضعت حداً لحياتي التعسة.. وأقسم لك بوالدي.. والدي أشرف رجل عاش في كل فرنسا.. أنني لا أفعل غير ذلك. فخرت فالنتين راكعة.. وضمت يديها إلى صدرها الخافق.. وقالت:

– رباه.. رباه.. إني بذلت ما في مقدوري كي أظل ابنة بارة.. ولكني لا أقوى أن أدع وخز الضمير يقتلني.. وعلي أن أطيع.

وكان مكسمليان قد ابتعد عدة خطوات.. فارتد على عقبيه وهو لا يزال مصفر الوجه. سروراً لا حزناً. ومد إلى فالنتين يديه من خلال القضبان الحديدية وقال:

– إذن فأصغي إلي.. وسأعتمد على إخلاصك كل الاعتماد.. إنهم إن أغفلوا تضرعاتك وتوسلاتك. وأصر والدك والماركيزة على إمضاء العقد غداً.. فعليك أن

تلحقي بي.. ولكن صبراً، كيف يمكنني أولا أن أعرف شيئاً عن تحرير العقد وموعده؟

قالت الفتاة في هدوء:

– يمكنك أن تعرف ذلك من مسيو (ديشان) مسجل عقود العائلة. ثم أنني أيضاً قد أكتب إليك فاعتمد علي يا مكسمليان.

– شكراً لك يا عزيزتي.. فذلك يكفي.. ومتى عرفت الساعة التي يوقع فيها العقد.. فسأسرع إلى هنا بمركبة.. وتستطيعين أنت بمساعدتي أن تجتازي هذا السياج. ومن ثم نمضي بالمركبة إلى بيت شقيقتي وهناك نعيش كما يحلو لنا..

– الوداع إذن.. أو إلى اللقاء.

ثم افترق العاشقان على أثر قبلة حارة.

* * *

وقضى مكسمليان بقية النهار واليوم التالي وهو على أحر من الجمر وفي المساء وصلته الرسالة التالية مع خادم فالنتين:

(إن الدموع والتوسلات والابتهال لم تجدي شيئاً.. وقد تحدد لتوقيع عقد الزواج الساعة التاسعة من مساء اليوم.

لقد عاد فرانز من سفره من منذ ساعتين.. وهو يوافقهم على الإسراع.

إني لا أعد غير وعد واحد ولا أمتلك غير قلب واحد لأهبه ، فذلك الوعد كان لك.. وكذلك القلب.. فإلى اللقاء إذن هذا المساء عند السياج في الساعة التاسعة إلا ربعاً .. "صديقتك فالنتين"

* * *

لم يبق مجال للتردد.. فأسرع مكسمليان يعد كل شيء للفرار.. وكلما اقتربت الساعة المحددة كلما ازداد قلقه وانزعاجه..وأقبل الليل، فانطلق إلى الحديقة.. وتوارى خلف إحدى الأشجار.

ودقت الساعة الثامنة والنصف.. ومضت فترة طويلة.. ثم دقت التاسعة.. جن جنونه، ولكنه علل نفسه بالآمال الواهية..

ودقت الساعة العاشرة.. فهتف في يأس: إذن فقد فقدتها إلى الأبد.

وصعد إلى قمة السياج.. وقفز إلى الجهة الأخرى، فأصبح في حديقة دي فيلفور.. ثم سار بضع خطوات إلى جوار السياج.. ولكنه لم يلبث أن جمد في مكانه.. سمع صوتاً قريباً منه.. فتقهقر حتى عاد إلى الأشجار الملتفة واعتصم بها.. وبقي لا يبدي حراكاً..

وبرز القمر في تلك اللحظة من وراء السحب الحالكة.. فرأى مكسمليان على ضوئه مسيو دي فيلفور وهو يتقدم ناحيته يتبعه رجل طويل القامة يرتدي ثياباً سوداء. ووقف الرجلان على قيد خطوات من الشاب.. وسمع المدعي يقول لرفيقه:

– آه أيها الطبيب.. يخيل إلي أن السماء تحاربنا.. إنها ماتت.. ماتت.. ويا له من موت مخيف مروع..

فأجاب الدكتور افريني بلهجة تزايد معها رعب مكسمليان:

– إني ما جئت إلى هنا كيما أريد مخاوفك.. فإن الكارثة التي نزلت ببيتك اليوم سوف نجر وراءها ويلات ومصائب أهول منها..

– تكلم يا دكتور.. فإني مستعد لكل شيء !

قال الطبيب: هل رأيت أعراض المرض الذي ذهبت الماركيزة ضحيته؟

– نعم.. رأيت.. ولم أنتبه حتى رأيتها ترفع رأسها عن الوسادة وإذ ذاك شهدت عنقها ووجهها شديدي الاحمرار. فارتعدت وتطلعت إلى وجهك ورأيت فيه أن هناك ما ينتظر المسكينة أهول من احمرار الوجه والعنق. ثم أمسكت أنت يدها تستشعر نبضها.. فجاءتها النوبة الثانية قبل أن تدير وجهك نحوي.. وكانت النوبة في هذه المرة أهول من الأولى فانتفض جسم المسكينة في حركات عصبية تشنجية.. وتصاعد الزبد إلى شدقيها. وعند النوبة الثالثة قضت نحبها.

فقال الطبيب: هذا صحيح.. وهذه الأعراض جميعها تشير إلى أن الماركيزة ماتت مسمومة.

فسقط دي فيلفور فوق مقعد خلفه مصعوقاً.. وأخيراً أفاق من ذهوله وسأل بصوت متهدج:

– هل تكلمني بصفتي من رجال القانون. أم بصفتي صديقاً لك؟

– بل بصفتي صديقاً لك. وصديقاً لك في تلك اللحظة فقط. ولهذا الصديق أقول أن الماركيزة ماتت إما بسم البروسين أو سم الاستركنين.

ولهذا الصديق أقول أيضاً: راقب الخدم الذين في بيتك.. فربما يكون أحدهم قد أخطأ. وأعطى دواء مسيو نوارتييه الممزوج بجزء من هذا السم إلى الماركيزة فماتت قضاء وقدراً. أو ربما تكون الجناية قد حدثت عن طريق الحقد والكراهية.

وصمت الطبيب لحظة ثم عاد يقول بصوت رهيب: يا مسيو دي فيلفور إني طبيب أخدم الإنسانية.. وأنا أشير عليك أن تراقب جيداً لأني أخشى ألا يقف الشر عند هذا الحد، فإذا ما عرفت الجاني وأمسكت به، فأني أقول بصوت يسمعه الملأ: (يا رجل القانون.. إن الماركيزة دي سان ميران ماتت في بيتك مسمومة. وها هو الجاني فاقتص منه).

قال دي فيلفور: شكراً لك يا عزيزي.. ثق أنني سأعمل بمشورتك.

وكأنه خشي أن يعود الطبيب عن وعده بالكتمان، فنهض لفوره وقاده نحو المنزل.. وما اختفيا حتى برز مكسمليان من مخبأه مصفر الوجه زائغ العينين.

* * *

ورفع بصره إلى البيت فرأى باب شرفة يفتح في إحدى غرف الطابق الأول.. ثم برز شبح يجهش بالبكاء.. وخيل إليه أنها فالنتين وأنها تناديه باسمه.. أو أن فكره المشعث جعله يعتقد ذلك.

وتزايد الوهم وتأثيره في نفسه حتى استشعر كأنه الحقيقة بعينها.. وكانت فالنتين تناديه حقاً.. فقفز من مكانه بخفة النمر. وتعدى الحديقة ووصل إلى الدرج فارتقاه عدواً.. وهو يهتدي في طريقه بالشهقات التي كانت تصل إلى مسامعه ويسرع نحو مصدرها.

وجد بابا أمامه. فدفعه. ودخل.. فرأى نفسه في قاعة متسعة في أحد أركانها فراش قد تمددت فوقه جثة. كانت فالنتين راكعة على الأرض بالقرب من الجثة. ومسندة رأسها على أحد المقاعد. وهي تئن وتتأوه وتشهق بالبكاء. وتضم يديها بعنف مما يدل على فرط حزنها ويأسها.

تأوه الشاب.. ونطق باسمها. فارتفع الرأس الغارق في الدموع وتحولت قليلاً.. ووقع بصر فالنتين على مكسمليان. ولم يبد عليها أي مظهر من مظاهر الذهول أو الدهشة.وخيل كأنها تخشى أن تتكلم في تلك الغرفة المقدسة. وأخيراً غمغمت قائلة:

– يا صديقي.. كيف أتيت إلى هنا؟ كان أحب إلي أن أقول لك على الرحب والسعة.. لولا أن الموت هو الذي فتح لك باب هذا البيت على مصراعيه..

وقبل أن يجيب مكسمليان سمع الاثنان صوت باب يغلق، فذعر الشاب.. وقالت الفتاة: إنك الآن لا تستطيع الخروج من الباب العام فقد أغلقه أبي بعد رحيل الطبيب.

فنظر إليها مكسمليان في ذهول وحيرة.. واستطردت:

– ولم يبق أمامك غير طريق واحد. من خلال غرفة جدي مسيو نوارتييه.

– ماذا تعنين يا فالنتين؟

– لقد رغبت منذ عهد بعيد أن أدع جدي يراك.. إنه الصديق الوحيد الذي بقي لنا، وكلانا يحتاج إلى معونته.. فهلم بنا.

واجتازت الردهة.. وهبطت درجاً مظلماً يؤدي إلى غرفة وعندما بلغت الغرفة وجدت الخادم برواس بباب سيده فقالت له:

– برواس.. أوصد الباب خلفنا ولا تدع أحداً يدخل.

واجتازت الباب أولاً.. وهرعت نحو جدها وهي تقول: انظر إلى هذا السيد يا جدي.. إنه مكسمليان موريل ابن أحد تجار مرسيليا المعروفين.. ولعلك تذكر اسمه.

فأومأ المفلوج بعينيه بمعنى الإيجاب. فركعت فالنتين عند قدمي جدها. وقالت وهي تشير إلى مكسمليان:

– إني أحبه يا جدي. ولن أكون لأحد سواه. فإذا ما اضطروني إلى الاقتران بغيره فإني أقتل نفسي.

فتحركت عينا المفلوج. بما يدل على أن زوبعة تعصف بجمجمته.

قالت فالنتين: إننا ولداك يا جدي. فهل تحمينا من عسف وجور أبي؟

فنظر نوارتييه إلى مكسمليان وفي نظرته ما يعني: ربما؟!

ففهم مكسمليان إشارة المفلوج. وانثنى إلى فالنتين قائلاً:

– إن لديك واجبات عليك أداؤها في غرفة المتوفاة فهل لك أن تتركيني مع مسيو نوارتييه بضع دقائق؟

فنهضت فالنتين. ثم غادرت الغرفة.

وجلس مكسمليان إلى نوارتييه. وقص عليه كل شيء. حدثه بمولده ومركزه. وثروته. وآماله.. وكان يرى في نظرات المفلوج ما يعني التشجيع.. والاستمرار في حديثه.. وأخيراً قال مكسمليان: لقد حدثتك بالشيء الكثير عن حياتي. وحبي وآمالي. فبماذا تنصح لي؟

فلم يأت نوارتييه بحركة.. فقال الشاب:

– يخيل إلي أنك تريد مني أن انتظر؟

– نعم

– ولكن الموقف دقيق.. فهل تساعدنا؟

– نعم

– وهل تؤكد لي أن العقد لن يمضي؟

– نعم

– حسنا.. سأعتمد عليك يا سيدي. والآن هل تريد مني أن أنصرف؟

– نعم

فاقترب مكسمليان من العجوز. وطبع على جبهته قبلة إخلاص. ثم انطلق إلى الخارج.

* * *

وبعد ذلك بيومين ووريت جثة الماركيزة دي سان ميران التراب في احتفال مهيب.

* * *

وعاد مسيو دي فيلفور والبارون فرانز دي ابناي إلى منزل الأول مباشرة..

قال دي فيلفور: يا عزيزي فرانز.. اسمح لي أن أذكرك بآخر رغبة للماركيزة دي سان ميران وهي على فراش الموت.. إنها أرادت ألا تؤجل قران فالنتين. وأرى من الأصوات أن نرسل الآن في طلب مسجل العقود. وبعد بضعة أيام يتم الزفاف بلا احتفال كبير.

فأجاب فرانز: كما تشاء يا سيدي.

– إذن فتكرم بالانتظار نصف ساعة أخرى وستجيء فالنتين إلى قاعة الاستقبال وأرسل أنا إلى مسيو ديشان مسجل العقود.. ثم نقرأ ونوقع العقد قبل أن نفترق.

– أرجو إذن أن تسمح لي بالذهاب لإحضار صديقي دي مرسرف وراوول دي شاتو رينو ليكونا شاهدي..

وانطلق الشاب.. وأرسل دي فيلفور إلى فالنتين يطلب إليها أن تستعد وقد وقع الخبر عليها وقوع الصاعقة. فأجالت طرفها حولها في البحث عن مخرج. وخطر لها أن

تسارع إلى غرفة جدها. ولكن دي فيلفور صادفها في الطريق. فقادها إلى غرفة الاستقبال.

وبعد نصف ساعة كان كل شيء قد أعد لإتمام العقد.. وفجأة فتح باب الغرفة. وظهر برواس العجوز. وقال بلهجة غريبة:

– أيها السادة.. إن مسيو نوارتييه يرغب في الحال أن يحدث مسيو فرانز دي كويزنل بارون دي ابناي.

فذعرت مدام دي فيلفور. وقال المدعي: هذا مستحيل. فالبارون فرانز لا يستطيع أن يغادر قاعة الاستقبال الآن.

فقال فرانز: أرجو معذرتك يا مسيو دي فيلفور.. ولكن مادام مسيو نوارتييه أرسل في طلبي. فأنا على استعداد لإجابة رغبته. ولا أود أن أفقد هذه الفرصة التي استطيع فيها أن أفوز بعطفه..

وانطلق البارون في إثر برواس.. فاضطر الجميع إلى الذهاب في إثره كان نوارتييه على استعداد للقائهم. وكان يرتدي ثياباً سوداء أكسبته منظراً مهيباً..

ونظر العجوز إلى خادمه نظرة خاصة، فأسرع هذا إلى الباب وأغلقه.

قال دي فيلفور مخاطباً أباه: هو ذا البارون فرانز دي ابناي الذي رغبت في رؤيته.. وكنا جميعاً نتوقع هذا اللقاء؛ وأنا شديد الأمل في أن يكون لك من هذه المقابلة خير برهان على خطئك في المعارضة في أمر زواج فالنتين. فألقى نوارتييه على ابنه نظرة جعلت الدم يجمد في عروقه.. وحول الشيخ عينيه إلى خادمه برواس. ونظر إليه نظرة ذات مغزى.. فتقدم الخادم من دولاب صغير في الجدار وفتحه. ثم ضغط على زر خفي. فبرز على الأثر درج سري كانت به رزمة كبيرة قد حزمت بخيط أسود.. وسأل الخادم: هل أعطي هذه الأوراق لمسيو دي فيلفور؟

– كلا.

وحول العجوز عينيه إلى البارون فرانز.. فسأل الخادم:

– هل أعطيها للبارون؟

– نعم.

فتناول فرانز حزمة الأوراق من يد الخادم.. وألقى عليها نظرة سريعة. فرأى على غلافها هذه الكلمات: (تسلم هذه الحزمة بعد موتي إلى الجنرال دوران. ومنه إلى ابنه من بعده. على أن يبقيها في مكان أمين لأنها تتضمن مستندات هامة).

فقالت فالنتين تحدث جدها: هل تريده على أن يقرأها؟

– نعم..

فنشر فرانز الأوراق بين يديه وأخذ يقرأها في وسط ذلك السكون الرهيب.. وكانت هذه الأوراق عبارة عن صورة محضر لجلسة النادي البونابرتي التي عقدت في شارع سان جاك يوم ٥ فبراير سنة ١٨١٥، وهو اليوم الذي قتل فيه الجنرال كويزنل.

وكان المحضر يتضمن ما دار بين أعضاء الحزب وبين الجنرال كويزنل في ذلك اليوم. وكيف أن الجنرال احتد في الاجتماع. وأعلن أنه ملكي ولا يشايع نابليون.. فاضطر الأعضاء إلى التخلص منه، ولكن بطريقة شريفة.. إذ تحداه رئيس الحزب واتفق الاثنان على المبارزة، وكانت النتيجة قتل الجنرال.. وإلقاء جثته في السين.

وبعد أن قرأ فرانز ابن الجنرال ما جاء في المحضر. وبعد أن جففت فالنتين دمعة سالت على وجنتها. وبعد أن ألقى دي فيلفور بجسمه المرتجف على أحد المقاعد. حول الجميع أنظارهم إلى الرجل المفلوج.. وقال الأول: سيدي. ما دمت كنت على علم بهذه الحقائق جميعها. وتحت يديك مثل هذا المستند القوي الموقع عليه من ثلاثة من أشراف القوم فلماذا لم تخبرني منذ زمن باسم زعيم ذلك الحزب حتى استطيع أن أكون على بينة من الأمر. وعلى الأقل. أعرف من هو قاتل أبي.

فتقهقر دي فيلفور لساعته حتى التصق بالباب. وتراجعت فالنتين خطوتين، وكانت أول من توقع جواب مسيو نوارتييه.

وألقى المفلوج ببصره نحو القاموس، فتناوله فرائز وأعصابه ترتجف. وما كاد ينطق ببضع كلمات تبدأ بحرف الألف والنون ويصل إلى كلمة (أنا) حتى أغمض المفلوج عينيه. وصاح فرائز كمن به مس من الجنون وقد وقف شعر رأسه:

– أنت؟ أنت يا مسيو نوارتييه؟ أنت الذي قتلت أبي؟

فأغمض الرجل عينيه بفخر وعظمة. وكأنه يقول: نعم أنا.

فتهالك فرانز فوق أحد المقاعد وهو خائر القوى. وفتح دي فيلفور باب الغرفة وفر هارباً إذ خيل إليه أنه يكاد أن ينقض على عنق أبيه ويزهق روحه.

الفصل التاسع عشر

رحل الماجور كفالا كنتي الأكبر إلى مدينة (لوكا). وبقي ابنه أندريا في باريس ينعم بالمركز المحترم الذي ألفى نفسه يشغله في المجتمعات الباريسية الارستقراطية. وحدث أن ذهب مونت كريستو إلى قصر البارونة دنجلار ذات مساء. ولم يكن البارون في الدار. فطلب إليه الخادم أن يتكرم بمقابلة البارونة.

وقد وجد مونت كريستو البارونة في مخدعها، وبرفقتها ابنتها يوجيني وأندريا كفالا كنتي وكان لظهور الكونت أثره المعتاد فتلقته البارونة بابتسامة ولكنها مغتصبة. وانتهزت ابنتها يوجيني أول فرصة وفرت إلى غرفتها الخاصة.

وبعد بضع دقائق أقبل البارون دنجلار.. وكان أول شيء فعله أن حدق في وجه الكونت قليلاً. ثم في وجه أندريا وقال:

– ألم تدعك السيدات إلى غرفة البيانو يا سمو الأمير؟

فأجاب أندريا متنهداً: وا أسفاه يا سيدي.. أنهن لم يفعلن.

فتقدم دنجلار لفوره من غرفة يوجيني. وفتحها.. ثم دخل يتبعه أندريا.. وكانت يوجيني تعزف على البيانو وبرفقتها صديقتها الحميمة لويزا أرمللي كبيرة مغنيات باريس في عصرها..

وانتهزت البارونة الفرص. وقال لمونت كريستو:

– هل تعلم ما أصاب آل دي فيلفور؟ لقد كانت ابنته على وشك الاقتران..

– الاقتران بالبارون فرانز.. فماذا حدث؟

– يظهر أن البارون عدل عن ذلك الزواج صباح أمس.

– هذا غريب! وماذا فعل دي فيلفور؟

– كما يفعل الفلاسفة.. ويبدو أنه آثر الاعتكاف في هذين اليومين.

وعاد دنجلار في تلك اللحظة.. فقال له الكونت:

– الواقع أنك أغرب رجل رأيته في حياتي.. إذ ماذا يحدث لو جاء ألبرت دي مرسرف الآن ورأى أندريا برفقة يوجيني؟

– لا شيء يا كونت. فإن ألبرت لا يشرفنا بالظهور في مظهر الغيرة. ولا يحب يوجيني. وفي تلك اللحظة أعلن الخادم قدوم الفيكونت ألبرت دي مرسرف. فهبت البارونة واقفة بسرعة وتقدمت من غرفة يوجيني إلا أن البارون استوقفها.. ودخل ألبرت في ثياب جميلة أنيقة وهيئة نبيلة.. فأحنى رأسه للبارونة باحترام وللبارون بفتور ولمونت كريستو بعطف وحب..

ولما سأل البارونة عن ابنتها. قالت في صوت خافت مضطرب:

– إنها تعزف على البيانو في الغرفة الأخرى برفقة أندريا كفالا كنتي.

فاحتفظ ألبرت بهدوئه وسكونه.. كما لو كان الأمر لا يعنيه..

وانتهز البارون إحدى الفرص، وهمس في أذن الكونت:

– أصغ إلي يا سيدي.. أرجو أن تتكرم بمقابلة الكونت دي مرسرف وتخبره بأني متذمر من سكوتهم. فإما أن يتقدموا إلينا بصراحة ويحددوا موعد الزفاف وشروطه. أو نتراجع عند مفترق الطرق.

وأقبل الخادم في تلك اللحظة. وهمس في أذن البارون بضع كلمات. فتحول دنجلار إلى الكونت. وقال: سأعود على عجل.

وانتهزت البارونة الفرصة وفتحت باب غرفة ابنتها، ونادتها. فأقبلت برفقة أندريا وصديقتها لويزا.

حيى ألبرت خطيبته ورفيقيها بغير اكتراث.. ومن ثم دعي الجميع إلى قاعة

الاستقبال الكبيرة لتناول الشاي.. وأقبل البارون في تلك اللحظة وعلى وجهه دلائل الانزعاج. فنظر مونت كريستو إليه نظرة متسائلة أجابه عليها دنجلار بقوله: إني أشكرك يا كونت على النصيحة القيمة التي أسديتها إلي. فقد وصلتني الآن رسالة من اليونان.

– وكيف ذلك؟

– إن هناك تاريخاً برمته يحوم حول اسم (فرناندو) في مدينة يانينا، وسأحدثك بكل شيء.. فقط خذ هذا الشاب إلى منزله، فإني لم أعد أطيق رؤيته.

فأشار الكونت إلى ألبرت.. وأنحنى الاثنان باحترام. ثم انصرفا.

وبقي أندريا كفالا كنتي يجول ويصول في الميدان.

* * *

وانطق الكونت بألبرت إلى منزله في الشانزلزيه. ولم يكن يبدو على الشاب ما يشير إلى امتعاضه من رؤية يوجيني في رفقة أندريا كفالا كنتي بل لعله قد سر، لتحول البارون دنجلار عنه إلى هذا المجهول الثري.

وفيما كان الكونت وضيفة يتناولا الشاي. إذ وصلت إلى مسامعهما أصوات موسيقية متساوقة جذابة. فقال الكونت:

– يالله يا عزيزي الفيكونت.. أرى أنه قدر عليك أن تسمع موسيقى في هذا المساء. فإنك لم تهرب من بيانو الآنسة يوجيني إلا لتقع تحت تأثير الجوزلا التي تعزف عليها هايدي.

– هايدي.؟ يا له من اسم جميل.

– صه.. وإلا سمعتك صاحبته.. فتغضب.

فقال ألبرت: ألا تقدمني إليها يا سيدي الكونت. بودي لو تفعل ذلك.

– بكل سرور. ولكن على شرطين.

– إنني راض بهما مقدماً.

فقال الكونت: أولهما ألا تقول لأحد أنني قبلت أن أقدمك لها. وثانيهما ألا تقول لها أن أباك كان في خدمة علي باشا والي يانينا لأنه أبوها ويؤلمها أن تسمع ما يذكرها بأبيها الذي قتل غيلة.

فقال ألبرت بسلامة نية: أعدك ذلك.

* * *

وقد لقيت هايدي ضيفيها في أول غرفة في الجناح الخاص بها..وكانت الدهشة والذهول مرتسمين في عينيها الواسعتين الساحرتين. لأن هذه كانت أول مرة وجدت نفسها فيها بحضرة رجل غير الكونت دي مونت كريستو.

قالت هايدي تحدث الكونت باللغة اليونانية:

– بمن جئت معك؟

فأجاب الكونت بنفس اللغة: صديق.

– وما اسمه؟

– الفيكونت ألبرت. وهو عينه الذي أنقذته من أيدي لصوص إيطاليا في روما.

قالت هايدي: إذن فلي أن أتكلم بالفرنسية.

– كلا.. بل تكلمي بالإيطالية.

ثم التفت الكونت إلى ألبرت.. وقال: مما يدعو إلى الأسف أنك لا تعرف اليونانية القديمة ولذلك فستتحدث إليك هايدي بالإيطالية.

وتنحى عن الطريق.. وهو يرمق هايدي بنظرة أدركت معناها في الحال.. فقالت لألبرت: مرحباً بصديق مولاي.

وجلس الجميع أمام مائدة عليها بعض الآلات الموسيقية.. وأقبل (علي) في تلك اللحظة وهو يحمل القهوة.وتحول ألبرت إلى الكونت وسأله في صوت خافت:

– عن أي موضوع ترى أن أحدثها. هل أحدثها عن الشرق؟

– نعم. لأن ذلك خير ما تستطيع أن تتحدث به أمامها. وخير ما تطيب له نفسها. فالتفت ألبرت إلى هايدي وقال: كم كان عمرك حينما غادرت بلاد اليونان يا سنيوريتا؟

– إني غادرتها وأنا في الخامسة من عمري.

– وإلى أي عهد تصل ذكرياتك عن الماضي.؟

– آه. إلى ذلك العهد الذي رأيتني أسير فيه إلى جانب والدتي واسمها (فاسيليكي) محجبتين، ولا أدري كم كانت سني وقتئذ على وجه الدقة، وكل ما أذكره أننا كنا نجمع الإحسان للمسجونين. ومتى امتلأت جيوبنا عدنا، فوزعنا ما بها عليهم.

فانثنى ألبرت إلى الكونت. وقال:

– هل تسمح للسنيوريتا أن تقص علي طرفا من تاريخ حياتها؟

فالتفت الكونت نحو هايدي. وقال لها باليونانية:

– حدثينا عن مصرع والدك، ولكن حذار أن تذكري اسم من عذر به. فتأوهت هايدي. ثم قالت:

– وأذكر أيضاً أن والدي كان جالساً في ظل شجرة عتيقة قريبة من شاطئ بحيرة. وكنت جاثية عند قدميه، وأنا أعبث بلحيته البيضاء الطويلة وقد استرعى انتباهي مجيء واحد الألبانيين إليه بين كل حين وآخر، فيلقي عليه بضع كلمات مبهمة، يجيبه عليها والدي بلهجة غضب: اقتل أو أعف.

وصمتت هايدي لحظة. ثم أردفت وهي تنظر إلى الفضاء وكأنها تتأمل شيئاً مضى وانتقل إلى عالم الذكرى:

– آه. ليس أكثر التصاقاً في ذاكرة الإنسان من آلامه. وإن طفولتي وشبابي كانا غاصين بكل أنواع العذاب والشقاء والآلام، ولذا فأنا لا أنساها.. ففي إحدى

الليالي، وكنت في الرابعة من عمري، أيقظتني أمي بعنف وكنا نقيم وقتئذ في مدينة (يانينا) المحبوبة.

نظرت إلى وجهها في فزع. فألفيته مبللاً بالدموع. واحتملتني، وأسرعت بي. ثم اجتازت درجاً كبيراً يحيط بها جميع الخادمات وهن يحملن بين أيديهن الحقائب والمجوهرات وأكياس الذهب. إلى غير ذلك. وكانوا يسرعون في شكل مضطرب يدعو إلى الانزعاج.. حتى وصلنا إلى شاطئ بحيرة وهناك سمعت أبي يقول: أسرعوا..

وأمسكت هايدي لحظة.. ثم رفعت رأسها بكبرياء وشمم وأردفت:

– وأبي هو ذلك الرجل العظيم الذي كان يعرفه الأوربيون باسم (علي تبلان) والي مدينة يانينا. والذي كان الأتراك يرتجفون لمجرد ذكر اسمه.

وصمتت مرة أخرى.. ولم يدر ألبرت علة القشعريرة التي سرت إلى بدنه عندما سمع كلمات الغادة الأخيرة..

واستطردت هايدي: وهبطنا إلى قارب كان يقف بشاطئ البحيرة.. وبه خلاف المجذفين بضع نساء من وصيفات أمي. ومعهن والدتي. ووالدي وأنا وخادم يخلص لأبي الإخلاص كله ويدعى (سليم). وانطلق بنا القارب يشق طريقه في البحيرة الكبيرة بسرعة رائعة. فلم أتمالك أن سألت والدتي: لماذا يسير القارب بهذه السرعة يا أماه؟

فأجابت لفورها وبصوت يغص بالدموع: صه يا ابنتي.. أننا نفر..

وقد علمت فيما بعد أن حامية حصن (يانينا) ملت طول البقاء في الخدمة العسكرية فتواطأت مع قائد شركسي يدعى خورشيد كان سلطان تركيا قد أرسله ليشعل نار الفتنة في مدينة يانينا ويلقي القبض على أبي.. ومن أجل ذلك فقط فر والدي. ولجأ إلى مكان حصنه وأعده خصيصاً لمثل هذه الطوارئ بعد أن أرسل إلى سلطان تركيا ضابطا فرنسيا كان يثق به، بعث به إلى السلطان كيما يبرم معه اتفاقاً أو ينال عفوه عن الوالي وعائلته..

فسأل ألبرت: ألا تعرفين اسم هذا الضابط الفرنسي يا سنيوريتا؟

فصمتت هايدي. ولم يلحظ ألبرت أن الكونت تبادل معها نظرة سريعة جعلتها تقول على الفور: كلا.. لا أتذكر اسمه في هذه اللحظة.

وانطلق القارب إلى جزيرة كبيرة في وسط البحيرة. رأينا بشاطئها كهفاً.. وإلى داخل ذلك الكهف العظيم اقتيدت والدتي وواصيفاها.. ووضع به ٦٠ ألف حقيبة صغيرة فيها نحو ٢٥ مليون قطعة ذهبية ومائة برميل تزن ٣٠ ألف رطلاً من البارود.

ووقف سليم الخادم المخلص بالقرب من البراميل. وكان واجبه أن يظل يراقب ليل نهار. حتى إذا أصدر والدي إليه أول إشارة أشعل البارود فانفجر وهدم الكهف.. وقتل الرجال والنساء جميعاً.. وبينهم علي تبلان باشا نفسه.

* * *

وفي صباح أحد الأيام أرسل إلينا الباشا.. وكانت والدتي قد قضت المساء في بكاء وعويل. وفي حالة تدعو إلى الرثاء.وكان الباشا هادئاً رابط الجأش. إلا أن وجهه كان ممتقعا.

قال لأمي: تشجعي يا فاسيليكي فاليوم موعد عودة الرسول الذي بعثت به إلى السلطان.. وما قدر لي معلق بهذه العودة.. فإذا جاءنا العفو الشامل عدنا إلى يانينا فائزين.. وإذا لم يكن حاولنا للفرار، وإذا تعذر الفرار اشعل سليم البارود فاندك الكهف على من فيه.

قال ذلك وحول وجهه شطر البحيرة، ولم يلبث وجهه أن اشتد اصفراره، وبدا عليه الاهتمام. ورفع منظاره المكبر إلى عينيه.. ثم همس قائلاً:

– قارب.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة قوارب.

ونهض لفوره. وحشى غدارتيه. ثم انثنى إلى أمي قائلاً:

– لقد حانت الساعة التي تقرر مصيرنا يا فاسيليكي.. فادخلي إلى الكهف وابتهلي إلى الله. وقبلني أبي آخر قبلة.

وأوغلنا داخل الكهف ونحن نرى بوضوح القوارب الأربعة وهي تقترب. وفجأة..

سمعنا صيحات عاليات.. فأصخنا السمع..

كانت صيحات فرح وسرور وبشر، مصحوبة باسم ذلك الضابط الذي أوفده أبي إلى السلطان.. فأيقنا أنه جاءنا بالعفو والحرية.وتزايدت الضوضاء والأصوات.. وسمعنا وقع خطوات تقترب منا ثم ظهر أمامنا شبح رجل كان يهتف: ليحيا السلطان.. لقد منح الباشا عفواً شاملاً، ولم يهبه الحياة فقط، بل أنه رد إليه أيضاً ثروته ومركزه.

فأفلتت من بين شفتي أمي صيحة فرح. ثم اندفعت تحاول الخروج من الكهف فاستوقفها سليم قائلاً: قفي! إن الباشا لم يرسل الخاتم بعد.

كان الخاتم هو العلامة المتفق عليها بين الباشا وخادمه في حالة عفو السلطان.

فقال الضابط القادم: ولكن هاك خاتم الباشا..

وفجأة صاح الضابط الذي كان الظن أنه صديق لنا، صيحة سرور وصفق بكفيه عدة مرات.. وعلى إثر هذه الإشارة خرج فجأة من أحد الأركان أربعة جنود يرتدون ثياب أنصار القائد خورشيد وأنقضوا على سليم، ولم يلبث المسكين حتى سقط وقد اخترقت الرماح صدره وعنقه. فأسرعت والدتي وحملتني بين يديها، ثم انطلقت بي إلى جوف الكهف المظلم. حتى وصلت إلى باب همت بفتحه لولا أنها سمعت صوت أبي وهو يقول مهدداً:

– ماذا تريدون؟

فقال صوت آخر: ماذا نريد؟ نريد رأسك!

فضحك والدي ضحكة داوية رهيبة أشد هو لا من أي تهديد.. وقبل أن يكف عن الضحك دوي طلقا غدارتين.. كان هو الذي أطلق غدارتيه على أعدائه فقتل منهما رجلين.

وعلى إثر ذلك وثب إليه جميع رجاله المخلصين وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم. ومن ثم بدأت معركة هائلة بين والدي وأعدائه.. وامتدت أكثر من عشرين

حربة. وعشرين سيفاً. وصوب أكثر من عشرين طلقا ناريا نحو رجل واحد.. وفي الحال تمزق جسم أبي أرباً.. وضاعت صيحاته بين زئير الخونة وصيحاتهم. وشعرت بقواي تخور في تلك اللحظة.. ثم رأيت والدتي يغمى عليها.

وهنا تنهدت هايدي من قلب متفطر، فنظر إليها الكونت بعطف وقال:

– هدئي من روعك أيتها الابنة العزيزة.. وكوني على يقين من أن الله لا يدع الخونة بغير قصاص.

أما ألبرت فقد راعه اصفرار وجه هايدي.. فقال بصوت متهدج:

– إني آسف على أن نبشت الماضي.. وأثرت ذكرياتك الأليمة من مكامنها. ومضت هايدي تقول: ولما عادت أمي إلى رشدها، كنا في حضرة القائد (خورشيد) الشركسي فقالت له: اقتلني، ولكن ابق على عرض أرملة (علي).

فأجاب خورشيد: جدير بك ألا تطلبي إلي ذلك. وإنما أطلبيه من مولاك الجديد. وأشار إلى الضابط الفرنسي الخائن الذي كانت له اليد الطولى في فاجعتنا وكارثة أبي وهلاكه.

بيد أن ذلك الخائن لم يجسر على الوقوف أمامنا. فباعنا للنخاسين في أسواق الاستانة، فاجتازوا بنا بلاد اليونان. واقتربوا ثانية من باب مدينة يانينا.. ورأت أمي أن من برفقتها يرسلون بأبصارهم إلى شيء معين على البوابة.. فتتبعت أنظارهم.. ولم تلبث أن صاحت صيحة مخيفة، وسقطت على الأرض وهي تشير إلى الرأس المعلقة. وكان مكتوباً تحتها: (رأس علي تبلان باشا والي يانينا).

بكيت بحرقة. وركعت إلى جانب أمي أحاول إنهاضها. ولكنها كانت جثة بلا روح.

واستمر تجار الرقيق في سيرهم بي حتى اشتراني تاجر من أغنياء أرمينا في الاستانة، فعلمني وهذبني وأحسن تربيتي.. ولما بلغت الثالثة عشرة من عمري باعني للسلطان محمود.

وسكتت هايدي فقال مونت كريستو: ومن السلطات محمود اشتريتها أنا. هلم يا ألبرت. اشرب قهوتك.. فقد انتهت القصة.

* * *

خف مونت كريستو في اليوم التالي إلى بيت دي مرسرف وفاء بوعده لدنجلار.. وأبلغه أن البارون يريد أن يصل إلى نتيجة نهائية بشأن زواج يوجيني بالفيكونت ألبرت.

وما بلغ دي مرسرف ذلك حتى نهض للفور. وارتدى ثيابه الرسمية وانطلق إلى منزل دنجلار.. الذي استقبله بفتور.وبدأ الكونت دي مرسرف الحديث بطلب يد الآنسة يوجيني لابنه.

ومن عجب حقاً أن البارون قابل الطلب بالامتعاض وهتف:

– لقد حدثت أمور غير منتظرة في الأسبوعين الماضيين مما يجعل اتفاقنا هذا متعذراً، ومن الأوفق اعتباره كأنه لم يكن.

فبهت الكونت وهتف:

– عجباً لك يا عزيزي دنجلار.. أتغير رأيك بمثل هذه السرعة؟

– كل ما استطيع قوله يا سيدي هو أن العلة ليست في أني لا أحسن الظن بالفيكونت ألبرت.. ومع ذلك فإني أقرر أن الأوفق ألا نبحث عن العلل والأسباب.

فانتقض دي مرسرف غضبا.. ونهض واقفاً ثم تهيأ للانصراف وهو يقول: كفى.. كفى يا سيدي.. إننا لن نتكلم في هذا الشأن بعد الآن.

وغادر المكان ساخطاً.

* * *

وفي صباح اليوم التالي. طلب البارون نسخة من جريدة (الامبرسيال) التي كان يديرها بيكامب.وراح يقلب صفحاتها في قلق.. ولم يلبث أن ابتسم بخبث عندما وقع

بصره على مقال بعنوان (يانينا) وغمغم قائلاً بعد أن قرأ المقال:

– ها هو مقال صغير عن الكولونيل فرناندو منديجو، وهو يكفي.

* * *

وفي نفس هذه اللحظة كان ألبرت دي مرسرف يسير صوب بيت مونت كريستو بالقرب من الشانزليزيه. وكان الشاب مصفر الوجه، بادي الاضطراب. بادر الكونت قائلاً: أني سأبارز اليوم خصماً وقد جئتك لأرجوك أن تكون أحد شاهدي.

فرفع الكونت حاجبيه دهشة وسأل: ومع من تريد المبارزة؟

– مع بيكامب.

وماذا صدر منه؟

– ظهرت جريدته مساء أمس وفيها هذا المقال.

وقدم إلى الكونت نسخة من جريدة (الامبرسيال) وأشار فيها إلى مقال قصير فقرأه مونت كريستو وكان هذا ما جاء به:– (كتب إلينا مراسلنا في يانينا عن حقيقة هامة كنا نجهلها حتى الساعة.. وهي أن القلعة التي هي في طليعة حصون المدينة سلمت إلى الأتراك بدون قتال. والذي سلمها هو ضابط فرنسي يدعى فرناندو كان علي باشاتبلان والي يانينا قد اختصه بثقته وعطفه..).

فتحول الكونت إلى ألبرت وسأله:

–وماذا يزعجك في هذه الكلمات؟

– إنها تتهم أبي الكونت دي مرسرف لأن اسمه الحقيقي هو فرناندو وقد يعمل في خدمة علي باشا تبلان.

فصمت الكونت لحظة. ثم قال: ومن ذا الذي يعرف أن فرناندو هذا والكونت دي مرسرف هما شخص واحد.؟ ومن ذا الذي يهتم لإخبار (يانينا) التي سقطت منذ سنة ١٨٢٢؟ أصغ إلي يا صديقي.. إنك تتسرع في مبارزة بيكامب، بينما العقل

يقضي عليك بالذهاب إليه لتتباحث معه أولا. فإذا قبل سحب المقال أو تكذيبه كان بها.. وإلا كنت في حل من مبارزته.

فقال ألبرت: حسناً.. سأذهب إليه الآن.

وتناول الشاب قبعته وغادر الغرفة وقصد من فوره إلى بيت بيكامب. واستقبل الصحافي صديقه ألبرت بسرور وترحيب. ولكنه أخذ حينما رأى اصفرار وجهه واضطرابه.

وبادر الفيكونت صديقه قائلاً: بيكامب.. لقد نشرت صحيفتك مقالا ينال من سمعة وشرف أعضاء عائلتي ، فأنا أرغب إليك في سحبه، أو تكذيبه.

فذهل بيكامب وسأل: أي مقال؟ أنك ولا ريب مخطئ.

– إنه المقال الذي كتب تحت عنوان (يانينا).

فتناول بيكامب بسرعة نسخة من جريدته. وقرأ ذلك المقال بصوت خافت، ولما جاء على نهايته قال ألبرت: ها أنت ترى أن المقال لا يتضمن غير فرية صريحة فيها كل الإهانة لأحد أفراد عائلتي وأنا أصر على طلب تكذيبه.

– تصر؟! عجباً لك يا صديقي.. إنني لا أستطيع أن أفهم ما هي العلاقة التي تربطك بفرناندو هذا.

فقال ألبرت: أنه أبي.. أبي فرناندو مونديجو كونت دي مرسرف الذي يريد المفترون أن يتحول كل ثلمة في جسمه، وكل جرح أصابه في حومة الوغى إلى دليل وبرهان على الفضيحة والعار.

فقال بيكامب في دهشة:والدك؟ آه. هذا شأن آخر. إني أعدك بتكذيب المقال متى تحققت من كذبه.. على أني أقسم لك بشرفي أنني لم أكتب هذا المقال، بل ولم أطلع عليه قبل أن ينشر. ولست أرى خيراً من ترك المقال بدون تعليق ريثما يصير تكذيبه أو التدليل على صدقه ممن له الحق في ذلك.

فقال ألبرت وهو يمس قبعته: سيدي. إني سأتشرف بأن أرسل إليك شاهدي فتكرم وحدد معهما مكان المقابلة ونوع الأسلحة.. فهل فهمت؟

فقال بيكامب: إنني على استعداد لأن أقابلك أينما تشاء.. ولكنني أرجو أن تؤجل المبارزة لمدة ثلاثة أسابيع.. وفي النهاية إما أن أقول لك أن المقال ليس إلا فرية وسأكذبه في جريدتي.. أو أقول.. إن المقال صحيح ولا ريب فيما جاء به، ثم استل حسامي من غمده أو أشهر غدارتي..

– حسناً.. ليكن لك ما تريد..

وانطلق ألبرت من منزل بيكامب دون أن يحييه.

الفصل العشرون

أرسل مسيو نوارتييه في استدعاء مكسمليان موريل.. فخف الشاب لمقابلته ولسانه يلهج بالشكر والدعاء لذلك الرجل الذي قرر له سعادته وأمله.وقد ألقى مكسمليان على الشيخ المفلوج نظرة تنم عن الشكر..

وبادرته فالنتين بقولها: لقد عزم جدي على مغادرة هذا المنزل. ولذا عهد إلى بروس بالبحث عن مسكن جديد.. وسأرافقه بالطبع. أما إذا رفض أبي خروجي فسأضطر للبقاء هنا عشرة شهور أخرى ريثما أبلغ سن الرشد ويكون لي ملء الحرية فأتصرف في ثروتي كيف أشاء.

ومتى انتقلت أنا وجدي إلى بيت جديد. فإنه يكون لنا كل الشرف في أن نستقبلك هناك يا مسيو موريل.. ثم يتم زفافنا تحت سمع جدي وبصره. وتهلل وجه الشاب سروراً. ونظر إلى الرجل نظرة تفيض بالامتنان. وكان نوارتييه يراقب العاشقين وعيناه تعبران عن رضاه حنانه أصدق تعبير.. بينما كان الخادم برواس يصغى بانتباه لكل ما يقال وعلى شفتيه ابتسامة سرور وغبطة. وكان بين كل حين وآخر يجفف بعض قطرات العرق عن رأسه الصلعاء.

وقد رأته فالنتين وهو يفعل ذلك. فابتسمت وقالت: إن حرارة الجو تؤثر عليك يا (برواس) وأرى أنك في حاجة إلى كأس من شراب الليمون.

وتقدمت من مائدة صغيرة. وملأت له قدحاً من الليمون. وقدمته إليه. فتقبله الخادم شاكراً.. وابتعد قليلاً ثم أفرغ محتوياته في جوفه.

ودق جرس الباب الخارجي في تلك اللحظة. فهتفت فالنتين:

– لابد أن القادم هو الدكتور أفريني فهو يأتي لزيارتنا يوم السبت من كل أسبوع.

وانطلق برواس إلى الخارج ليفتح للقادم.. ثم عاد.. فتحولت إليه فالنتين لتطلب إليه أن يرافق مكسمليان إلى الخارج عن طريق سلم الخدم.. وكان الخادم يترنح. وأخذ جسمه يرتجف ارتجافاً ظاهراً.. وتقلص وجهه وباتت كل حركاته تنبئ بتشنج عصبي قريب.

وقد ذعر مكسمليان وحاول الدنو من الخادم فصاح هذا بصوت مرتجف: آه يا سيدي.. ماذا انتابني.؟ إني أتألم! أني لا أكاد أرى شيئاً أمامي.. بربك لا تمسني.. بربك..

واندفع خطوتين أو ثلاثاً إلى الأمام ثم سقط عند قدمي نوارتييه ودفن رأسه بين ركبتيه وهو يصيح: آه يا سيدي العزيز.. انقذني يا سيدي.

فصرخت فالنتين صرخة رعب وهول، جاء دي فيلفور على أثرها منزعجاً.. فأسرع مكسمليان واختفى وراء إحدى الستائر.

وعقدت الدهشة لسان دي فيلفور. فراح يقلب البصر أمامه وهو لا يقوى على النطق بكلمة واحدة. أما نوارتييه فقد نال منه القلق والرعب والألم.. وهو يرى نفسه عاجزاً عن مساعدة خادمه العجوز بل صديقه الحميم.. وبعد لحظة صمت قفز دي فيلفور إلى الخارج وهو يصيح: تعال يا دكتور.. بربك أسرع.

فهرع الخدم إلى الغرفة. ثم جاءت مدام دي فيلفور وقد تلاعبت على شفتيها ابتسامة ماكرة.

واستبطأ دي فيلفور الطبيب فأمر الخدم بالانصراف. وانطلق يبحث عن الدكتور افريني بعد أن انبأته زوجته أنه مع الغلام إدوارد. وانتهز مكسمليان هذه الفرصة وأسرع بمغادرة المنزل.

وعندما جاء الطبيب بدأ برواس يفيق قليلاً من إغمائه، وخيل إليه كأن الأزمة قد انتهت بسلام.

وقدم الطبيب للمريض ماء ممتزجاً بالأثير. فتناول برواس الكأس وتجرع نصف

محتوياتها. وعلى أثر ذلك سأل الطبيب:– أين تشعر بالألم؟

– في كل مكان.. ويخيل إلي أن كل عظامي تتهشم.

– ماذا تناولت اليوم من الطعام؟

– لا شيء البتة. فقط شربت قدحاً من الليمون الذي يتناوله سيدي نوارتييه.

– وأين شراب الليمون هذا؟

فأجاب الخادم بعد أن ألقى ببصره إلى المائدة التي عليها الإناء.. ووجد هذا الأخير فارغاً: إن الوعاء الكبير الذي نأخذ منه الليمون في المطبخ.. فوثب الطبيب إلى الخارج. وهبط الدرج مسرعاً.. وكاد في أثناء سيره أن يصطدم بمدام دي فيلفور التي كانت أيضاً ذاهبة إلى المطبخ.. وكان خاطر واحد يتردد في فكر الطبيب. فلم يعر السيدة التفاتا. وهناك في المطبخ وجد وعاء كبيراً من الزجاج. قد امتلأ اكثر من نصفه بشراب الليمون. فاحتمله.. وعاد إلى غرفة المصاب وهو يلهث.. وفي أثناء عودته التقى ثانية بمدام دي فيلفور. وكانت تصعد في بطء وسكون وتتجه إلى مخدعها..

عرض الطبيب الوعاء على الخادم.. وقال له: هل هذا هو الإناء الذي تشير إليه؟

– نعم يا سيدي.

فسكب الطبيب بعضاً من الشراب في راحته.. ومسه بشفتيه.. ولم يلبث أن اقترب من الموقد وبصق السائل من فمه.. ثم قال:

– هل تناولت من هذا السائل يا مسيو نوارتييه؟

– نعم

– وهل لاحظت ما به من مرارة؟

– نعم

– وهل حالتك طيبة؟

– نعم

– هل تشعر كأن ثقلاً قد جثم فوق صدرك؟

– نعم

– هل هو برواس الذي يحضر لك شراب الليمون.؟

– نعم

– إذن فلابد أنها حفيدتك فالنتين.

– نعم

فتحول الطبيب إلى برواس وسأله: برواس.. هل أنت الذي أعددت الليمون؟

– نعم يا سيدي..

– ومن الذي جاء به إلى الغرفة؟

– الآنسة فالنتين.

فبقي افريني يحملق في وجه المريض لحظة من الزمن.. وقد خيل كأنه يفكر في لغز عميق.. ثم لم يلبث أن لطم جبهته بكفه. وقال وهو يغمض عينيه بألم: يا إله السموات.

وفي تلك اللحظة. صرخ الخادم صرخة مخيفة.. وسقط على الأرض بغير حراك. فوضع أفريني يده على قلب الرجل. ثم تحول إلى مسيو نوارتييه.. وقال: لا تنزعج يا مسيو نوارتييه.. إنني سأنقل المريض إلى الغرفة الأخرى. لأن مناظر هذه النوبات الفجائية مما يخيف ويرغب. قال ذلك. وحمل المريض من كتفيه.. حتى إذا دخل الغرفة الأخرى وأغلق الباب تحول إلى مسيو دي فيلفور.. وقال:

– لقد مات برواس.

فتراجع دي فيلفور عدة خطوات.. وضم يديه إلى صدره وقال بلهجة تنم عن الدهشة.. والألم: مات ! وبهذه السرعة!

– نعم.. أنه مات سريعاً كما مات الماركيز والماركيزة دي سان ميران إن الناس يموتون بسرعة في منزلك يا مسيو دي فيلفور!

– ماذا؟ ألا زلت تستمسك بهذا الخاطر المخيف؟

أجاب أفريني: نعم.. وسأستمسك به دائماً.. فأصغ جيداً لما سأقوله لك يا مسيو دي فيلفور.

فارتجف المدعي العمومي. وطفر العرق فوق جبهته واستطرد الطبيب:

– يوجد سم يفتك بالإنسان ولا يترك وراءه أثراً ما. ولقد استشعرت وجود هذا السم في حادثتي برواس والماركيز دي سان ميران. إني واثق مما أقول يا سيدي. وأشهد الله على أن برواس مات مسموماً.

ففتح دي فيلفور عينيه بدهشة مقرونة بالرعب. ثم غاص في مقعده.ومرت عدة دقائق ودي فيلفور جامد في مكانه لا يقوى على الحركة. أو النطق. وأخيراً هتف: آه. أن الموت في منزلي.

– بل قل إن الجريمة في منزلك.

فقال المدعي في يأس:

– يا مسيو افريني. إني لا أستطيع التعبير لك عما أشعر به الآن من حزن ورعب وجنون. فقال الطبيب بلهجة هادئة:

–نعم. ولكني أرى أن ساعة العمل قد حانت. أني لا أستطيع أن احتفظ بما في صدري من أسرار أكثر مما احتفظت إذا لم يوجد من يقتص من المجرمين.. إني لا أتهم أحداً. ولكني أرى الموت يقرع بابك. ويسير في بيتك غير معصوب العينين متنقلاً من غرفة لأخرى..ولقد تبعته في سيره. وتأثرته في انتقاله. ولكن صداقتي لعائلتكم

واحترامي لها لا يمكنهما أن يقفا حائلاً بين عيني والحقيقة. وبوسعي أن أقرر لك أن شراب الليمون كان معداً لنوارتييه وأن المجرم سممه لهذا الغرض. ورغم أن برواس كان الضحية فأني أعتقد أن نوارتييه هو الذي كان مقصوداً.

– ولماذا لم يمت أبي إذن؟

– لأنه اعتاد منذ عهد على تعاطي هذا النوع من السم بمقدار. فلم يؤثر عليه شراب الليمون المسموم. على حين كانت الجرعة الواحدة منه كافية لأن تقتل أقوى إنسان آخر. والآن لنتتبع سوياً خطوات المجرم.. إنه قتل الماركيز والماركيزة دي سان ميران في أول الأمر فورث ثروتين.

فجفف دي فيلفور العرق الذي تصبب على جبينه ونظر إلى الطبيب في ذعر. واستطرد هذا: ونوارتييه كان قد كتب وصيته وحرمك من كل سنتيم واحد من ثروته. ثم عاد فمزق الوصية الأولى وكتب سواها ومن أجل ذلك أراد المجرم الفتك به حتى لا يغير رأيه في آخر لحظة وينسخ الوصية الثانية.

فهتف المدعي في يأس: يا إلهي. أنت إذن تتهم فالنتين. ولكن أصغ إلي. إنني أكاد أصدق أني أقوى على اتهام نفسي. ولكن فالنتين.. آه. إن لها قلباً أنقى من الماسة وأصقل من البللور.

– وأنا ماذا بوسعي أن أفعل والجريمة ظاهرة جلية والأدلة متوفرة؟ فالآنسة فالنتين هي التي حزمت بيديها جميع الأدوية والعقاقير التي أرسلناها للماركيز دي سان ميران حينما كان لا يزال في مرسيليا. وقد مات الماركيز.والآنسة دي فيلفور أيضاً كانت تعد جميع المرطبات وعلى الأخص شراب البرتقال الذي كانت الماركيزة دي سان ميران تتناوله. ولقد ماتت الماركيزة. والآنسة دي فيلفور هي أيضاً التي تناولت هذا الصباح الإناء الذي يحوي شراب الليمون من يد برواس وأرسلت هذا الأخير خارج البيت. ولكن نوارتييه نجا لحسن حظه بما يشبه الأعجوبة. لأنه لو كان تجرع الليمون المسموم مرات متتالية لنال السم من جسمه. فالآنسة دي فيلفور هي المجرمة. هي القاتلة هي

صانعة السموم التي اتهمها. فقم بواجبك أيها المدعي العمومي.

وهنا تهالك دي فيلفور في مقعده. وصاح:

– أيها الطبيب.. إني لا أستطيع المقاومة.. ولا أقوى على الدفاع.. إني واثق بكل ما قلت وما تقول.. ولكني أسألك بل أتوسل إليك أن تبقي على حياتي وشرفي.

– يا مسيو دي فيلفور.. أن ابنتك مجرمة.. قاتلة.. فلا بد أن تنال القصاص على ما اقترفته. وأنت تتكلم عن الشرف. وما أشير عليك به هو الشرف بعينه.

فسقط دي فيلفور على ركبتيه. وقال بلهجة تدعو إلى الإشفاق:

– أصغ إلي. ليست لي قوة نفسيتك التي تظهر الآن في كل أقوالك والتي ولا ريب لا يمكن أن يكون لها أثر على شخصك لو أن المتهمة بدلاً من أن تكون ابنتي فالنتين كانت ابنتك.

فاصفر وجه الطبيب وقال: إذن كن على حذر. فالموت قد يجيئك حثيثاً.. وسوف تراه يقترب منك بعد أن يصيب والدك. وزوجتك. وربما ولدك أيضاً.

فشعر دي فيلفور كأنه يختنق. فتعلق بذراع الطبيب وصاح به:

– رحماك يا سيدي.. أن ابنتي ليست مجرمة.. وليست قاتلة. ولا أقوى على إلقائها بين أيدي القضاة.. إن مجرد التفكير في ذلك يقتلني. فابق علي أيها الطبيب وإلا قتلت نفسي.

فصمت الطبيب لحظة ثم قال: حسناً. إني سأنتظر.. ولكن إذا وقع أحد أهل البيت مريضاً. أو أحسست أنت بالسم يسري في عروقك. فلا ترسل في طلبي لأني لن ألبي نداءك. الوداع يا سيدي.

وانطلق الطبيب من الدار لا يلوي على شيء.

الفصل الحادي والعشرون

في مساء اليوم الذي وقع فيه الخلاف بين البارون دنجلار والكونت دي مرسرف. وخرج على إثره هذا الأخير وهو يتميز غيظاً وحنقاً. أقبل أندريا كفالاكنتي إلى بيت البارون في شارع (شوسيه دانتيني).

وأقام أندريا في غرفة الاستقبال بضع دقائق.. ثم أقبل البارون ودار بين الاثنين حديث قصير. انطلق أندريا في أثنائه يشكر للبارون حسن حفاوته به وإكرام عائلته له ولطف الآنسة يوجيني معه. ثم أعرب عن رغبته في طلب يد الآنسة لتكون له زوجة.

وأظهر دنجلار في أول الأمر بعض التمنع. ثم لم يسعه أخيراً إلا أن يوافق وينزل على رغبة الشاب.

* * *

وعندما عاد أندريا إلى فندقه. وجد الرسالة التالية من كادروس في انتظاره:

(أنك تعرف أين أقيم فسأنتظرك غدا في الساعة التاسعة صباحاً).

* * *

وفي صباح اليوم التالي انطلق أندريا متنكراً في ثياب خادمه إلى منزل كادروس.. واستقبل كادروس (أندريا) باسما. وقال:

– حقاً إنك كثير الدقة في المواعيد.

– لعنة الله عليك وعلى مواعيدك.

– آه تعال يا فتى ولا تغضب.. ولكن دعني أهنئك أولاً على نجاحك الباهر. فأنا أعرف أنك ستقترن بابنة دنجلار.

– ماذا؟ دنجلار؟!

– نعم.. أم ترى من اللازم أن أقول البارون دنجلار ؟ إني تناولت الطعام أكثر من مرة معه ومع الكونت دي مرسرف. ومن ذلك ترى أن لي بعض الأصدقاء من تلك الطبقة التي أصبحت تنتمي إليها.

فقال أندريا وهو يغالب غيظه: ماذا تريد مني؟

– أصغ إلي.. لقد خطرت لي فكرة.. إني أرى أنه من العسير الشاق أن ينتظر الإنسان حتى نهاية كل شهر من أجل مائتي فرنك.. فهل تستطيع أن تضعني في طريق ثلاثة آلاف فرنك دون أن تنفق سنتيما واحداً.. كي أرحل.. وأبتاع مزرعة وأعيش شريفاً ؟!

– كلا.. لا أستطيع ذلك.. فهل ترمي بقولك هذا أن أمهد لك ارتكاب إحدى السرقات حتى إذا افتضح أمري وفقدت مستقبلي.. وعدنا معاً إلى هناك مرة أخرى؟

– إن العودة إلى الليمان لا تهمني يا عزيزي بنديتو مادمت أجد نفسي معدماً وحيداً في الحياة.. بل إن نفسي تتوق لرؤية بعض الأصدقاء القدماء المخلصين.

فاصفر وجه أندريا وقال:

– لا تكن أحمقا يا كادروس.. إنني لا أرجو إلا أن أراك سعيداً ولذلك فسأرفع مرتبك إلى خمسمائة فرنك شهرياً.. إلى أن تحين وفاة الكونت دي مونت كريستو فأرث ثروة تقدر بخمسمائة ألف جنيه.

– أحقاً تقول؟

– نعم لقد رأيت الوصية رأى العين.

فتظاهر كادروس بالدهشة الشديدة.. ثم قال: أهو غني إلى هذا الحد؟

– غني؟ إنه غني جداً.. بل أنا واثق أنه لا يعرف حدود ثروته العريضة.. وقد جاءه منذ يومين فقط مبلغ مائة وخمسين ألف فرنك من عميله.

فبدأ التفكير على وجه كادروس. وقال: حقاً.. إذن لابد أن أزروه في يوم من الأيام.. فهل ستأخذني إلى داره أيها الولد العاق ؟

– بكل تأكيد.. ولماذا لا تذهب الليلة وتتفقد الدار.. فإن الكونت سيرحل إلى منزله في أتويل هذا المساء ليقضي يومين هناك.وليس هذا كل شيء.. فالكونت يخفي مبلغ المائة وخمسين ألف فرنك في دولاب صغير في الطابق الأول.

فتلاعبت على شفتي كادروس ابتسامة خفيفة وقال:

– هل لك أن تصف لي منزل الكونت؟

فطفق أندريا يصف لصديقه منزل مونت كريستو في الشانزلزيه.

وأخيراً سأل كادروس: شكراً لك يا بنديتو.. والآن هل لك أن تعطيني بعض المال فقد نفد ما معي؟

فأخرج أندريا من جيبه خمساً وعشرين قطعة ذهبية دفعها إلى كادروس.. ثم نهض واستأذن في الانصراف.

* * *

وفي اليوم التالي رحل الكونت دي مونت كريستو إلى منزله في أتويل.

وبرفقته خادمه النوبي (علي) وبعض الخدم الآخرين.

ولم يكد يستقر به المقام في الدار، حتى قدم له خادمه بابتست رسالة مغلقة وهو يقول: إنها هامة وعاجلة.

ففض الكونت دي مونت كريستو الغلاف.. وقرأ بالرسالة ما يلي:

(ليعلم الكونت دي مونت كريستو أن أحد الناس سيسطو على داره في الشانزلزيه ليسرق مالاً وأوراقاً خاصة من دولاب صغير في غرفة الثياب).

قرأ الكونت الرسالة بإمعان.. ثم تلاعبت على شفتيه ابتسامة خفيفة.

ونادى خادمه بابتست وأمره بالإسراع إلى باريس واستدعاء جميع الخدم عدا

البواب.

* * *

وعندما بدأ النهار يجر ذيوله إلى المغرب.. غادر الكونت منزله في أتويل وبرفقته خادمه علي.. ثم انطلق إلى باريس عن طريق غاب بولونيا. وعندما وصل إلى غرفة نومه في الشانزلزيه. أجال عينيه حوله بسرعة. ولما استوثق أن ليس في الطريق من رقيب.. دخل إلى غرفة نومه دون أن يفطن إليه البواب.

وكانت الساعة إذ ذاك التاسعة والنصف.. فكمن الكونت في غرفة النوم. ورفع عن الجدار تلك الصورة التي تخفي وراءها الثغرة التي يراقب منها الكونت كل ما يحدث في القاعة المجاورة.

وعندما دقت الساعة نصفاً بعد منتصف الليل خيل للكونت أنه يسمع صوتاً خفيفاً. أدرك أن هناك يداً ماهرة تقطع زجاج إحدى النوافذ بقطعة من ماس.. فأشار إلى (علي) أن يصمت.. ثم رفع غدارته على استعداد.

وتاق الكونت إلى معرفة عدد عدوه، واتفق إن كانت النافذة التي كان اللصوص يقطعون زجاجها في مواجهة الثغرة التي يراقب منها الكونت ما يحدث.. فأرسل بصره القوي. واستطاع أن يتبين شبحاً يمد يده في الظلام، ويفتح النافذة من الداخل.وقفز اللص إلى الداخل. وكان بمفرده. فغمغم الكونت: ما أجرأه!

وفي تلك اللحظة لمس (علي) ذراع الكونت. فالتفت هذا، ورأى الخادم يشير من خلال النافذة إلى شخص آخر يتحرك في الشارع، فهمس الكونت: هذا حسن. إنهما لصان إذن. أحدهما يعمل. والآخر يراقب. وكان اللص قد دخل، وفحص محتويات الغرفة. ووجد بابين أحدهما موصد من الخارج والآخر مفتوح فأوصده.

وأخرج اللص شيئاً من جيبه لم يستطع الكونت أن يتبينه. ثم سار نحو الدولاب. وبعد لحظة سمع الكونت صوت ارتطام عدة مفاتيح. ولكن اللص عاد فوضعها في جيبه ثم ضغط على شيء في يده. فأرسل نورا مصفراً قوياً سقط على وجهه ويديه.

فقال الكونت بدهشة: يالله! أنه...

وبتر جملته ثم تحول إلى علي. وأصدر إليه أمراً. خرج الخادم على إثره في سكون. ثم عاد بعد لحظة أخرى وهو يحمل ثوباً أسود وقبعة مثلثة. فخلع الكونت ثيابه بسرعة. وكان الذي يدقق النظر إليه بعد أن خلع ثيابه. يرى حول صدره درعاً من الفولاذ.

وارتدى الكونت ذلك الثوب الأسود.. ووضع على رأسه شعراً طويلاً تنكرياً. ولبس القبعة.. وفي لحظة أصبح مونت كريستو في شكل وهيئة الرهبان.. واقترب الكونت من النافذة.. وأطل منها إلى الطريق.. فرأى الرجل الآخر يروح ويجيء بقلق.. وعيناه لا تتحولان عن نافذة قاعة الثياب.. ضرب الكونت جبهته بكفه على حين فجأة.. ومرت ابتسامة خفيفة على شفتيه.. ثم نادى (علي) وهمس في أذنه قائلاً: ابق هنا.. ولا تأت بحركة رغم ما قد تسمع.. أو ترى. وفقط ادخل سريعاً حالما أطلب إليك ذلك..

فأحنى النوبي رأسه.. وتناول مونت كريستو مصباحاً كهربائياً.. وبينما كان اللص منهمكاً في عمله. فتح الكونت باب غرفة الثياب.. وسلط ضوء المصباح تواً إلى وجه اللص.. وقال في صوت هادئ ولكنه ساخر:

– طاب مساؤك يا عزيزي كادروس.. ما الذي تفعله هنا في هذه الساعة المتأخرة؟

فصاح كادروس بذهول: الراهب بيزوني؟!

فوقف الكونت بين كادروس والنافذة.. وبذلك قطع عليه طريق الهرب الوحيد.. وقال الراهب المزيف:

– إذن فأنت تريد سرقة الكونت دي مونت كريستو.. فشعر كادروس كأنه يختنق.. وأجال طرفه حوله باحثاً عن مخبأ أو مهرب.

وأردف الكونت: نعم.. نعم.. إني لازلت أجدك كما كنت.. لصاً قاتلاً..

– يا سيدي الراهب.. إني مضطر..

– كل مجرم يقول ذلك.

– إن الفاقة..

– آه.. عندما جاءك (جونس) تاجر المجوهرات يحمل إليك ٤٥ ألف فرنك ثمن الماسة التي وهبتك إياها.. قتلته كي تحصل على المبلغ والماسة معاً.. هل كانت الفاقة هي إذ ذاك سبب الجريمة؟ والآن أصغ إلي.. إني سأشفق عليك هذه المرة أيضاً.. إذا أجبتني عما سألقيه عليك من أسئلة..أعرف أنك كنت في الليمان. فهل هربت منه؟

– نعم يا سيدي.

– ومن الذي أنقذك؟

– اللورد ويلمور.

– هل كان ذلك الانكليزي يعمل على حمايتك؟

– كلا.. بل كان يحمي شابا كورسيكيا اسمه بنديتو كان رفيقي في السجن.

– وهل هرب معك ذلك الشاب؟

– نعم.. ففي الساعة المعتادة التي يستريح فيها المسجونون بين الظهيرة والساعة الواحدة.. قطعنا السلاسل بمبرد أعطاه لنا اللورد الانجليزي. ثم ألقينا بأنفسنا في الماء وسبحنا.

– وماذا حصل لبنديتو؟

– لا أعرف.

– بل كان يجب أن تعرف.. والآن أخبرني كيف كنت تعيش منذ هربت من ليمان طولون؟

– كنت أعيش مستعيناً بكل ما أجده.

– أنك تكذب في جميع إجاباتك.

فذعر كادروس وبقي يحملق في وجه الراهب.. فقال هذا بلهجة اليقين:

– إنك كنت تستعين بما يعطيك إياه رفيقك الذي فر معك..

– هذا صحيح، لأن بنديتو أصبح ابن رجل عظيم يدعى الكونت دي مونت كريستو صاحب هذا المنزل.

فقال الكونت وقد دهش بدوره: بنديتو ابن الكونت؟ وأي اسم يتخذه إذن خريج الليمان هذا؟

– أندريا كفالا كنتي.

– أهو عين الشاب الذي رحب به صديقي الكونت دي مونت كريستو والذي سيقترن بابنة البارون دنجلار؟

– نعم..

– وتسكت على ذلك أيها التعس.. وأنت تعرف ماضيه وجرائمه؟

– ولماذا أقف في طريق أحد رفقائي؟

– إني سأبوح بكل شيء.

– لمن؟

– للبارون دنجلار.

فصاح كادروس وهو يستل خنجره. ويثب به إلى صدر الكونت:

– سوف لا تبوح بشيء أيها الراهب..

ودفن الخنجر في صدر الراهب.. ولشد ما كانت دهشته. عندما ألفى الخنجر يتحطم على صدر القس فارتد مذعوراً مصفر الوجه.. غير أن الكونت قبض على رسغه بيد من حديد.. وضغط عليه بشدة. فركع القاتل.. وقال الكونت: هل تعلم

الآن ألا شيء يمنعني من أن أحطم جمجمتك أيها التعس؟

– عفوك يا سيدي..

– انهض أيها المجرم !

فنهض كادروس.. وراح يعالج ذارعه.. واستطرد الراهب:

– والآن.. تناول هذا القلم.. واكتب ما أمليه عليك.

فأطاع كادروس وهو يرتجف. وأملى عليه الكونت ما يأتي:

(سيدي.. إن الشاب الذي تلقاه في بيتك بالترحاب، وتنوي أن تزوجه بابنتك ليس إلا لصاً شقياً هرب معي من ليمان طولون، وكان معروفاً باسم نمرة ٢٩ وكنت أنا رقم ٢٨ واسمه بنديتو. ولكنه يجهل مولده وحقيقة والديه).

قال الكونت: والآن وقع هذه الرسالة.. واكتب العنوان.. البارون دنجلار شارع (لاشوسيه دانيتي).

فأطاع كادروس.. ثم سأل: ماذا تنوي أن تفعل بي الآن؟

– سأعفو عنك لآخر مرة. فأغرب عن وجهي. وأخرج من حيث جئت قال الكونت ذلك. وأشار نحو النافذة.

ثم عاد الكونت إلى المخدع. وأطل بسرعة من النافذة إلى الطريق. فوجد أن الرجل الذي وقف يراقب قد قفز من الطريق إلى الحديقة. وهو لا يحول وجهه عن نوافذ غرفة الثياب.

ورآه الكونت يقترب من السلم وهو يسترق الخطى. ثم اختفى وراء شجرة قريبة.. وما كاد كادروس يصل إلى نهاية الدرج حتى وثب إليه الرجل. وأصابه بين كتفيه بطعنة نجلاء جعلته يترنح ويصيح مستنجداً. فطعنه الرجل مرة أخرى وسقط كادروس مجندلا.

ولم يتركه غريمه حتى طعنه للمرة الثالثة في صدره وظن أن ضحيته قد أسلم الروح.

فارتد على عقبيه وولى الأدبار.

وفي تلك اللحظة فتح الباب الخلفي.. ووثب منه (علي) وسيده وفي أيديهما المصابيح. ثم خفا إلى كادروس وحملاه إلى الداخل، وخلعا عنه ملابسه.. وبدأ الكونت يفحص الجراح الثلاثة.

وأخيراً نظر الكونت إلى خادمه وقال له: اذهب إلى منزل المدعي العمومي مسيو دي فيلفور واطلب إليه الحضور.

* * *

وعندما أفاق كادروس.. قال في صوت ضعيف:

– إني أريد أن أؤدي شهادة.

– ضد من؟

– ضد قاتل بنديتو..

– الشاب الكورسيكي؟

– نعم.. فهو الذي رسم الخطة. وصور لي مداخل البيت ومخارجه وكان غرضه من ذلك أن أسطو على البيت فاقتل الكونت مونت كريستو ليصبح هو وارثه. أو أن يقتلني الكونت فلا أعود أضايقه وأهدده بإذاعة أسراره.. فلما لم يتحقق رجاؤه في أحدهما اغتالني كما رأيت. والآن أريد أن أكتب اعترافي. لأني أشعر بأن ساعتي قد دنت..

فأجابه الكونت إلى رغبته وتناول قلما وورقة وكتب:

(إني أموت ضحية الكورسيكي بنديتو الذي كان رفيقي في ليمان طولون تحت رقم ٢٩).

ثم دفع بالاعتراف إلى كادروس. فوقع عليه بإمضائه.

وخلع الكونت ملابس الرهبنة. فتزايد جمال وجهه الممتقع. .أما كادروس.. فقال

وكأنما رأى شبح ميت ينتصب أمامه فجأة:

– يا لله.. إنك اللورد ويلمور.

فقال مونت كريستو: فكر جيدا. ألا تتذكرني.

فرفع المحتضر رأسه قليلاً وظل لحظة يحملق في وجه الكونت ثم قال:

– نعم. يخيل إلي أنني رأيتك وعرفتك قبل هذا العهد.

– نعم يا كادروس. إنك رأيتني. وكنت تعرفني فيما مضى.

– إذن فمن تكون.؟

فاقترب منه الكونت. وانحنى فوقه. ثم همس قائلاً: أنا.. أنا..

وانطلق من بين شفتيه المقفلتين اسم في صوت أقرب إلى الهمس حتى خيل إليه نفسه أنه يخاف أن يسمعه.

أما كادروس فإنه ضم يديه بيأس ورفعهما بجهد عظيم وصاح:

– آه. يا إلهي.. أعف عني لأني أنكرتك.

واختلج جسمه اختلاجة عنيفة؛ ثم أسلم الروح. فنهض الكونت وحدق بالجثة قليلاً. ثم قال بصوت غامض: واحد.

الفصل الثاني والعشرون

ظل حادث الاعتداء الجريء على بيت الكونت حديث أهل باريس طيلة الأسبوعين التاليين. وكان الكونت يجيب كل من سأله بأن ذلك الاعتداء وقع خلال غيبته في أتويل، وأن ما يعرفه عنه هو كل ما قصه عليه الأب بيزوني فحسب. وكان وجه برتسيو يمتقع. ويقشعر بدنه كلما سمع اسم بنديتو مقترنا بمصرع اللص الذي اعتدى على الكونت.

وقد تولى دي فيلفور تحقيق الحادث. وانصرمت الثلاثة أسابيع الأولى. وتناسى القوم خبر السرقة وبدأوا يتحدثون عن قرب موعد قران ابنة البارون دنجلار بالكونت أندريا كفالا كنتي. وتبودلت الرسائل بين أندريا ووالده بشأن ذلك القران، فرضي به كل الرضى. ووعد بهدية يقدمها يوم العرس تقدر بمائة وخمسين ألف جنيه. وتم الاتفاق بين أندريا والبارون أن يبقي الأول في حوزة الأخير مبلغ الثلاثة ملايين من الجنيهات التي سيتركها الماركيز كفالا كنتي لابنه لتكون أساساً لثروته. وكذلك كانت المهلة التي ضربها ألبرت للصحافي بيكامب قد انقضت ففي صباح أحد الأيام أعلن وصيف ألبرت قدوم بيكامب. فخف إليه الفيكونت، ووجده يروح ويجيء في قاعة التدخين.

ولما أقبل ألبرت وقف بيكامب وقال بلهجة حزينة: ألبرت، لقد سافرت إلى يانينا، ويؤسفني أن أخبرك أنني تأكدت من صحة الأخبار التي كتبت في المقال.

فأخذ ألبرت وصاح: أنت ذهبت إلى يانينا. وتأكدت أن ذلك الضابط الفرنسي الخائن الذي سلم حصن الرجل الذي أحاطه بفضله وأسبغ عليه نعمته كان..

– عفواً يا صديقي. إن ذلك الرجل كان أباك بعينه.

فتقدم ألبرت من بيكامب وشرر الغضب يتطاير من عينيه. إلا أن هذا أوقفه بنظرة هادئة. ومد إليه يده وهو يقول: وإليك البرهان يا ألبرت.

فتناول ألبرت من يد بيكامب ورقة. ونشرها بين أصابعه ووجد عليها أربعة إمضاءات لأربعة رجال من حاشية علي باشا تبلان، وفيها يقررون بأن الضابط الفرنسي فرناندو مونديجو سلم حصن مولاه (علي باشا) في مقابل مليونين من الليرات التركية.

قرأ ألبرت ذلك.. وارتجفت الورقة بين أصابعه.. ثم ترنح وسقط في مقعده متهالكا.. وكان بيكامب يرمقه بعين ملؤها الإشفاق والعطف. فاقترب منه.. وقال: والآن يا ألبرت، أقسم لك على ألا يتعدى هذا السر شفتي. فألقى ألبرت بذراعيه حول عنق بيكامب وصاح: آه.. أيها الصديق النبيل. فقال بيكامب وهو يقدم إليه ذلك المستند الفاضح: إليك هذه الورقة.

فتناولها ألبرت وألقاها في الموقد وظل ينظر إليها حتى احترقت.

ولاحظ بيكامب حزن ألبرت، ورأى أن يسري عنه.. فقال:

- هلم بنا إلى مونت كريستو فهو الذي يقوى على إدخال السرور إلى نفسك.

* * *

وقد رحب بهما الكونت دي مونت كريستو أيما ترحيب وقال:

- آمل أن يكون كل شيء قد انتهى.

فقال بيكامب:

- نعم.. فدع بربك هذا الحديث ولا تطرقه.

قال الكونت: لطالما قلت ذلك لألبرت.. ولكن بالله.. يخيل إلي أنك مريض يا صديقي فإن وجهك شديد الاصفرار.

- إني مصاب بصداع قوي.

- الواقع يا عزيزي ألبرت أنني أشعر بمثل صداعك؛ وبكثير من الانزعاج بسبب حادث السطو على منزلي، فهلم بنا إلى ضيعتي في نورماندیا في رحلة قصيرة عسى أن

يكون في هذه الرحلة ما يخفف بعض ما ألم بنا. فوافق الشاب على الأثر.

* * *

وقد بدأ الرجلان رحلتهما في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي.وعند منتصف الليل وصلت المركبة إلى نورمانديا.. واقتيد ألبرت إلى الحمام.. ثم تناول طعام العشاء مع مضيفه وآوى بعد ذلك إلى مخدعه.

ومضى الكونت والفيكونت يومين في التمتع بمحاسن الطبيعة.. وصيد الطيور. وحدث أن كان ألبرت ممدداً فوق مقعد وثير في غرفته في اليوم الثالث. عندما سمع وقع حوافر جواد يركض بأقصى سرعته.. فوثب إلى النافذة وأطل منها وكم كانت دهشته حينما شاهد وصيفه الخاص فلورنتين. بهت. وذهبت به الظنون كل مذهب.

وقد رآه الكونت وهو يقترب من وصيفه وعلى وجهه علامات القلق أما فلورنتين فإنه تناول من جيب ردائه نسخة من إحدى الصحف ورسالة قدمها لسيده.

فقال ألبرت بحدة: ممن هذه الرسالة؟

– من مسيو بيكامب.

ففض ألبرت الرسالة بخوف. وما إن قرأ السطر الأول منها حتى تأوه وأمسك بالجريدة... فغمغم الكونت في صوت خافت: مسكين أنت أيها الشاب.. إن جرائم الآباء دائماً تسقط على رؤوس الأبناء والأحفاد.

وقرأ ألبرت بسرعة عدة أسطر من الجريدة. ولم يلبث أن دلف إلى غرفة الكونت.. وهو مصفر الوجه ممتقع السحنة.. وقال له:

– سيدي الكونت. إني شاكر لك حسن ضيافتك. وكنت أتمنى أن تطول إقامتي هنا، ولكن مضطر إلى العودة إلى باريس على الفور.

فقال الكونت: أن جيادي جميعها رهن إشارتك يا فيكونت.

وبعد بضع دقائق كان ألبرت يمتطي جواداً ويلقي بالجريدة بين يدي الكونت..

ويقول: اقرأ هذه بعد رحيلي يا سيدي لتعلم ما حاق بنا.

ولبث الكونت يراقب الشاب وهو يبتعد وفي عينيه كل معاني الرأفة والرثاء والإشفاق.. ولما اختفى ألبرت تطلع الكونت إلى الجريدة وقرأ بها ما يلي:

(إن الضابط الفرنسي الذي كان في خدمة علي باشا تبلان والي مدينة يانينا والذي جاء عنه في جريدة الأمبرسيال منذ ثلاثة أسابيع أنه سلم حمص يانينا وباع ولي نعمته إلى الأتراك كان اسمه فرناندو حقيقة.. كما ذكرت وصيفتنا. ونحن نضيف الآن أن الضابط فرناندو هذا يقيم في باريس، وهو معروف بين النبلاء باسم الكونت دي مرسرف).

* * *

وهكذا افتضح ذلك السر الذي قضى عليه بيكامب بكرمه وشهامته وتجرد كسيف مسلول يهدد شرف آل مرسرف بالزوال.

* * *

وفي صباح اليوم التالي ذهب ألبرت إلى مكتب صديقه بيكامب.وقد استقبله الصحافي في حزن ظاهر.. وراح يسرد عليه تفاصيل المأساة في صوت عميق متأثر.

قال إنه طالع مقالاً في جريدة أخرى غير جريدة الأمبرسيال، فخف إلى مديرها.. ولما أطلع على المقال.. قال المدير: وماذا في ذلك؟ لقد تسلمنا هذا المقال مع جميع الأدلة التي تثبت صحته.

فسأل بيكامب: ومن ذا الذي جاءك بالأدلة؟

– جاءتنا من يانينا مسرح الفاجعة.

فنهض بيكامب، وسارع على الأثر في طلب ألبرت. ولكنه لم يستطع أن يذكر له في رسالته شيئاً من تلك الحقائق.. والتي تلتها، وهي أن الاضطراب ساد في مجلس الأعيان على إثر نشر المقال. ولم يكن الكونت مرسرف –وهو أحد أعضاء ذلك

المجلس– على علاقة طيبة مع رفاقه جميعاً وكذلك لم يكن على علم بالعاصفة التي أثارها ضده هذا المقال.

وقد ذهب الكونت إلى المجلس في الساعة المعينة كالمعتاد.. ولم يكد يستقر به المقام حتى نهض حد النبلاء– وكان معروفاً عنه أنه من أشد المعارضين لآراء الكونت دي مرسرف– وقرأ المقال في وسط سكون القوم جميعاً– بصوت حاد رهيب. يدل على قرب وقوع أزمة خطيرة.

وقد وعي دي مرسرف ما جاء بالمقال لأول وهلة فاصفر وجهه، وطلب إجراء تحقيق دقيق في التهم الموجهة إلى شخص الكونت دي مرسرف حتى لا تنال السنة الناس من شرف أحد نبلاء بيت الأعيان.

وفي الحال نهض رئيس المجلس، وعرض الأمر بين يدي الأعضاء وأسفر التصويت عن وجوب إجراء تحقيق سريع..وعلى إثر ذلك نهض الكونت دي مرسرف.. وطلب تأليف لجنة لبدء التحقيق في مساء اليوم ذاته.

دهش ألبرت وهو يصغي إلى حديث بيكامب.. كان يعلم أن أباه مجرم فكيف يستطيع إثبات براءته مع أنه مجرم حقيقة؟

واستتلى بيكامب قائلاً: وأقبل المساء وكانت المنتديات الباريسية جميعها في انتظار النتيجة.

وقد جاءني صديق لي في مجلس الأعيان.. واقتادني إلى مقصورة خاصة في المجلس لاستمع إلى كل ما يقال..وعندما انتظم عقد المجلس وقف رئيسه وقال للكونت المتهم:

– يمكنك الآن أن تتكلم ياك ونت دي مرسرف.

وبدأ دي مرسرف يدفع عن نفسه.. وأنا أؤكد لك يا عزيزي ألبرت أنه فعل ذلك بفصاحة وبلاغة. وأبرز خاتم علي تبلان باشا الذي كان يبصم به هذا الأخير جميع رسائله. وذلك الخاتم يدل على ما كان الضابط فرناندو يتمتع به من عطف وإليه.. ورب نعمته، لأنه كان يخول للأول الحق في الدخول والخروج من القصر

الملكي في أي وقت يشاء.

وقد قال دي مرسرف أنه كان يسرع لنجدة مولاه ولكنه عندما وصل إليه وجده ميتا.

واستطرد الكونت: ومما يدل على فرط ثقة علي باشا بي، أنه عهد إلي في ساعة احتضاره بالعناية بزوجته وابنته.

فذعر ألبرت عندما سمع ذلك. وتذكر ما قالته هايدي عن ذلك الخاتم.. وعن الضابط الفرنسي وعن الحالة الفاضحة التي بيعت بها هي ووالدتها. وأردف بيكامب: وفي تلك اللحظة دخل أحد الحجاب وقدم للرئيس رسالة، ففضها، وقرأها ثم تحول إلى الكونت وسأله:

– تحدثت يا سيدي الكونت، وقلت أن والي مدينة يانينا كان شديد الثقة بك إلى درجة أنه عهد بزوجته وابنته إلى عنايتك، فهل تعلم شيئاً عما آل إليه مصير تلك الزوجة وابنتها؟

– نعم يا سيدي.. لقد اتصل بي أنهما ذهبتا ضحية الحزن والأسى وربما ضحية الفقر والفاقة أيضاً. ويؤسفني أن أقرر أنني لم أستطع العثور عليهما رغم التحريات الكثيرة التي قمت بها.

فأجهم وجه رئيس المجلس قليلاً، وقال: أيها السادة لقد سمعتم دفاع الكونت دي مرسرف عن نفسه.. ولكن للأسف أن ما ذكره يخالف ما تضمنته رسالة في هذا الشأن جاءتني الآن فقط. فأصغوا إلي..

وبدأ الرئيس يقرأ ما يلي:

"سيدي رئيس مجلس الأعيان..

"إن لدي من المعلومات فيما يختص بسيرة الجنرال دي مرسرف ويده في سقوط مدينة يانينا، ما يؤهلني لأن أفيد اللجنة القائمة بتحقيق حوادث هذه المدينة. لقد رأيت بعيني رأسي مصرع علي باشا تبلان وحضرت لحظاته الأخيرة. وأعرف ما صار

إليه أمر (فاسيليكي) زوجة علي باشا. وهايدي ابنته. وهأنذا في انتظار أمر اللجنة للمثول بين يديها. وسأكون في قاعة الاستقبال في الوقت الذي تصلكم فيه هذه الرسالة"..

قرأ الرئيس ذلك.. ثم استدعى الخادم وأمره بإحضار السيدة. وبعد خمس دقائق أخرى ظهر الخادم ووراءه سيدة ملثمة بنقاب سميك يخفي جميع تقاطيع وجهها.. فطلب إليها الرئيس أن ترفع النقاب.. ففعلت. وانحسر القناع عن طلعة وضاءة ساحرة. وكانت تلك السيدة أو الفتاة ترتدي ثياباً يونانية جميلة التنسيق.

وأرسل الكونت دي مرسرف بصره إلى الفتاة، وارتسمت في عينيه جميع دلائل الرعب والدهشة.. ثم سقط في مقعده متخاذلاً.

سأل الرئيس الفتاة: ما شأنك والاهتمام بهذه الحوادث؟

– اهتممت بها لأن حياة أبي كانت موكولة إليها.. فأنا (هايدي) ابنة علي تبلان باشا. من زوجته فاسيليكي.

ولو أن صاعقة انقضت عند قدمي الكونت دي مرسرف لما كان لتأثيرها من الهول في نفسه ما كان لتلك الكلمات التي نطقت بها الفتاة في سكون وهدوء. وقال الرئيس وهو يحني رأسه باحترام:

– سيدتي. اسمحي لي أن ألقي عليك سؤالاً آخر. هل لديك ما يثبت صحة دعواك؟ فأجابت هايدي وهي تتناول من صدرها حافظة مضمخة بالروائح العطرية: نعم.. ها هي شهادة ميلادي. وها هو عقد البيع الذي أبرمه الضابط الفرنسي فرناندو مع التاجر الأرميني المدعو (حسن الكبير) عندما باعني أنا ووالدتي إليه بمائة ألف فرنك، لأن ذلك الضابط النذل أخذني ووالدتي كجزء من ثمن خيانته.

وفي هذه اللحظة امتدت سحابة صفراء فوق وجه الكونت، وتصاعد الدم إلى عينيه.. أما هايدي فإنها قدمت الأوراق المسجلة التي كانت بين يديها.. فقرأها أحد الأعضاء على المجلس:

(الموقع أدناه حسن الكبير تاجر رقيق ومتعهد الحضرة السلطانية، أقر بأن الفتاة

البيضاء المسماة هايدي التي تبلغ من العمر أحد عشر عاماً والتي هي ابنة علي باشا تبلان والي يانينا من زوجته اليونانية فاسيليكي والتي أقبض الآن ثمنها وهو ٨٠٠ ألف فرنك من الكونت دي مونت كريستو لأسلمه إلى عظمة السلطان محمود رب الفتاة المذكورة. أقر بأن هذه الفتاة قد باعها إلي في أول الأمر ضابط فرنسي كان في خدمة علي باشا. وهو يدعى فرناندو مونديجو..

(وتحرر هذا بالاستانة بأمر السلطان في سنة ١٢٤٧ هجرية).

(حسن الكبير)

* * *

وأعقب ذلك سكون رهيب قطعه الرئيس أخيراً بقوله: سيدتي.. هل تسمحين بإلقاء بضعة أسئلة على سمو الكونت دي مونت كريستو؟

أجابت هايدي: إن الكونت متغيب في نورمانديا منذ ثلاثة أيام يا سيدي.

– إذن من ذا الذي حملك على فعل ما فعلت؟

– سيدي.. إني منذ أن وطئت قدماي أرض باريس، وعرفت أن ذلك النذل الذي خان أبي وتاجر بعائلته يقيم فيها، عملت على مراقبته.. كما أن الكونت دي مونت كريستو يمدني بكل ما احتاج إليه.. ولقد اتصل بي ما حدث في مجلس الأعيان هذا الصباح. وتوقعت ما سيحدث الآن.. ومن أجل ذلك كتبت الرسالة التي وصلتكم منذ فترة قصيرة. فسأل الرئيس: إذن فالكونت يجهل كل ما يحدث هذا الآن.

– نعم يا سيدي.. لأنه لا شأن له بهذا اليوم الذي كنت انتظره بفروغ صبر. لا ثأر فيه لأبي..

ولم يكن الكونت دي مرسرف قد نطق بكلمة في أثناء هذا الحوار وكان وجهه مصفرا يسيل فوقه العرق البارد.

قال له الرئيس: يا كونت دي مرسرف. هل تعرف في هذه الفتاة ابنة علي تبلان

باشا؟ فأجاب الكونت وهو يحاول النهوض: كلا.

فانثنت هايدي بسرعة، وما وقع بصرها على الكونت حتى زأرت وقالت بصوت متهدج عميق:

– أنت لا تعرفني؟ حسناً، ولكنني أعرفك، أنك أنت فرناندو مونديجو الضابط الفرنسي الذي كان يقود إحدى فرق جيش والدي النبيل.. أنك أنت الذي سلمت حصن المدينة، وأنت الذي أوفدك ولي نعمتك للتفاوض مع السلطان في شأن حياة أبي أو موته، فعدت إليه بوثيقة مزيفة، استطعت بواسطتها وبواسطة خاتم والدي أن تخدع (سليم) الخادم المخلص الأمين.. وأنت أول من طعن ذلك المسكين.. وأنت الذي بعتني وأمي إلى التاجر الأرميني (حسن الكبير).. يا قاتل يا قاتل.. يا قاتل.. ليسقط دم مولاك على رأسك، انظروا إليه جميعاً، انظروا إليه أيها السادة، إن دم ولي نعمته يفيض فوق جبهته.

وقد نطقت تلك الكلمات الأخيرة بقوة وحماسة حتى أن العيون جميعها اتجهت إلى جبهة الكونت، أما هو.. فقد مر بكفه فوق جبهته، وكأنه يريد أن يمحو الدم الذي تكلمت عنه الفتاة. قال الرئيس:

– هل أنت واثقة أن فرناندو مونديجو هو بعينه الكونت دي مرسرف؟

– كل الثقة.. فقد قالت لي أمي (انظري جيداً إلي هذا الرجل.. إنه هو الذي علق رأس أبيك بباب المدينة، أنه هو الذي باعنا، أنه هو الذي غدر بنا.. فإذا حدث ونسيت وجهه وتقاطيعه، فانظري إلى يده اليمنى، ففي راحته جرح كبير، تلك الراحة التي تساقطت فيها ليراث حسن الأكبر قطعة فقطعة).. نعم إني أعرفه فسلوه الآن إن كان يعرفني بدوره؟

وكانت كل كلمة من كلمات الفتاة في قلب دي مرسرف كطعنة خنجر وعندما نطقت بالجملة الأخيرة، أسرع فأخفى كفه بين طيات ثيابه ثم سقط في مقعده مغلوباً على أمره. قال الرئيس:

– يا كونت دي مرسرف.. هل لديك ما تقوله رداً على هذه التهم؟

أجاب الكونت بصوت خافت: لا.. ليس لدي ما أقوله.

ثم أجال حوله نظرة رعب وفتح أزرار ثوبه بعنف. ذلك الثوب الذي أحس كأنه يخنقه.. ثم حول وجهه شطر الباب، واندفع منه شبه رجل معتوه.

* * *

واستطرد بيكامب قائلا: وقد انتظرت حتى نهاية الجلسة وبعد انصراف هايدي، وتسللت دون أن يراني أحد.

وكان ألبرت يستمع إلى حديث صديقه.. وهو معتمد رأسه بين كفيه. فلما فرغ بيكامب من قصته ورفع الشاب رأسه، كانت الدموع تترقرق في عينيه. وقال لصديقه: بيكامب أظن أنه يجب ألا أعيش بعد الآن.. نعم.. ولكن لابد لي أن أعرف ذاك الذي يطاردنا، ويحمل علينا كل هذه الحملات العنيفة.

– طب نفسا يا صديقي.. فقد وقعت على إثر ذلك العدو وأنا في (يانينا).. إذ أبلغني مدير مصرف المدينة أن دنجلار كتب إليه يطلب معلومات عن والدك منذ خمسة أسابيع.

فصاح ألبرت: إذا كان ذلك حقيقياً، فسوف أجعله يدفع ثمن آلامنا.

ونهض لفوره.. وقصد برفقة بيكامب إلى بيت البارون دنجلار.

وقد استقبلهما البارون استقبالاً فاترا. فلما تحداه ألبرت، وطلب إليه أن يحدد موعداً ومكاناً لمبارزته.. سأل البارون في دهشة: ولماذا يا سيدي؟

– أتسألني لماذا أيها التعس الجبان؟ ألست أنت الذي كتبت إلي يانينا تطلب معلومات تقضي بها على سمعة أبي؟

فاصفر وجه دنجلار. ولكنه قال في صوت متزن: إنك مخطئ.. فأنا لم أكن ألا وسيطاً في الأمر.. وقد أشار علي صديقك الكونت دي مونت كريستو بأن أرسل في

طلب معلومات عن أبيك قبل مصاهرته ففعلت وكانت النتيجة ما ترى.

فاصفر وجه ألبرت بدوره، وتذكر مقابلة هايدي في منزل مونت كريستو فوضحت الحقيقة أمام عينيه.

لم يبق هناك شك في أن الكونت دي مونت كريستو هو الذي دبر هذه المؤامرة سلفا. وإذن فليدفع مونت كريستو ثمن فعلته.

* * *

وغادر الشابان منزل البارون دنجلار دون أن يودعاه. وانطلقا إلى منزل الكونت دي مونت كريستو.

وعبثا حاول بيكامب أن يثني صديقه عن عزمه.. فقد أصر ألبرت على ضرورة تصفية حسابه مع الكونت، بغض النظر عن النتيجة. وعندما وصلا إلى منزل الكونت علماً أن مونت كريستو لا يقابل أحداً في ذلك اليوم ولكنه سيذهب عند المساء إلى الأوبرا.

وتحول ألبرت إلى صديقه بيكامب.. وقال: إني أعتمد عليك في أن ترافقني إلى الأوبرا.. وأكون شاكراً إذا استطعت أن تجيء معك بصديقنا شاتوريتو.

ثم افترق الصديقان على ذلك. وفي أثناء عودة ألبرت إلى بيته مر بأصدقائه فرانز ودابري ومكسمليان موريل، وأعرب لهم عن رغبته في أن يراهم بدار الأوبرا في ذلك المساء. ثم انطلق إلى منزله ليقابل أمه التي اعتكفت في غرفتها منذ حوادث اليوم السابق ورفضت أن تقابل أحداً وقد وجدها في فراشها والحزن غالب عليها.. فقال لها:

– أماه.. هل تعرفين إن كان لأبي أعداء؟

فذعرت مرسيدس لذلك السؤال الفجائي ولكنها أجابت:

– أن شخصاً في مثل مركز أبيك لابد أن يكون له أعداء.

– هل لاحظت يا أمي أن مونت كريستو رفض أن يتناول شيئاً من الطعام أو الشراب ليلة المرقص؟

فنظرت مرسيدس إلى ابنها في ذعر.. وهتفت:

–وما علاقة مونت كريستو بذلك؟

– إن مونت كريستو يكاد يكون شرقي الطباع، وأهل الشرق يحتفظون بمطلق الحرية في الانتقام ما داموا لم يتناولوا شيئاً من الطعام أو الشراب في منازل أعدائهم.

فاصفر وجه مرسيدس وبات لونها يحاكي وجوه الأموات. وقالت:

– هل تقول أن مونت كريستو عدو لنا؟ من ذا الذي حدثك بذلك. إني أتوسل إليك يا بني أن تستعيد صداقته.

فمرت ابتسامة تهكمية على شفتي ألبرت ولم يجب.

* * *

وفي المساء انطلق ألبرت وصديقه بيكامب إلى الأوبرا..

وأرسل ألبرت حوله بصراً زائغاً في البحث عن مونت كريستو، فرآه جالساً في مقصورته وبرفقته مكسمليان موريل.

أسرع ألبرت إلى مقصورة الكونت وفتح الباب.. فالتفت هذا، ورأى الشاب يدخل وهو مصفر الوجه، مرتجف الأطراف.. يتبعه صديقاه. فقال: – آه لقد عثر الفارس النبيل علينا أخيراً.

فأجاب ألبرت بعبوس: سيدي.. إننا لم نجئك الآن لسماع كلمات النفاق التي تنبئ عن احترام مزيف، وأدب فاسد، وصداقة مشوهة. إننا جئنا نطلب إيضاحاً.. فقد أصبحت أعرف الآن من أنت !

وقد نطق بهذه الكلمات بصوت مرتفع، متعمداً ذلك كي يجذب انتباه الحاضرين.. فقال الكونت: إني لا أفهم ما تعني يا سيدي وإذا كنت أفهم فإني أرى أن صوتك كثير الارتفاع.. إني هنا في مقصورتي، وأنا وحدي صاحب الحق في أن أرفع صوتي عن صوت سواي.. فأترك هذه المقصورة يا سيدي !

وأشار الكونت بإصبعه إلى باب المقصورة، وفي ألفاظه ونظراته معنى الأمر الذي لا يرد. فأجاب ألبرت وهو يرفع قفازه:

– آه.. سأعرف كيف أجعلك تترك مقصورتك؟

أجاب الكونت بلهجة هادئة: مسيو دي مرسرف !

وصمت. لأن غمغمة طويلة انتشرت في كل فضاء الأوبرا لدى ذكر الاسم الفاضح. وشعر ألبرت بالأرض تميد تحت قدميه. وكان على وشك إلقاء القفاز في وجه الكونت لولا أن مكسمليان أسرع فأمسك بذراعه. بيد أن الكونت استطرد بنفس لهجته الهادئة القتالة:

– مسيو دي مرسرف أرى أنك تريد التحرش بي.. وأنا اعتبرك قد مستني بقفازك، وهي إهانة لا يمحوها غير الدم، فهل ترى أن تغادر المقصورة أم آمر الخدم أن يقذفوك إلى الخارج؟

وأدرك أصدقاء الطرفين أن المناقشة ستتطور إلى ما لا تحمد عقباه فحاولوا تهدئة الكونت، ولكنه أبى أن يصغى إليهم.

وحينئذ قال بيكامب: إذن فلم يعد لدي إلا أن أعد العدة للمبارزة غداً؟ فأجاب الكونت: نعم.. وسأترك لك حرية اختيار السلاح الذي يروقه لأنني واثق من الفوز على أي الحالات.

فنظر بيكامب إلى الكونت وقال بدهشة: واثق من الفوز؟

– بكل تأكيد.. وإلا لما قبلت النزال. إني سأقتله ولا أرى بدا من ذلك. وسأكون مساء اليوم في منزلي. في انتظار نوع السلاح وساعة اللقاء.

فقال بيكامب: إذن فليكن السلاح هو الغدارة. واللقاء في غابة فنسان في الساعة الثامنة.

* * *

وعندما عاد الكونت إلى منزله خف إليه وصيفه برتسيو وأعلنه بوجود سيدة مقنعة في انتظاره. وقبل أن يتكلم مونت كريستو ظهرت الزائرة على عتبة الباب، فأشار الكونت إلى الخادم بالانصراف.

وساد الصمت بين الكونت وزائرته قليلاً، وأجالت السيدة بصرها الشارد حولها، ثم ضمت يديها إلى صدرها. وهتفت في يأس وقنوط:

– أدمون.. أدمون.. هل تريد أن تقتل ابني؟!

فتراجع الكونت خطوة، أفلتت شفتاه صيحة ذهول.. وقال:

– بأي اسم دعوتني الآن يا كونتس دي مرسرف؟

صاحت وهي ترفع القناع:

– باسمك.. اسمك الذي ربما كنت الوحيدة في هذا العالم التي لم تنسه.. أدمون.. إن التي جاءتك ليست الكونتس دي مرسرف.. إنها مرسيدس!

قال الكونت: إن مرسيدس ماتت يا سيدتي، ولم أعد أعرف واحدة بهذا الاسم.

– بل إن مرسيدس حية ترزق يا سيدي.. وهي لا تزال تتذكر، وليست في حاجة إلى البحث عن اليد التي صوبت الطعنة الأخيرة إلى صدر الكونت دي مرسرف.

فقال مونت كريستو بتهكم لاذع:

– تقصدين صدر فرناندو؟! وما دمت تتذكرين الأسماء القديمة. فدعينا نتحدث بها جميعها..

كانت لهجته قاسية، حتى شعرت مرسيدس كأن الدم يكاد يجمد في عروقها..

قالت: إذن فأنا لم أخطئ يا أدمون. أنك تنوي قتل ولدي..

– ومن قال لك يا سيدتي أنني أقصد شراً بولدك؟

– إن للأم أكثر من بصيرة واحد.. ولقد توقعت كل شيء وراقبت ألبرت في الأوبرا، وعلمت كل ما حدث.

– إذا كنت قد عرفت كل شيء، فلابد أنك تعلمين أيضاً أن ابن فرناندو قصد إهانتي علناً.

– أصغ إلي.. إن ولدي فعل ما فعل معتقداً بأنك علة مصائب أبيه.

– أنت مخطئة يا سيدتي.. فهي ليست مصائب، ولكنها قصاص وعقاب.. وإذا كنت قد أقسمت أن انتقم لنفسي، فلم يكن قسمي أن أوقع انتقامي بالجنرال الفرنسي، أو الكونت دي مرسرف.. ولكن بفرناندو مونديجو صياد الأسماك. زوج الكاتالانية (مرسيدس).

فصاحت الكونتس: أواه يا سيدي.. ما أروع مثل هذا الانتقام لقد دفعتك الأقدار إليه خطأ لأنني أنا المجرمة، وإذا كنت قد أقسمت أن تنتقم من أحد فأوقع انتقامك بي، فأنا التي لم أجد الشجاعة لاحتمال غيبتك ووحدتي..

– ولكن لماذا غبت أنا؟ ولماذا بقيت أنت وحيدة؟ لأنهم قبضوا علي وسجنوني، نتيجة مؤامرة دنيئة اشترك فيها زوجك النذل. وراح يقص عليها القصة بحذافيرها كما يعرفها القراء، ثم ختم حديثه بأن قدم لها رسالة الاتهام التي أرسلها دنجلار وفرناندو للنائب العمومي..

وقرأت مرسيدس الرسالة. ثم صاحت صيحة ذعر وقالت:

– ما أروع ما أرى. وهل كانت نتيجة هذه الرسالة أنهم..

– كانت نتيجتها يا سيدتي أنهم قبضوا علي وسجنوني.. ولكنك لا تعلمين كم مضى علي في السجن. إنني قضيت أربعة عشر عاماً في قبو قصر وأنا أجدد القسم صباح مساء بالانتقام لنفسي عن كل دمعة سكبتها.

فلم تقو ساقا المسكينة على حملها فجثت على ركبتيها، وصاحت بصوت يشبه الأنين:

– عفوك يا أدمون.. أعف عنه من أجلي، أنا التي لازلت أحبك..

وأحنت جبهتها حتى كادت تمس أرض المكان فوثب إليها الكونت وأنهضها.. وقال:

–أما أنني أعفو عن هذا النذل الخبيث ولا أسحقه، أو أن أرجع عن انتقامي في اللحظة الأخيرة، فأمر مستحيل.. مستحيل يا سيدتي..

فقالت الأم المسكينة: أدمون.! عندما أدعوك (أدمون).. لماذا لا تدعوني مرسيدس؟ فكرر الكونت قولها: مرسيدس! مرسيدس! مرسيدس! آه.. لقد صدقت فلا تزال لذلك الاسم عذوبته.. كم كنت أردد اسمك في أهول ساعات قنوطي ويأسي دون جدوى.. يجب أن أنتقم لنفسي يا مرسيدس لأني تألمت أربعة عشر عاماً..

فصاحت الأم المسكينة: انتقم لنفسك إذن يا أدمون، ولكن دع انتقامك يسقط على رؤوس المجرمين.. انتقم منه.. أو مني ولكن أترك ولدي يا أدمون.. اتركه بحق السماء.! اتركه بحق ما كان بيننا !

فشهق الكونت وتأوه وقبض على شعره بكلتا يديه كالمجنون..هزم رجل الانتقام، وأحنى رأسه.. وقال بعد فترة بصوت متزن عميق:

– ماذا تريدين مني؟! حياة ابنك؟! حسناً.. أنه سيعيش!

فصاحت مرسيدس صيحة جعلت الدموع تطفر من عيني مونت كريستو ولكن تلك الدموع لم تبث أن غاضت..

قالت مرسيدس وهي تمسك يد الكونت وترفعها إلى شفتيها:

– آه.. إنك دائماً كما عهدتك.. وكما كنت أحبك. نبيل القلب، رقيق العاطفة..

فأجاب الكونت: أواه يا مرسيدس.. إن أدمون المسكن لم يعد أمامه الكثير من الوقت لتحبيه.

– ماذا تقول يا أدمون؟

– أقول أنك ما دمت تأمرينني يا مرسيدس بأن أموت. فسأموت.

– ولكن المبارزة لن تقع يا أدمون بعد أن عفوت.

فأجاب الكونت بنغمة حزينة:

– بل ستقع يا سيدتي.. ولكن بدلاً من أن يهدر دم ولدك، سأكون أنا الضحية.

فذعرت مرسيدس.. وقفزت نحوه.. ولكنها عادت فتوقفت فجأة وقالت والدموع تنهمر من عينيها:

– أدمون.. ما أنبلك.. وما ارق عواطفك.. فقد أخذتك الرأفة بالمرأة المسكينة التي وهبتك قلبها رغم كل ما وقف في سبيلها.وا أسفاه.. لقد أثقلتني الأحزان، وهدمت كياني، فلم تعد طلعتي أو ابتسامتي تذكرك بمرسيدس التي طالما قضيت معها ساعات هي صفوة ساعات العمر.ولكن صدقني يا أدمون لشد ما تألمت. ولكني رغم ذلك كنت موقنة أن كل شيء بيننا لم ينته بعد.

– إنك تقولين ذلك الآن يا مرسيدس، ولكنك لا تعرفين عظم التضحية التي أبذلها الآن من أجلك.. إذ من أجلك وحدك سأجعل حياتي الفداء.. الوداع يا مرسيدس.

ودلف من الباب دون كلمة أخرى. وكان هذا آخر العهد بينهما.

* * *

ودقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وسمع الكونت قرقعة عجلات مركبة مرسيدس وهي تبتعد عن الشانزلزيه. فرفع رأسه وقال:

– كم كنت جاهلاً إذ لم أطرح قلبي جانباً يوم اعتزمت الانتقام لنفسي.

الفصل الثالث والعشرون

وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي وصلت مركبة الكونت إلى غابة سان فنسان.

وأطل مكسمليان موريل من نافذة المركبة. وقال: لقد جئنا قبلهم.

وكان بابتست خادم الكونت إلى جانب حوذي المركبة. فقال:

– عفواً يا سيدي.. ولكني أرى مركبة هناك.

وقفز مكسمليان وأمانويل من المركبة.. ثم هبط بعدهما الكونت ببطء وسكون. وساروا جميعاً ناحية بيكامب وشاتوريتو وفرانز ودابري.

وإذ تقابل الجمعان أحنوا رؤوسهم باحترام. وقال مكسمليان:

– عفواً أيها السادة.. ولكني لا أرى بينكم الفيكونت دي مرسرف.

فأجاب شاتوريتو: أنه أرسل إلينا بأنه سيلحق بنا إلى هنا.

ونظر بيكامب في ساعته. ثم أجال طرفه حوله بسرعة ولم يلبث أن قال:

– ها هو قادم ممتطياً جواداً يعدو بكل قوته.

وقال شاتوريتو: يا للحماقة! يأتي ممتطياً جواداً وهو يعلم أنه سيبارز خصمه بالغدارة؟!

ولما أصبح ألبرت من القوم على قيد عشر خطوات.. ترجل، وألقى عنان الجواد إلى الخادم ثم انضم إلى رفقائه.. كان مصفر الوجه. بادي الإعياء، شارد البصر.

أحنى رأسه باحترام. وقال: أشكركم أيها السادة من كل قلبي لأنكم لبيتم طلبي. وأرجو أن تصغوا جميعاً لما سأقوله للكونت دي مونت كريستو حتى لا يفوتكم من حديثي كلمة واحدة.

قال الكونت: تكلم يا سيدي.

فقال ألبرت بصوت بدا مرتجفاً ثم أخذ بالتدريج يزداد قوة ورزانة:

– سيدي.. ليست خيانة فرناندو مونديجو لعلي باشا تبلان هي التي أقنعتني بوجوب الاعتذار لك بكل جوارحي. ولكنها خيانة فرناندو صياد السمك لك أنت. والأهوال والمصائب التي توالت كنتيجة لتلك الخيانة.وإني أعترف بأنك على حق في الانتقام ممن أساء إليك في شخص ابنه.. وها أنذا ابنه أتقدم إليك شاكراً لك عطفك وترفعك عن الاستعانة بأهول الطرق لإنزال الانتقام بنا جزاء وفاقا لما قدمت أيدينا.

وقد خيل كأن صاعقة قد انقضت بين ذلك الجمع الصغير.. أما الكونت فإنه رفع عينيه إلى السماء وفيهما كل معاني الخضوع.

أدرك لفوره ما فعلته مرسيدس من أجله.. ومن أجل ابنها..

واستطرد ألبرت: والآن يا سيدي.. إذا كنت ترى اعتذاري هذا كافياً فأرجو أن تمد إلي يدك مصافحاً.. إني فعلت ما يفعله الرجل.. أما أنت فأنبل وأعظم من كل رجل.. فمد الكونت يده إلى ألبرت، وصدره يعلو ويهبط، وكأن زوبعة هائلة تعصف به.

ضغط ألبرت على تلك اليد بعطف.. وقال: أيها السادة.. إن الكونت يتقبل اعتذاري.

* * *

أما دي مونت كريستو فقد سقط رأسه فوق صدره.. وتدلى ذراعاه وناء تحت ذكرى أربعة وعشرين عاماً.. وانصرف فكره إلى تلك المرأة النبيلة التي جاءته تتوسل إليه الإبقاء على حياة ولدها.. فوهبها إياها.. ولكنها كانت كريمة وشجاعة إلى أبعد حد. فلم تقبل تلك التضحية في سكون شأن الجبان، بل باحت لإبنها بالسر الهائل.. ذلك السر الذي لا ريب قتل كل عاطفة حب واحترام في قلب الابن لأبيه.. وبذلك كانت سبباً في الإبقاء على حياته هو أيضاً.

غمغم الكونت: العناية الإلهية أيضاً!! إنها ترعاني، وسترعاني إلى الأبد!

* * *

وأما ألبرت فقد عاد إلى منزله على الفور، وخيل إليه وهو يثب عن ظهر جواده أنه يرى وجه أبيه خلف ستائر إحدى النوافذ، فتنهد، وحول وجهه شطر جناح أمه..

* * *

وبعد ساعة وقفت مركبة مقفلة أمام قصر الكونت دي مرسرف، وبدأ الخدم يحملون إليها عدداً كبيراً من الحقائب.

* * *

كان الكونت دي مرسرف يرقب عودة ابنه بفارغ الصبر. كان يعتقد أن ألبرت قد أهان الكونت إهانة لا يمحوها إلا الدم.وقد أدهشه أن ولده لم يذهب ليراه قبل المبارزة، ولكنه علل ذلك بأنه لا يريد لقاءه قبل أن ينتقم لشرفه واسمه، فأكبر تلك الشجاعة فيه. وراح ينتظر نتيجة المبارزة بصبر ذاهب. فلما أقبل ألبرت. اعتقد الكونت أنه انتقم له، ولكنه عجب في نفسه. كيف أنه لم يسارع بإخباره بالانتصار على خصمه.

استدعى أحد الخدم، وسأله عن الحقيقة فأخبره بها على علاتها. فغضب الكونت وثارت نفسه. ثم أسرع وارتدى ثيابه العسكرية، وانطلق إلى منزل مونت كريستو. وبعد خمس دقائق أخرى كان يذرع قاعة الاستقبال في قلق واضطراب.

دخل مونت كريستو وأحنى رأسه قليلاً. وقال:

– ترى لمن أدين بما نالني من شرف بزيارة الكونت؟

فأجاب دي مرسرف: ألم تقابل ولدي في هذا الصباح؟

– نعم يا سيدي. وها أنت تراني أمامك لأنه لم يقتلني، بل أيضاً لم يبارزني. لأنه لابد قد عرف أن هناك من هو أعظم جرماً مني. وهو أنت.

فاصفر وجه الكونت وصاح:

– إذا كان شبان هذا العصر يتقاعسون عن المبارزة، ففي مكنتنا نحن الشيوخ أن نذود عن شرفنا. هلم يا سيدي. ولا حاجة بنا إلى شهود.

فأجاب مونت كريستو:

– إنك على حق. لأننا نعرف "بعضنا" حق المعرفة ، بل بالعكس يا سيدي. إذ لا يعرف الواحد منا عن الآخر إلا ما هو أقل من القليل.

– أتظن ذلك؟! إذن دعنا نتكلم في هذا الشأن. ألست أنت الجندي فرناندو الذي فر من الميدان في فجر واقعة (ووترلو) وانضم إلى الجيش الانجليزي؟ ألست الملازم فرناندو الذي كان جاسوساً للجيش الفرنسي في أسبانيا؟ ألست الكابتن فرناندو الذي خان ثم قتل ولي نعمته علي باشا تبلان ؟ ثم أليس فرناندو الأول والثاني والأخير قد امتزجوا جميعاً فكان منهم من يدعو نفسه الآن الجنرال دي مرسرف كونت دي مرسرف عضو مجلس الأعيان؟!

فصاح الجنرال وكأن رصاصة اخترقت قلبه:

–أيها التعس.. هل تريد أن يقتلني ما أنا فيه من عار وألم وفضيحة؟.. أنا واثق من معرفتك إياي.. ولكني لا أعرف من أنت أيها الأفاق المختفي وراء ستار من العسجد والذهب. أريد أن أعرف اسمك وأنا أدفن سيفي في قلبك.

فانسحب الكونت إلى غرفة الثياب، وعاد مرتدياً ثوب وقبعة بحار، وشعره الطويل منسدل فوق كتفيه.. وقال:

– فرناندو. لعلك عرفتني الآن وتذكرت اسمي.

تراءى الماضي الهائل المروع أمام دي مرسرف، فتقهقر حتى التصق بالجدار وعيناه لا يتحرك فوقهما هدب.. وما إن وصل إلى الباب حتى فر كالمعتوه، وهو يصيح بصوت يدعو إلى الرثاء: أدمون دانت!! أدمون دانت!!

ووصل إلى بيته، ورأى بالقرب منه إحدى عربات النقل، فارتسمت في عينيه نظرة رعب وهول.. ولكنه لم يجرؤ على سؤال أحد. واستمع إلى وقع أقدام تقترب فسارع وتوارى وراء أحد الأبواب.. وبعد فترة أقبلت مرسيدس تتكئ على ذراع ابنها وهو يقول:

– تشجعي يا أماه.. لم يعد هذا البيت بيتنا

فشعر الجنرال بساقيه تخذلانه وبقواه تتداعي لهجران زوجته وولده في وقت واحد.

* * *

وعندما انطلقت المركبة التي تحملهما، سمع دوي طلق ناري، ورؤى الدخان وهو يتصاعد من إحدى نوافذ غرفة الكونت دي مرسرف.

* * *

ووقفت المركبة أخيراً أمام منزل صغير في شارع (سان بيير)، فهبطت منها الأم والابن وصعدا إلى الطابق الثالث..كانا قد قررا أن يحتجبا عن العالم بعد تلك الفضيحة المؤلمة.

* * *

وبعد بضعة أيام سافر ألبرت إلى بلاد الجزائر بعد أن التحق بحامية (سانيس) لقاء ألفين من الفرنكات، تركها لأمه لتستعين بها وبثمن جواهرها على أن تحيا حياة هادئة ريثما يعود وعلى رأسه إكليل الغار.ولما تحركت الباخرة راحت تلوح له بمنديلها في الهواء وعيناها مغرورقتان بالدموع.

وكان رجل يرقب الاثنين من وراء أحد الأعمدة، فلم يلبث أن هز رأسه ومس جبهته بكفه.. وقال: وا اسفاه.. كيف السبيل لرد السعادة التي سلبتها من هذين المخلوقين البريئين؟!

الفصل الرابع والعشرون

كان نوارتييه وفالنتين قد أجاز المكسمليان أن يراهما مرتين في كل أسبوع وقد ذهب الشاب للقاء حبيبته بعدان اعتذر ألبرت لمونت كريستو على النحو الذي يعرفه القراء. وقادته فالنتين إلى غرفة جدها. وهناك أنبأته بأنهما قررا الانتقال من هذا البيت لأن جو (سان أونوريه) لم يعد يلائمها.

فسأل مكسمليان بلهفة: هل تشعرين بألم؟

– كلا.. أنه فقط خمود في الحركة. وهبوط في القوى.

– وهل تتعاطين دواء؟

– نعم. أتناول ملعقة من مزيج يتعاطاه جدي كل صباح، وزدت في الكمية حتى أني تناولت هذا الصباح أربع ملاعق.

فنظر مكسمليان إلى الفتاة بسكون، ثم حول بصره إلى نوارتييه.. وقال:

– ولكني أظن أن ذلك المزيج لم يكن معدا لغير مسيو نوارتييه.

فقالت الفتاة: أنه مر المذاق، وقد حدث منذ برهة أني كنت أتجرع قدح ماء محلى بالسكر ولكني لم أستطع الإتيان على كل ما به، لأنه خيل إلي أنه شديد المرارة.

فاصفر وجه نوارتييه وكان يرمق الفتاة بقلق واضح.

كان الدم يتصاعد إلى رأس الفتاة ووجنتيها. فرفعت يدها إلى جبينها وغمغمت: هذا عجيب: إني أشعر كأنني في ظلام و..

وحاولت أن تتكئ على جدار الغرفة، ولكن قواها تراخت، فسقطت على الأرض، فوثب مكسمليان إليها واحتملها بين ذراعيه.. ثم وضعها على أحد

المقاعد.فتحت عينيها بعد برهة. وأجالت بصرها حولها، وحاولت أن تتكلم، ولكن خيل إليها كأن نوبة جديدة أصابتها. إذ تشنج ذراعاها وسقط رأسها على المقعد.

وكانت صيحة الرعب التي لم يستطع نوارتييه أن يجعلها تمر من بين شفتيه تكاد أن تثب من عينيه.

أما مكسمليان فإنه وثب إلى الجرس ودقة بقوة واستطالة.

* * *

وفي لحظة سمع وقع خطوات على الدرج، ثم صوت دي فيلفور وهو يقول بذعر: ماذا حدث؟

فتوارى مكسمليان وراء الستار.. ثم وثب دي فيلفور إلى الداخل وأحاط ابنته بذراعيه، وطفق يصيح: إلى الطبيب.. إلى الطبيب.

وقفز من الباب؛ فخرج مكسمليان من مخبئه وقد جالت بخاطره فكرة رائعة.

تذكر ذلك الحديث المخيف الذي دار بين دي فيلفور والدكتور افريني في حديقة الأول.. ولم يجد خيراً من مونت كريستو يبثه بلواه ويلتمس نصحه.

* * *

راح مكسليان يقص عليه قصته من البداية، فذكر المحادثة التي سمعها تدور بين الطبيب والمدعي العمومي، وعقب عليها بحادث الخادم برواس وانتهى بذكر حادث فالنتين.

وكان الكونت يصغى أو يتظاهر بالإصغاء في هدوء. وقال:

– ربما كان ما تظنه غضب الله ليس إلا عدالته وقصاصه، فدع العدالة تأخذ مجراها الطبيعي ثم ماذا يهمني من أمرهم جميعاً؟

فصاح الشاب وهو يئن متوجعاً:

–ولكني أحب فالنتين.

فانطلقت صيحة غريبة من شفتي الكونت، وارتسمت على وجهه إمارات الدهشة المقرونة بالأسف.. وقال:

– أيها التعس، أتحب فالنتين ابنة ذلك الشيطان؟

وقام في نفسه صراع هائل ثم رفع رأسه فجأة وقال:

– إننا الآن في وقت الظهر فإذا لم تكن فالنتين قد ماتت.. فكن على ثقة من أنها ستحيا. فقط عد إلى بيتك.. وألزمه ريثما آتيك بالأخبار.

ودهش مكسمليان لرباطة جأش الكونت وثقته بنفسه. ولكنه أذعن وانطلق على الأثر.

* * *

عندما سمع افريني أن فالنتين –موضع اتهامه– هي الضحية هذه المرة، أخذته الدهشة وهرع إلى المنزل برفقة دي فيلفور.. وقد زادت رغبته في الوقوف على سر هذه الجرائم.

وكانت فالنتين قد أفاقت من النوبة التي استولت عليها.وقرر الطبيب بعد فحصها أنها اجتازت مرحلة الخطر. ثم أمر بنقلها.

وقد دار بين الطبيب والمفلوج حديث طويل، استخلص منه الأول أن فالنتين قد تمكنت من مقاومة السم بفضل نوارتييه الذي كان يقدم لها يومياً مع جرعات المزيج كمية من السم تزيد يوماً عن يوم فأكسبتها مناعة وقدرة على المقاومة..

* * *

وفي نفس اليوم شوهد أثاث ثمين يحتل المنزل الشاغر المجاور لمنزل دي فيلفور.. وقد قيل أنه لرجل إيطالي يدعى (جياكومويزوني) وهو المستأجر الجديد.

الفصل الخامس والعشرون

في منتصف الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي، كانت الردهة الكبيرة في قصر البارون دنجلار تموج بالمدعوين الذين قدموا للاشتراك في الاحتفال بزواج يوجيني باندريا كفالا كنتي.. وكان أندريه بادي السعادة والغبطة.. ولم يكف لحظة عن التشدق بدخله السنوي العظيم الذي يزيد على مائة وخمسين ألفاً من الفرنكات وفيا سينفقه منه، وعندما دقت الساعة التاسعة.. أعلن الخادم قدوم الكونت دي مونت كريستو.

* * *

بدأ الكونت الحديث بلباقة.. فتكلم عن قصة مصرع كادروس في منزله.. وقال إن أحد الخدم قد عثر على صديرية لم يكن رجال البوليس قد وقفوا لها على أثر عند بحثهم.. وعند فحصها عثر في أحد جيوبها على ورقة؛ اتضح أنها رسالة للبارون دنجلار.

اصفر وجه البارونة.. واستطرد الكونت:

– وعندما تأكدت أن الصديرية والرسالة دليلان كافيان للإرشاد إلى القاتل، فقد سارعت بإرسالهما إلى مسيو دي فيلفور..

فامتقع وجه أندريا عندما أدرك أن السحب بدأت تتجمع في سماء مستقبله.. وأردف الكونت: واتضح أن القتيل شقي فار من الليمان يدعى كادروس وهنا بهت دنجلار بدوره. وانتهز أندريا فرصة وانسل إلى الغرفة المجاورة.. وما هي إلا دقائق حتى فتح الباب ودخل أحد ضباط البوليس فجأة وسأل: من منكم أيها السادة يدعى أندريا كفالا كنتي؟ فقال دنجلار بدهشة: عن أي أندريا كفالا كنتي تسأل؟

– عن ذلك الذي يدعو نفسه الأمير كفالا كنتي، وما هو إلا مجرم هارب من ليمان طولون..

– وما هي جريمته يا سيدي؟

– إنه متهم بقتل لص يدعى كادروس أثناء فراره من بيت الكونت دي مونت كريستو.. والقتيل كان رفيقاً له في سجن طولون. فألقى الكونت نظرة سريعة حوله.. ولكنه لم ير أثراً لأندريا.

* * *

تحسنت حالة فالنتين رغم ثورة أعصابها.. والهذيان الذي كان ينتابها في كثير من الأحيان. وفي إحدى الليالي خيل إلى الفتاة كأنها ترى الباب الذي بين مخدعها ومكتبها يفتح ببطء.. وينسل منه شبح راح يدنو من فراشها.. وهو يرهف أذنه منصتاً.

أحست بدمها يتدفق في شرايينها، وتذكرت أن خير وسيلة لتهدئة أعصابها الثائرة هو أن تأخذ جرعة من الدواء.. فمدت يدها.. وفي تلك اللحظة تقدم منها الشبح مسرعاً.. وأحست فالنتين بيده تقبض على ذراعها، فانكمش جسمها، وتراخت يدها..

وتناول الشبح كأس الدواء، وقربها من شفتيه وتذوق جزءاً من محتوياتها. ثم اقترب من الفتاة، وقال لها بصوت مضطرب:

– والآن يمكنك أن تتجرعي الدواء.. فذعرت فالنتين..

وغمغمت قائلة: الكونت دي مونت كريستو؟!

فقال الكونت: نعم يا صديقتي.. فاطمئني.

فحاولت الفتاة أن تتكلم ولكن الكلمات احتبست في حلقها..

واستطرد الكونت: أصغي إلي.. لقد قضيت أربعة أيام بلياليها وأنا أسهر على

حمايتك.. كيلا تمتد إليك يد القاتل فتفتك بك كما فتكت بمن سبقوك.. فازدادت دهشة الفتاة.. وهتفت: –ولكن من أين كنت تراقبني يا سيدي.. إنني لم أرك قبل الآن. فأشار الكونت بيده نحو الباب الذي يؤدي إلى المكتب.. وقال: –كنت مختبئاً خلف هذا الباب وبالمكتبة باب آخر يؤدي إلى المنزل المجاور الذي استأجرته باسم جياكومو.

وتناول الكونت من جيبه قنينة بها سائل أحمر. وصب بضع قطرات منه في الكأس. وقال: تجرعي هذا السائل.. ولا تتعاطي سواه الليلة.

فترددت فالنتين.. فابتسم الكونت وقال: لولا هذا السائل لقضي عليك منذ أربعة أيام يا بنيتي.. أواه! كم كنت أتعذب وأنا أرى السم يسكب في سكون وطمأنينة في كأسك.. وكم كنت أرتجف خيفة أن تتجرعيه قبل أن أحول بينك وبين تجرعه في اللحظة المناسبة.

فبدا الذعر على وجه فالنتين.. وهتفت:

–وهل رأيت ذلك الذي كان يسكب السم في الكأس يا سيدي؟

– نعم.

فاستوت فالنتين جالسة في فراشها.. وصاحت: إن ما تقوله يا سيدي رائع مخيف، ولكن هل يجرؤون على الفتك بي في بيت أبي؟

ودقت الساعة منتصف الليل في تلك اللحظة.. فقال الكونت:

– فالنتين.. الآن سأنصرف.. فالزمي الصمت. وحذار أن يصدر من بين شفتيك ما ينم عن استيقاظك.. وتظاهري بالنوم. لتري كل شيء.

فأمسكت فالنتين بذراع الكونت، وغمغمت قائلة:

– يخيل إلي كأني اسمع صوتاً.. فدعني...

– إذن إلى اللقاء. وحذار أن تتكلمي أو تأتي بحركة..

واتجه الكونت نحو باب المكتب. وما لبث أن اختفى.

* * *

ومرت عشرون دقيقة.. ثم رأت الفتاة الباب الذي يفصل بين مخدعها وغرفة الصبي إدوارد يفتح ببطء وسكون.واقترب شخص من الفراش. فأغمضت الفتاة عينيها.. ولكنها استطاعت أن تسمع خرير سائل يسكب في الكأس التي تجرعت منها دواء مونت كريستو.

وفتحت فالنتين عينيها رغماً عنها. وأرسلت بصرها حولها بسرعة.

وكادت شفتاها تفلت صرخة ذعر. ولكنها تذكرت تحذير الكونت فلزمت الصمت. كان الشبح شبح مدام دي فيلفور.

* * *

وغادرت مدام دي فيلفور الغرفة في هدوء وسكون. وفتح باب المكتب ثانية. واقترب الكونت من فراش فالنتين.. وقال:

– حسناً؟ هل رأيت؟

فتأوهت فالنتين.. وقالت: نعم.. رأيت.. ولكني لا أستطيع أن أصدق عيني. أو أن أجد سبباً مقبولاً لرغبتها في التخلص مني.

– إنك غنية يا فالنتين. ودخلك السنوي لا يقل عن مائة وخمسين ألف فرنك.. ووجودك يحول دون تمتع ابنها بتلك الثروة الطائلة.

– ابنها إدوارد؟ أترتكب كل هذه الجرائم المفزعة من أجله؟!

– نعم.. فهل فهمت الآن...

فهزت فالنتين رأسها بأسى.. واستطرد الكونت:

– أما وقد عرفت تلك الحقيقة المؤلمة.. فهل تعتمدين علي يا فالنتين؟

– مر يا سيدي.. وأنا على استعداد للطاعة التامة.

فأخرج الكونت من جيبه علبة ذهبية.. وفتح غطاءها. وتناول منها (حبة) صغيرة.. قدمها إلى الفتاة.. وأمرها أن تبتلعها.. فلما فعلت.. قال: والآن.. الوداع يا ابنتي العزيزة.

وتقدم الكونت من كأس السم. وسكب ثلاثة أرباع محتوياتها في الموقد ليوهم الرائي أن الفتاة تجرعته.. ثم غادر الغرفة.

أما فالنتين، فإنها نامت في هدوء ووداعة الطفل الصغير..

* * *

وبعد عدة دقائق فتح باب غرفة إدوارد مرة أخرى. ونفذت منه مدام دي فيلفور.. وتقدمت نحو المائدة وفحصت كأس الدواء، ورقص قلبها طرباً عندما لاحظت أنه لم يبق من السائل غير ربعه، فسكبته أيضاً في الموقد. ودنت من الفراش بهدوء.. ورفعت الغطاء.. ووضعت كفها فوق قلب فالنتين.. وخيل إليها أنه لا ينبض..

لم يعد لدى مدام دي فيلفور شك.. لقد انتهى كل شيء. ماتت فالنتين ونجح بموتها آخر تدبير لها.

* * *

وفي الصباح دخلت الممرضة غرفة فالنتين واقتربت من الفراش، وألقت على النائمة نظرة سريعة.. ولكنها سرعان ما تراجعت إلى الوراء.. وهي تصيح في ذعر مستنجدة وكان افريني قادماً لزيارة المريضة وقتئذ. فسمع صيحات الممرضة، فخف إليها مذعوراً.. وهتف: ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ ووثب المدعي العمومي من فراشه.. ووقف بباب غرفة ابنته مشدوها وفي اللحظة التالية كان افريني قد فحص فالنتين.. وسمعه دي فيلفور وهو يصيح بصوت مؤلم: يالله! لقد ماتت فالنتين أيضاً.. فترنح دي فيلفور كالثمل.. ثم دفن وجهه بين راحتيه..

* * *

وأقبلت مدام دي فيلفور وهي تتظاهر بالصياح.. ودموع الرياء تطفر من عينيها بصعوبة.. بيد أنه راعها أن ترى افريني يفحص كأس الدواء بعناية تامة.. كانت تعتقد أنها أفرغت ما بقي في الكأس في الموقد أثناء الليل.. ولكن ها هي ذي ترى ربع الكأس مملوء بسائل مماثل للسائل الذي استعانت به في القضاء على فالنتين!

كانت معجزة من السماء بغير شك.

ولم تستطع القاتلة مشاهدة أثر جريمتها. ولعلها خشيت أن يبدو ما يفضح أمرها. فانسلت بسكون من الغرفة.

وهنا أفاق دي فيلفور من ذهوله.. وغمغم بصوت مؤلم:

–ماتت!! ودوي في المكان صوت متحشرج يصيح صاحبه:

– ماتت؟!! من قال أن فالنتين ماتت.؟!

فحول أفريني ودي فيلفور رأسيهما.. ورأيا مكسمليان واقفاً بالباب وهو مصفر الوجه مصعوقا..كان الشاب قادماً لزيارة خطيبته كالعادة، ولكنه وجدها جثة هامدة؛ مسجاة في الفراش.

نهض المدعي العمومي واقفاً وصاح في حدة:

–من أنت يا هذا.؟

فانطلق الشاب مهرولاً كالمجنون.. ثم عاد بعد بضع دقائق، وهو يدفع أمامه مقعد الرجل المفلوج، ويسرع به نحو مخدع المائتة..كان نوارتييه مصفر الوجه.. وصدره يعلو ويهبط.

وصاح مكسمليان وهو يمسك بذراع نوارتييه: سيدي. أنهم يسألونني عمن أكون.. فقل لهم أنني خطيبها. وأنها أعز مخلوق لدي.

وخر الشاب على ركبتيه أمام الفراش.. وهو يقبض على أغطيته بأصابع متشنجة.

ووضحت الحقيقة أمام عيني دي فيلفور.. فبسط يديه إلى الشاب التعس.. ولكن مكسمليان تجاهل تلك اليد.. واستطرد في حزن:

– أيها السادة.. أن فالنتين ماتت قتلا.. كما ماتت الماركيزة دي سان ميران وبرواس التعس.. فيا أيها المدعي.. إني أقرر الآن أن قاتل ابنتك لا يزال في بيتك فترنح دي فيلفور كالثمل ودهش الطبيب.

وكان نوارتييه يصغى لما يقول مكسمليان وقد رتسمت في عينيه نظرة تنطوي على الحزن والتأثر.. وسرعان ما أشار إلى الجميع بيده إشارة فهموا منها أنه يريد الاختلاء بابنه.

فتأبط افريني ذراع مكسمليان وخرجا.

* * *

وبعد ربع ساعة.. فتح باب الغرفة، وأومأ المدعي العمومي للرجلين بالدخول. وحدق مكسمليان في وجه دي فيلفور، فوجده مصفراً.. ورأى قطرات العرق تتصبب فوق جبينه.

وقال دي فيلفور بصوت خشن: اقسما لي أيها السيدان أن تبقيا على هذا السر إلى الأبد.. وثقا أن العدالة ستجري في مجراها.

إن والدي أشد تعطشاً للانتقام منكما.. ولكنه مع ذلك يرجوكما أن يظل الأمر سراً بيننا.

فتقهقر الرجلان إلى الخلف.. واردف دي فيلفور:

– ثقا أنني سأنتقم لابنتي انتقاماً رائعاً في خلال ثلاثة أيام فقط أي في أقل من المدة القانونية التي تتطلبها العدالة..

واندفع مكسمليان نحو الفراش.. وبعد أن الصق شفتي فالنتين الباردتين بشفتيه. انطلق من الغرفة لا يلوي على شيء..

وانثنى دي فيلفور إلى أفريني.. وقال: إننا بحاجة إلى راهب..

فقال أفريني: أنني علمت من أحد الخدم أن راهباً إيطاليا يقيم بالبيت المجاور لبيتكم فهل أرسله إليك أثناء انصرافي؟

– نعم..

* * *

وبعد ربع ساعة كان ذلك الراهب يدخل مخدع الموت.

وتبادل الراهب مع نوارتييه نظرة ذات معنى.. ثم نهض الأول إلى الباب فأغلقه بالمزلاج كيلا يزعجه أحد!!

الفصل السادس والعشرون

كان يوم تشييع الجنازة مظلماً قاتماً حزيناً..

وقد قصد مونت كريستو إلى قصر البارون دنجلار قبل ذهابه للاشتراك في تشييع الجنازة.. ليتباحث مع الكونت في بعض المسائل المالية الخاصة.. وقد خف البارون لاستقباله وعلى شفتيه ابتسامة حزينة.. ثم قال:

– أظنك جئت تشاركني في أحزاني من جراء المصائب التي انهالت على بيتي، بعد أن أصابتني نذالة بنديتو في أنفتي وكبريائي؟

فهز مونت كريستو رأسه بحزن.. وقال:

– الواقع أنني مقدر فداحة الكارثة.. فأتقدم إليك بأسفي وعزائي.. ويقيني أن ما سيناله هذا المجرم من عقاب بعد أن استطاع البوليس القبض عليه في دومنيك سوف يعوضك عما سببه لك من إهانة وألم..

وأمسك قليلاً.. ثم استطرد:

– لقد جئتك للتحدث معك في أمر حسابي.

فقال البارون: إذن فأرجو معذرتك ريثما أوقع على هذه الوريقات الصغيرة.. إنها شيكات بمبلغ خمسة ملايين من الفرنكات.

فابتسم الكونت وقال: إن لي معك حساباً جارياً على مبلغ ستة ملايين من الفرنكات سحبت منها تسعمائة ألف فرنك، فيتبقى لي خمسة ملايين ومائة ألف فرنك. وسآخذ الآن هذه الشيكات الخمسة وقيمتها خمسة ملايين كما تقول.. وها هي مخالصة بالمبلغ جميعه.

قال الكونت ذلك وتناول الشيكات ودفع للبارون بورقة المخالصة.

صعق البارون وقال بصوت أجش: ماذا؟ هل تنوي أن تأخذ هذا المال؟ عفوا.. ولكني أدين به لأحد المستشفيات.. وقد وعدت أن أعيده إليها هذا الصباح..

قال الكونت: حسنا.. إليك الشيكات إذن.

ولكن البارون عاد فهدأ من ثائرته.. وتلاعبت ابتسامة ضئيلة على شفتيه. وقال:

– ولكن لا بأس.. أعطني المخالصة.. واحتفظ بهذه الشيكات لنفسك.

فابتسم مونت كريستو بدوره.. ومد يده فأخذ الشيكات. وأودعها حافظة أوراقه. ثم نهض وحول وجهه شطر الباب.

* * *

وعلى إثر انصراف مونت كريستو، وضع البارون المخالصة في جيبه، ونهض إلى أدراجه فجمع ما بها من مال. ثم أحرق بعض الأوراق. وتناول جواز سفره في سكون ثم ابتسم.

الفصل السابع والعشرون

بعد أن شيع جثمان فالنتين إلى مقره الأخير وانصرف المشيعون رأى الكونت دي مونت كريستو مكسمليان يظهر فجأة ويقترب من قبر فالنتين.. ويركع عنده ثم يحني رأسه حتى تمس جبهته القبر..

وظل الكونت يراقب الشاب وهو مكب على قبر حبيبته.. ولم يلبث هذا أن نهض، وتحول شطر باريس.فصرف الكونت مركبته، وسار في أثر الشاب.

ووصل مكسمليان إلى بيته.. ثم قصد إلى غرفته رأساً.

وأسرع الكونت في أثره.. واقتحم عليه غرفته.. فذعر مكسمليان ونظر إلى الكونت ببرود.

فأشار الكونت بأصبعه إلى غدارتين فوق المكتب.. وقال:

– أرى غدارتيك أمامك. فأجاب مكسمليان: إني أعد عدتي للسفر.

– يا صديقي.. يا عزيزي مكسمليان.. أتوسل إليك ألا تكون أحمق.. دعنا نطرح اللثام عن وجهينا. وكن على يقين من أنك لا تستطيع أن تخدعني بهدوئك المزيف.. فأنت عازم على الانتحار. وها هو الدليل على ذلك..

واقترب من المكتب، ورفع الرسالة التي كان الشاب يكتبها ساعة دخوله.

قال مكسمليان: ومن الذي يستطيع أن يمنعني من ذلك.؟

– أنا أمنعك يا مكسمليان. بل أنا الشخص الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يمنعك.. فأنا الذي خلصت حياة أبيك. وأنا الذي أرسل لشقيقتك ذلك (الكيس) الأحمر. وأرسل لأبيك السفينة فرعون ،لأني أنا (أدمون دانت) الذي كان يداعبك فوق ركبتيه وأنت طفل.

فترنح مكسمليان من فرط الدهشة والذهول.. ولم يلبث أن سقط تحت قدمي مونت كريستو.. ولكنه سرعان ما نهض واقفاً.. ووثب إلى الردهة وهو يصيح كالمجنون: جوليا. جوليا. أمانويل. أمانويل!

فجاءت جوليا وأمانويل وبعض الخدم يهرعون إليه. وقد أرعبتهم صيحات مكسمليان. وفي اللحظة التالية كانت جوليا تلقي بنفسها بين ذراعي أدمون دانت.. ويجد أمانويل نفسه عاجزاً عن التعبير عن شكره للملاك الذي أنقذ موريل وخلصهم جميعاً من العار.. وأخيراً قال الكونت لجوليا وزوجها بلهجة الأب الحنون: والآن أرجوكما أن تدعاني ومكسمليان على انفراد.

* * *

وانفرد الكونت بمكسمليان.. وكان هذا جامداً في مكانه كالتمثال. فاقترب منه مونت كريستو.. ومس كتفه بلطف. وقال: تشجع.. ألم تعد بعد رجلا؟

– بل عدت رجلاً.. وبدأت أتألم من جديد.. إني يائس من الحياة، زاهد فيها بعد أن ضاع الأمل وخاب الرجاء.

– لا تستسلم لهذا الضعف أيها الصديق.. حدثني.. ألا تثق بي.. ألا تستطيع أن تدرك ما الذي في مقدور مونت كريستو أن يفعله؟ أجب. هل تستطيع أن تؤكد أنه لا يمكنه الإتيان بمعجزة ؟ إذن فابق في انتظار المعجزة التي سأقوم بها!

– بحق السموات يا كونت لا تتهكم علي.

– يا إلهي.. أنه لا يزال في عماية من الأمر.. إذن أصغ إلي.. إذا لم أستطع في مدة شهر واحد من هذا اليوم وفي مثل هذه الساعة أن أحيي ميت الأمل في نفسك.. فكن على يقين أنني سأقدم إليك كأساً مملوءاً بنوع من السموم الإيطالية أهول وأشد مفعولاً من ذلك السم الذي قتل فالنتين.. وأقول لك: (أفعل الآن بنفسك ما تشاء)!

– أتعدني بذلك..

– بل أقسم..

فأمسك مكسمليان بيد الكونت.. وقبلها بخضوع واحترام.

وأردف الكونت: وليكن موعدنا في جزيرة مونت كريستو.. والآن هل أنت على استعداد لأن تقسم ألا تحاول الانتحار حتى الموعد المضروب؟

– نعم.. أقسم..

– إذن دعني أخرج من هذا البيت دون أن يراني أحد..

فأحنى مكسمليان رأسه بخضوع.

الفصل الثامن والعشرون

يذكر القراء أن مونت كريستو ذكر ضمن حديثه مع البارون دنجلار أن البوليس استطاع القبض على بنديتو في دومنيك.. وأودعه السجن رهن المحاكمة.. وقد زار برتسيو القاتل مرتين في سجنه. وفي نهاية الزيارة الثانية كانت دلائل الغبطة والانشراح.. بل والاستهتار مرتسمة على وجه بنديتو.

* * *

وكان قد حان وقت انعقاد محكمة الجنايات. فاستعان دي فيلفور بذكائه وعبقريته الفذة في إعداد نقط الاتهام في جريمة مقتل كادروس وكان من جراء المجهود المتواصل الذي بذله المدعي العمومي أن شعر بإعياء شديد فخرج إلى حديقة بيته يروح عن نفسه ويستنشق النسيم ملء رئتيه. واتفق أن رفع رأسه فجأة وعلى غير قصد فوقع بصره على أبيه وكان جالساً بالقرب من إحدى النوافذ.

وفجأة حول نوارتييه اتجاه نظراته إلى مكان خاص في الحديقة وبدت في عينيه وفي ملامحه علامات الحقد والضغينة والوحشية. فانتفض دي فيلفور وأرسل بصره رغماً عنه إلى حيث كان نوارتييه يلقي تلك النظرة الهائلة.. ورأى مدام دي فيلفور جالسة بين الأشجار وفي يدها كتاب صغير.. فاصفر وجه المدعي العام، وفهم ما يرمي إليه الرجل المفلوج.

أسرع دي فيلفور إلى غرفة أبيه.. وبادره قائلاً:

– إني لم أنس يا سيدي.. فصبراً يوماً آخر.. وسأقوم على الوفاء بما وعدت.

فبدا الارتياح على وجه نوارتييه.. أما دي فيلفور فإنه سار بخطى متثاقلة شطر مكتبه وساقاه لا تقويان على حمله.

وفي صباح اليوم التالي استيقظ دي فيلفور من نومه مبكراً وارتدى ملابسه بسرعة.. ثم دق الجرس فأقبل الخادم.. قال دي فيلفور:

– اطلب إلى سيدتك أن تنتظرني في مخدعها الخاص..

* * *

وعندما دخل دي فيلفور مخدع زوجته تحول إلى ابنه وأمره بمغادرة الغرفة.. ثم سار إلى الباب.. وأوصده بالمفتاح.. فقالت زوجته في دهشة: يا للسماء.! ما معنى هذا؟

فقال المدعي وهو يقف بين زوجته والباب: سيدتي.. أين تضعين السم الذي تستخدمينه في جرائمك؟

– سيدي. لست أفهم ما تقول.. فأردف المدعي بهدوء رائع: إني أسألك أين تخفين السم الذي استعنت به على الفتك بالماركيز والماركيزة دي سان ميران وبرواس وابنتي فالنتين..

فامتقع وجهها.. وخيل إليها أن هوة سحيقة تفغر فاها تحت قدميها.

– آه، أنت لا تجيبين يا سيدتي.. إذن فأنت لا تجرؤين على نفي التهمة الشنيعة التي أوجهها إليك فدفنت الزوجة الشابة وجهها بين كفيها.. وصاح دي فيلفور بصوت متهدج: أيتها القاتلة السفاكة.. لشد ما يدهشني أن يستولي عليك الضعف ولكنك ولا شك تعرفين القصاص الذي يعده القانون للسفاكين أمثالك..

فبسطت المرأة التعسة ذراعيها. وسقطت على ركبتيها.. وصاحت:

– القصاص!. القصاص!

– نعم.. أتحسبين أنه يرفع عنك لأنك زوجة ذاك الذي ينطق به.. كلا يا سيدتي كلا.. فسكين المقصلة في انتظار القاتل مهما كان شأنه.. اللهم إلا إذا كانت القاتلة قد احتفظت لنفسها ببضع قطرات من السم القتال.

– آه.. اصفح عني يا سيدي.. دعني أعيش من أجل ابني..

– وهل تركت ابنتي تعيش من أجلي؟!

ودنا دي فيلفور منها.. واستطرد: فكري في الأمر يا سيدتي.. إذا عدت من المحكمة ولم أجد العدالة قد أخذت مجراها فإني أبلغ أمرك إلى القضاء بنفسي، وألقي القبض عليك بيدي. والآن الوداع يا سيدتي.

وكأن سقوط كلمة الوداع على تلك المرأة التعسة أهول من سقوط سكين المقصلة.. فأغمى عليها.

الفصل التاسع والعشرون

كانت محكمة الجنايات تغص بأمواج الجماهير التي هرعت لمشاهدة محاكمة "بنديتو" وبعد أن أخذ القضاة والمحلفون أماكنهم.. قال رئيس المحكمة: جيئوا بالمتهم ففتح الباب في الحال. ودخل بنديتو.. ولم يكن في ملامحه أي أثر لذلك الاضطراب الذي يستولي على المجرمين وقت المحاكمة.. وقد أجال طرفه حوله بسرعة.. ورأى جميع الملتفين حوله، وحدق طويلاً في وجه رئيس المحكمة، وأطول في وجه مسيو دي فيلفور.. وقرأ رئيس المحكمة صيغة الاتهام التي كتبها دي فيلفور بقلم من نار..

والتفت الرئيس إلى المتهم وقال: ما اسمك.. ولقبك؟

فنهض أندريا وأجاب بصوت متزن: عفواً يا سيدي.. أرجو أن تسمح لي بتأجيل الإجابة على هذين السؤالين. فذهل الرئيس.. وظهرت على المحلفين إمارات الدهشة.. وعاد الرئيس فقال: إذن ما عمرك؟

– أحد وعشرون عاماً.. أو أني سأبلغ هذه السن بعد أيام قلائل لأني ولدت في شهر سبتمبر سنة ١٨١٧.

وكان دي فيلفور منهمكاً في كتابة بعض الملاحظات، فرفع رأسه بسرعة حينما سمع ذلك التاريخ. وقال الرئيس: وأين ولدت؟

– في أوتويل بالقرب من باريس.. فرفع دي فيلفور رأسه ثانية.. وحدق نحو بنديتو بذعر.. أما هذا فإنه جفف شفتيه برشاقة بمنديل حريري.. وسأل الرئيس: ومهنتك؟

– كنت مزوراً. ثم لصاً.. وأصبحت في النهاية قاتلاً..

فانطلقت من أفواه الجميع غمغمة تدل على الدهشة الشديدة.. بينا ضغط دي فيلفور على جبهته بيمينه، واصفر وجهه..

وقال الرئيس: والآن.. ألا ترى أيها المتهم أن تذكر اسمك بعد أن ذكرت كل هذه المقدمات التي ظننت أنها تشرفك..

فقال أندريا في هدوء: الواقع أنني لا أستطيع أن أذكر اسمي لأني لا أعرف لي اسما.. ولكني على علم باسم والدي.. ويمكنني أن أذكره..

قال الرئيس: ما اسم أبيك إذن؟

أجاب أندريا بهدوء: والدي هو حضرة المدعي العمومي.

فالتصق الرئيس في مكانه وغمغم دون أن يلاحظ الاضطراب الذي أصاب دي فيلفور: المدعي العمومي؟ المدعي العمومي؟

– نعم، وإذا أردت أن تعرف اسمه، فإنه يدعى دي فيلفور.

وأفلت زمام الموقف من يد الجمهور.. وعلا الضجيج.. واشتدت ضوضاء السخط.

صاح رئيس المحكمة:

– أتسخر بالعدالة يا هذا، وتجسر على أن تضرب للجمهور أسوأ أمثولة للعبث بالنظام؟!

وخف بعض الحاضرين إلى دي فيلفور. وكان قد تهالك في مقعده وتراخت أعصابه.. وقد قيل أن سيدة مقنعة أغمى عليها وأسعفها الخدم..

ثم أعيد النظام إلى القاعة.. والتفت أندريا إلى القوم. وقال باسما:

– أيها السادة أني أؤكد لكم أنني لم ولا أقصد إهانة المحكمة. إنني سئلت عن إسمي فأجبت. وعن محل ميلادي فذكرته.. ولكنهم كذبوني، فاسمعوا قصتي، ولكم بعد ذلك أن تقضوا في أمري بما شئتم. وشرع يقص قصته. وهي التي أتينا عليها في

الحديث الذي دار بين برتسيو ومونت كريستو في الحديقة. ثم ختم حديثه قائلاً:

– وكان من الممكن أن أعيش سعيداً بين القوم الطيبين الذين نشأت بينهم. لولا أن بذور الشر نمت في نفسي. ولم أستطع استئصالها، فكان يطيب لي ارتكاب الجرائم والسرقات، حتى لطالما قال لي الرجل الذي التقطني:

(ليس الجرم جرمك أيها الفتى التعس، بل هو جرم أبيك الذي تركك للموت أو لحياة شقية مظلمة قاتمة). ومنذ ذلك اليوم وأنا أسخط على أبي..

فسأل الرئيس: ومن هي أمك؟

– لست أدري في الواقع.. ولو أني علمت فيما علمته أنها كانت تحسبني ميتاً. وفي هذه اللحظة دوت في قاعة المحكمة صرخة ثاقبة تلاها أنين وتأوه.. وأسرع بعض الخدم إلى مصدر الصرخة. حيث كانت سيدة مقنعة قد أغمى عليها للمرة الثانية.وحمل الخدم تلك السيدة.. فسقط القناع عن وجهها. وعرف القوم أنها مدام دنجلار.

وصاح الرئيس بالمتهم:

– وأين برهانك أيها التعس؟

– حسناً.. انظروا أولاً إلى مسيو دي فيلفور ولكم بعد ذلك أن تسألوني برهاناً.

فتحولت عيون الجميع إلى المدعي العمومي.. الذي لم يستطع احتمال تلك النظرات الفاحصة، فتقدم إلى وسط القاعة وهو يترنح كالثمل وشعره المشعث يتماوج فوق كتفيه. وأظفاره مخضبة بدم وجهه.

قال بنديتو: أبي. أبي. يسألونني البراهين فهل ترغب أن أدلي إليهم بها؟

فغمغم الرجل بصوت أجش: كلا. كلا. فلا حاجة بكم إلى البراهين، لأن كل شيء ذكره هذا الشاب حقيقي لا ريب فيه.

وسقط رأسه فوق صدره.

الفصل الثلاثون

خرج دي فيلفور من قاعة المحكمة مطأطئ الرأس بادي الذهول.. حتى وصل إلى مركبته فارتقاها. ثم أشار بيده إلى السائق شطر شارع سان أنوريه. وفي خلال الطريق تذكر فجأة زوجته.. تلك الزوجة التي حكم عليها بالموت.. ومن المحتمل أن تكون في تلك اللحظة تتأهب له.. وانتفض.. ثم غمغم:

- كلا.. كلا.. لا يجب أن تموت هذه المرأة لأنها ليست أشنع جرماً مني.. يجب أن نفر معاً من باريس ونرحل إلى أقصى أركان الأرض..

وكأنما ارتاح لذلك الخاطر.. فتنفس الصعداء. ووقفت المركبة أخيراً بباب البيت. فقفز منها.. ثم انطلق نحو مخدع زوجته واقتحمه.. ولم يكد يتقدم بضع خطوات حتى ألفاها ممددة على الأرض جثة هامدة.

جن الرجل من الرعب والهول.. وتقهقر حتى التصق بالجدار.. وعيناه لا تتحولان عن الجثة.. ثم صاح فجأة: ولدي! أين ولدي؟ إدوار.. إدوار.. وراح يدور في الغرفة كالمجنون.. وأخيراً استقر بصره على وجه زوجته.. فخيل إليه أنه يرى ابتسامة تهكمية ترتسم على شفتيها.. أرسل بصره إلى المخدع.. ورأى جزءاً من مقعد لين كبير.. فاقترب منه.. ورأى الغلام ممدداً فيه فبرقت أسارير وجهه.. امتدت يده في حنان وحب.. واختطف الطفل.. وضمه إلى صدره.. وحركه.. وناداه.. ولكن الطفل لم يجب..

ألصق شفتيه الملتهبتين بجبينه.. فوجده في برودة الثلج.تحسس جسده.. فإذا هو متجلد متخشب.. كان الطفل ميتاً.. ولم يستطع الشقي أن يصدق عينيه.. فجر نفسه جراً وسار بخطوات مضطربة حتى ألفى نفسه في غرفة أبيه. وخيل إليه كأن

نوارتييه يصغي بكليته إلى حديث رجل آخر..

كان الرجل الآخر هو الأب (بيزوني). وكان هادئاً ساكناً كعادته.

ورأى دي فيلفور الراهب.. فرفع يده وألصقها بجبينه.. وشعر به القس فحول رأسه. ورأى ما حل بالمدعي العمومي. فأدرك لفوره أن المنظر الذي أعده في محكم الجنايات قد نجح نجاحاً تاماً.

قال دي فيلفور: لماذا أراك هنا؟

– إنني جئت لأقول لك أنك دفعت الدين مضاعفاً.. وإنني سأبتهل إلى الله ليصفح عنك كما أصفح أنا.

ورفع قلنسوته السوداء. وهز رأسه.. فتساقط شعره ولحيته المستعاران. فصاح دي فيلفور وهو يتقهقر إلى الوراء: الكونت دي مونت كريستو!؟

– لم تصل إلى النتيجة تماماً يا سيدي. وجدير بك أن تفكر أبعد من ذلك.

– هذا الصوت. هذا الصوت. ترى أين سمعته للمرة الأولى؟

– إنك سمعته للمرة الأولى في مرسيدس منذ ثلاثة وعشرين عاماً. وكان ذلك يوم قرانك بالآنسة دي سان ميران. إنك حكمت علي بأن أموت على أهول وأروع صورة وقتلت أبي. وسلبتني الحرية؛ والحب، والسعادة.

– من أنت إذن؟ من أنت؟

– إني شبح شاب تعس دفنته أنت حياً في قبو قصر (ايف)، وقد أرسله الله إليك في زي مونت كريستو وحمله بالألماس والذهب.. وزوده بقوة العزيمة والجلد. ثم منحه الفوز أخيراً.

فصاح المدعي: آه. لقد عرفتك! إنك...

– أنا أدمون دانت!

فصاح دي فيلفور وهو يمسك برسغ الكونت: أنت أدمون دانت! إذن تعال

معي!

وقاده إلى مخدع الموت وأشار إلى جثة زوجته وولده وقال بصوت أجش:

– انظر يا أدمون دانت. هل انتقمت لنفسك!؟

فاصفر وجه مونت كريستو لدى رؤية ذلك المنظر المخيف. وشعر بأنه تعدى أقصى وأقسى حدود الانتقام.

وبعد ربع ساعة فتح باب مخدع فالنتين، وخرج منه الكونت وهبط الدرج بهدوء.

وفي الحديقة، رأى الكونت مسيو دي فيلفور وهو يدور شارداً ويحمل بين يديه فأساً يضرب بها الأرض بين فترة وأخرى بغضب وغيظ ويصيح: "إنه ليس هنا!.. إنه ليس هنا!." وحوله طائفة من الخدم ينظرون إليه برعب وخوف.

فذعر مونت كريستو وتراجع خطوة وهو يغمغم: –لقد جن التعس!

ولم يستطع أن يمكث أكثر من ذلك فوثب إلى الطريق وهو يحاول أن يهدئ من ثورة نفسه ويغمغم:

– كفى.. كفى.. لأنقذ الأخير.. فقد تجاوزت كل حد!!

الفصل الحادي والثلاثون

كان البارون دنجلار قد قرر الهرب، والرحيل من فرنسا بعد تلك الكوارث الفادحة التي شتتت شمل عائلته وكادت تودي به إلى الخراب. وقد رحل الرجل إلى روما.. ونزل في فندق (لوندره). وفي أحد الأيام، انطلق إلى فرع مصرف (تومسون وفرنش).. وقضى فيه ما يقرب من الساعة مع مدير المصرف. ثم غادره وهو يفرك يديه سروراً.

وبعد ظهر ذلك اليوم استقل البارون مركبة قاصداً بها إلى البندقية وما سارة حوالي الثلاثة فراسخ وراء أسوار روما حتى كان نور النهار قد بدأ يتضاءل. وأخذت الشمس تنحدر نحو مغربها. وكانت الليلة باردة ممطرة، فاكتفى دنجلار بأن غاص في مقعده بعد أن أمر الحوذي أن يعرج به على أقرب نزل يقضي فيه ليلته.

ووقفت المركبة أخيراً.. فحسب أنه وصل إلى المكان الذي ينشده وأطل من النافذة.. ولشد ما كانت دهشته عندما رأى بيتاً خرباً، وثلاثة أو أربعة رجال يروحون ويغدون أمامه كالأشباح.

فتح باب المركبة، وحاول أن يخطو منه.. غير أن يداً قوية دفعته إلى الداخل.. وأغلق الباب بعنف، وانطلقت المركبة تسابق الريح..عقلت الدهشة لسان دنجلار، وقد زادت دهشته حين رأى بضعة فرسان يحيطون بالمركبة.. وبعد مدة وقفت المركبة.. وفتح بابها.. ثم صاح صوت بلهجة الأمر: اهبط..

فأطاع دنجلار صاغراً.. ووجد نفسه محاطاً بأربعة رجال يتقدمهم دليل هو أحد أفراد عصابة لويجي فامبا المشهورة ويدعى بيبينو.

وأدخلوه إلى مجاري سان سباستيان.. وقدمه بيبينو إلى الزعيم لويجي فامبا بقوله:

– صيد ثمين.. تفرس فيه فامبا.. ثم أمر بوضعه في غرفة ضيقة بها فراش من القش وجلد الماعز..

وما إن احتوته الغرفة حتى أوصد الباب بالمزلاج من الخارج.

* * *

أدرك دنجلار حقيقة موقفه وعرف أنه في مجاري سان سباستيان التي كان قد وصفها له ألبرت دي مرسرف.. وقياساً على الماضي اعتقد أنهم سيطلبون منه فدية.. ثم يطلقون سراحه.وما إن وصل إلى هذه النتيجة حتى هدأ باله.. وأغمض عينيه.

* * *

استيقظ دنجلار في صباح اليوم التالي. وهو يشعر بالجوع الشديد. وانتظر أن يأتوه بالطعام، وطال انتظاره حتى انصرم النهار. فاقترب من الباب، وصاح في حارسه: أظن أن الوقت قد حان لتأتوني بما أسد به رمقي. فتحول إليه بيبينو. وقال: وماذا يريد سموكم؟

– أريد دجاجة وبعض السمك البارد.

وإن هي إلا لحظات حتى أقبل شاب أنيق يحمل صفحة بها دجاجة يتصاعد منها البخار. فتناولها منه بيبينو، وفتح باب السجن. ووضعها على المائدة المحطمة الموجودة في ركن الغرفة.

وتقدم دنجلار من المائدة وتهيأ للانقضاض على الدجاجة. فاستوقفه بيبينو قائلاً:

–عفواً يا مولاي، إن الدفع هنا مقدم.

فدس دنجلار يده في جيبه. وأخرج منه جنيهاً قدمه إلى بيبينو. فقال هذا: معذرة يا مولاي فإن ثمن الدجاجة عندنا خمسة آلاف من الجنيهات. فهتف دنجلار في دهشة وحنق:

–لا شك أنك تهزل. فدعني آكل لأني جوعان جداً. وإليك جنيهاً خصيصاً لك.

فقال بيبينو في إصرار:

– يبقى ٤٩٩٨ جنيهاً. والمتبع أن نتناول الثمن فوراً.

فقال دنجلار في غضب:

– ما دام الأمر كذلك. فخذ دجاجتك واذهب بها إلى الشيطان.

* * *

ومضت ساعات وأحس دنجلار بهزال شديد من أثر الجوع. فنادى بيبينو ثانية. وقال له: إني جوعان. وما دام ثمن الدجاج عندكم مرتفعاً فائتني بكسرة من الخبز الجاف. فقال بيبينو:

– إن ثمن الوجبة عندنا محدد. بغض النظر عن نوع الطعام.

وسقط في يد دنجلار وأدرك ألا فائدة من العناد. فقال:

– وكيف أستطيع أن أدفع إليك أيها الوحش؟ أتحسبني أحمل مائة ألف فرنك في جيبي؟

– أن بجيب سموكم ٥١٠٠٠٠٠ فرنك وهي ثمن ١٠٠ دجاجة. واثنتين.

ارتجف دنجلار.. وسقطت العصابة عن عينيه. وأدرك معنى تلك الأضحوكة. قال:

– ولكن كيف أدفع لكم وأنا لا أملك مالاً؟

– إن ذلك من السهولة بمكان. فإليك قلما وورقاً فاكتب تحويلاً إلى بنك تومسون وفرنش وأترك أمر صرفه إلينا.

فكتب دنجلار التحويل.. ووقع عليه ثم قدمه لبيبينو الذي قرأه ثم دسه في جيبه.. وأقبل دنجلار يلتهم الدجاجة. وقد ظهرت في عينيه عجفاء جداً بالنسبة إلى ثمنها.

* * *

وفي صباح اليوم التالي شعر دنجلار بالجوع مرة أخرى. ولكنه عزم على مقاومة أمعائه.. ولكنه لم يستطع التغلب على العطش الذي كان يلهب حلقه.. نادى حارسه.. وطلب إليه أن يأتيه بزجاجة من أحقر أنواع النبيذ.

قال بيبينو: حسناً يامولاي.. ولكن ينبغي أن تدفع الثمن مقدماً وهو مبلغ ٢٥ ألف فرنك عن الزجاجة الواحدة.

فصاح دنجلار بصوت مؤلم:

–آه.. قل إنكم تريدون اختلاس أموالي.

– ربما كان ذلك هو المقصود يا مولاي.

– إذن أذهب واستدع مولاك..

وبعد بضع دقائق أقبل لويجي فامبا وهو يقول:

–هل أرسلت في طلبي؟

– نعم.. إني أريد أن أسألك عن مقدار الفدية.

– إنها فقط مبلغ الخمسة ملايين فرنك التي في جيبك.

فأحس دنجلار كأن خنجراً يمزق قلبه. وصاح:

–ولكن هذا المبلغ هو كل ما تبقى لي في العالم من ثروة طائلة. فإذا أخذتموه فخذوا حياتي أيضاً.

– إننا ممنوعون من سفك دمك.

– ومن الذي يمنعكم؟

– زعيمنا الأكبر..

فامتقع وجه دنجلار وصاح:

– مهما يكن الأمر. فلن تروا توقيعي ثانية أيها الأوغاد.

ثم ألقى بنفسه على الفراش. وكانت قواه المعنوية قد تحطمت تماماً فأجهش بالبكاء.

* * *

وانقضى اثنا عشر يوماً كان الجوع خلالها يرغم دنجلار على التنازل عن جزء من ثروته. فلما راجع حسابه. وجد أنه لم يتبق له غير مائة ألف فرنك.. وعاد ذلك الذي نسي الله طويلاً يفكر في معجزات الله وقدرته.

ومرت ثلاثة أيام أخرى قضاها دنجلار في الابتهال والصلاة.. وفي اليوم الرابع، لم يعد دنجلار إنساناً.. بل أصبح هيكلاً متحركاً.

جعل يلتقط فضلات أكلاته السابقة. وبدأ يأكل القش الذي يغطي أرض سجنه، ثم يتوسل إلى بيبينو في صوت يغص بالدموع أن يعطيه كسرة من الخبز.. وعرض عليه ألف فرنك ولكن بيبينو رفض.

وفي اليوم الخامس جر نفسه إلى الباب. وقال وهو جاث على ركبتيه:

– الزعيم.. الزعيم..

فجاء فامبا في الحال.. وقال:

– هأنذا.. فماذا تريد؟

– خذ ما تبقى لدي، ودعني أعيش هنا.. إني لا أسألك إطلاق سراحي، وكل ما أطلبه هو أن أعيش فقط. يا إلهي. كم أتألم وأتعذب.

– حقاً!! ولكن هل نسيت أن هناك من تألم أكثر منك؟

نطق فامبا بهذه الكلمات في صوت حاد نفذ إلى قلب دنجلار..

وهنا تذكر البارون ذلك الشبح العجوز الذي رآه يئن ويتألم ويزمجر في ساعته الأخيرة.. فضرب جبهته بيمينه.. وصاح: كلا. كلا. لم أنس..

وهنا دوى صوت عميق حزين جعل شعر رأس دنجلار يقف هولاً ورعباً.. وقال

صاحب الصوت:

–هل آمنت الآن أن الحياة قصاص؟ وهل ندمت وتبت؟

فأرسل بصره الكليل الذي أضعفه الجوع إلى مصدر الصوت، ورأى خلف الحارس رجلاً قد التف في وشاح أسود كبير.. فقال:

–وعلام التوبة والندم؟

– عن ذنوبك وآثامك.

ورفع الرجل الخفي وشاحه.. فصاح البارون في ذعر: الكونت دي مونت كريستو؟!

– كلا.. إنك مخطئ. فأنا لست مونت كيستو. وإنما أنا ذاك الذي خنته وأشقيته وذهبت بشرفه.. أنا ذاك الذي سلبت حريته، وتواطأت على سرقة زوجه.. أنا ذاك الذي وطئته بقدميك لترفع نفسك على هامته.. أنا ذاك الذي حكمت على والده بالموت جوعاً.. أنا أدمون دانت. فصاح دنجلار صيحة ذعر وهول، ودفن وجهه في الأرض، فقال الكونت:

– انهض.. فحياتك في أمن.. الأمر الذي لم يكن من نصيب أحد من شركائك في جرائمك.. فأحدهم مات، والآخر جن، فابق المائة ألف فرنك معك لأني أهبك إياها.. أما الخمسة ملايين التي سرقتها من المستشفيات فقد أعدتها إليها.

* * *

وعندما انبثق فجر اليوم التالي، وأفاق دنجلار من نومه، وجد نفسه قريباً من مجرى ماء عذب، وكان يشعر بالعطش الشديد فجر نفسه إليه جراً.

ولما أراد أن يروي غليله رأى في صفحة الماء أن الشيب لم يترك في رأسه شعرة سوداء.

الخاتمة

اقترب يخت جميل من جزيرة مونت كريستو في مساء أحد أيام الخريف.. وعندما ألقى اليخت مرساه.. أسرع شاب طويل القامة بالنزول إلى الشاطئ.. ثم سار قليلاً، ولكنه عاد فتوقف وتلفت حوله وإذ ذاك شعر بيد توضع على كتفه، وسمع صوتاً جعله ينتفض.. وكان صاحب الصوت يقول:

– طاب مساؤك يا مكسمليان.. إنك شديد الحرص على المواعيد فشكراً لك.

فصاح الشاب بلهجة فرح وهو يضم يد الكونت بين كفيه:

– آه.. أهذا أنت يا كونت؟

– نعم يا صديقي.. هلم بنا إلى منزلي أولا.

فحاول مكسمليان الاعتراض وقال:

–يا صديقي، لقد طلبت إلي الانتظار إلى يوم ٦ أكتوبر.. وها أنذا قد انتظرت، فهل حدثت المعجزة التي عنها تحدثت. إنني يائس يا كونت.. وما زادتني الأيام إلا قنوطاً.. فبالله عليك أما تركتني أضع حداً لهذه الحياة التعسة؟

فقال الكونت في هدوء عجيب:

– ليكن لك ما تشاء، ولكن تعال معي أولا.

فتبعه مكسمليان.. وما هي إلا لحظات حتى كان يطأ أبسطة سميكة في كهف قوي الضوضاء.

وجلس الكونت في مقعد وثير. وأشار لمكسمليان أن يحذو حذوه.

قال الكونت: يا عزيزي مكسمليان.. إنك الآن بسبيل مغادرة العالم إلى الأبد

فخبرني، ألا يسيئك فراقي؟

فاضطرب الشاب، واغرورقت عيناه بالدموع.. وقال بصوت أجش:

– آه.. أتوسل إليك يا كونت ألا تطيل عذابي.

فأطرق الكونت لحظة، كان يحب الشاب حب الأب لابنه، ويتمنى له أن يعيش.. وأن يعيش سعيداً. فأراد أن يرى إلى أي حد بلغ به القنوط.

رفع رأسه وقال: مكسمليان.. أنت تعلم أنني وحيد.. وقد عودت نفسي أن أنظر إليك كما أنظر إلى ابني.. والأب لا يبخل على ابنه بكل ما يملك ويستطيع، ليحيا ويعيش.. وأنا على استعداد لأن أهبك ثروتي.. فقط عش..

فقال مكسمليان ببرود: لقد حان الوقت يا كونت .

فأبرقت أسارير الكونت.. وقال:

– يا لك من عنيد.. على رسلك إذن يا صاحبي.. وأخرج من جيبه علبة ذهبية.. وفتحها.. ثم قدم للشاب (حبة صغيرة) فتلقفها هذا شاكراً..

وما كادت (الحبة) تستقر في جوف مكسمليان، حتى أغمض عينيه، وراح في غيبوبة. وفي تلك اللحظة ادخل الكونت فالنتين.. وقال:

– والآن يا فالنتين.. إنكما لن تفترقا ما دام قد ألقى بنفسه في أحضان الموت ليلحق بك..

فأمسكت فالنتين بيد الكونت، ورفعتها إلى شفتيها فقال الكونت:

– نعم.. اشكريني، وقولي حتى يجهدك القول، إنني قد أعدت إليك السعادة والهناء.. فذلك يخفف عني بعض ما بي.

فقالت فالنتين: إذا كنت ترتاب في إخلاصي لك، فسل الأخت المحبوبة هايدي.

فقال الكونت بتأثر حاول إخفاءه:

– أتحبين هايدي؟ إذن فقومي على حمايتها والعناية بها.

وإذ ذاك ارتفع صوتاً حاد متأثر:

– ولم ذلك يا مولاي؟

فتحول الكونت، ورأى هايدي واقفة وهي مصفرة الوجه.. فقال لأنك ستكونين غداً حرة طليقة. إني سأعيد إليك ثروتك واسم أبيك يا ابنة الأمراء.

فقالت هايدي وقد شحب وجهها:

– سيدي. إني لازلت في مقتبل العمر، وأرى الحياة التي أوجدتني فيها عذبة سارة. فلعله من المؤلم أن أموت.

أدرك الكونت مغزى كلمات الفتاة.. وفتح ذراعيه.. فألقت الغادة بنفسها بين أحضانه.. ثم شد على يد فالنتين.. واختفيا..

* * *

أفاق مكسمليان بحركة فجائية. ولما رأى أنه مازال على قيد الحياة. اختطف سكيناً من فوق المنضدة وحاول الإجهاز على نفسه.

وإذ ذاك طرق سمعه صوت عذب يقول: انهض أيها العزيز.

فحول وجهه،ولما رأى فالنتين، صاح صيحة هائلة تدل على فرط دهشته ثم سقط على ركبتيه.

* * *

وعند بزوغ شمس اليوم التالي، كان مكسمليان وفالنتين يسيران جنبا إلى جنب فوق الشاطئ. وهي تقص عليه كيف استطاع الكونت أن يميط اللثام عن سر الجرائم التي كانت ترتكب في بيت أبيها، وكيف أنقذها من الهلاك. وقبل جاكومو يحمل إلى مكسمليان رسالة تركها له الكونت قبل رحيله. ففضها الشاب في لهفة وقرأ فيها ما يلي:

"عزيزي مكسمليان– سيذهب بكما جاكومو في القارب البخاري إلى ليجهورن

حيث ينتظركما مسيو نوارتييه ليبارك حفيدته قبل زواجها وكل ما تجده في الكهف وفي قصر الشانزلزيه وقصر تريبور هي هدية الزواج يقدمها أدمون دانت إلى ابن موريل سيده القديم.

"غير أني أرجو الآنسة دي فيلفور أن تترك للفقراء كل ما يؤول إليها من ثروة أبيها الذي جن وأخيها الذي مات.

"ابتهالاً إلى الله من أجلي. واطلبا إليه أن يغفر لي".

صديقك أدمون دانت

كونت دي مونت كريستو

الفهرس

الفصل الأول ٥
الفصل الثاني.. ١٠
الفصل الثالث ١٤
الفصل الرابع ٢٦
الفصل الخامس.. ٣٥
الفصل السادس.. ٤٨
الفصل السابع ٧٥
الفصل الثامن.. ٨٠
الفصل التاسع ٩٢
الفصل العاشر ١٠١
الفصل الحادي عشر.. ١٢٧
الفصل الثاني عشر ١٤٣
الفصل الثالث عشر.. ١٥١
الفصل الرابع عشر.. ١٦٦
الفصل الخامس عشر ١٧٠
الفصل السادس عشر.. ١٨٠
الفصل السابع عشر.. ١٨٨
الفصل الثامن عشر ١٩٣

الفصل التاسع عشر ٢٠٦
الفصل العشرون ٢١٩
الفصل الحادي والعشرون ٢٢٦
الفصل الثاني والعشرون.............................. ٢٣٦
الفصل الثالث والعشرون ٢٥٣
الفصل الرابع والعشرون ٢٥٨
الفصل الخامس والعشرون.............................. ٢٦١
الفصل السادس والعشرون.............................. ٢٦٩
الفصل السابع والعشرون ٢٧١
الفصل الثامن والعشرون.............................. ٢٧٤
الفصل التاسع والعشرون ٢٧٧
الفصل الثلاثون ٢٨٠
الفصل الحادي والثلاثون.............................. ٢٨٣
الخاتمة ٢٨٩